سلطنة الحريم
في
الدولة العثمانية

تأليف

حسن عبد العزيز

الناشر
دار الآفاق العربية

عبد العزيز، حسن أحمد حافظ
سلطنة الحريم فى الدولة العثمانية
تأليف : حسن عبد العزيز
ط ١ ، القاهرة : دار الآفاق العربية ٢٠١٢
٢٢٥ ص ، ٢٤ سم
١ - الإمبراطورية العثمانية
٢ - المرأة فى السياسة

تدمك :978-977-344-218-6
رقم الأيداع :٢٠١٢/٢١٢٥
الطبعة الأولى
١٤٣٤/٢٠١٣ م

جميع الحقوق محفوظة
لدار الآفاق العربية
نشر – توزيع – طباعة
٥٥ شارع محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : ٢٢٦١٧٣٣٩ -00202 تليفاكس : ٢٢٦١٠١٦٤ -00202
Email: daralafk@yahoo. Com

المقدمة

يشير تعبير سلطنة الحريم إلى التأثير القوي لجناح في قصر السلطان العثماني وتدخلهن في أمور الدولة التي حكمت جزءا كبيرا من العالم، في وقت كانت الدولة العثمانية أقوى دولة في العالم، و استخدم العثمانيون مصطلح "قادينلَر سَلطَناتي" أي "سلطنة النساء" للإشارة إلى ممارستهن لأدوارٍ سلطانية، أما المقابل العربي "سلطنة الحريم" فُيبقي على الكلمة التي راجت في الحقبة العثمانية للدلالة على الجناح الضخم الملحق بقصر السلطان العثماني، والذي يضم والدته وزوجاته وجواريه، وأفراد عائلته من النساء العازبات، إضافة إلى الخدم والموظفين من الجنسين المعينين للاهتمام بالجناح وأعضائه.

بهذا المعنى، تعد سلطنة الحريم جزءًا من مفهوم الكارماريلا الأوسع، والذي يشير إلى تلك النخبة التي تستغل قربها من الحاكم (السلطان أو الملك أو الإمبراطور) للتدخل وإن بصورة خفية في شؤون الدولة دون أن يكون لها مناصب فيها، وطوال نحو ١٣٠ عاماً، بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، مارس أعضاء جناح الحريم التابع لقصر الحاكم العثماني أدواراً أثرت في مسار الدولة، وجاء ذلك على نحو خاص إما من أمهات السلاطين أو زوجاتهم. وشهد القرن السادس عشر بما يتزامن مع آخر سنوات السلطان سليمان القانوني بروز سطوة "الحريم" وانسحاب السلطان من جلسات الديوان، ليبدأ دور السلطانات في البروز شيئا فشيئا كلما اقتربنا من نهاية القرن السادس عشر.

وتعد السلطانة حفصة والدة سليمان القانوني واحدة من النساء العثمانيات اللائي شاركن أبناءهن في إدارة أمور "الدولة العلية"، وكانت أول من حمل لقب السلطانة الأم أو الوالدة مدشنة بذلك دور ثابت لنساء الحريم في شؤون القصر العثماني، وأعقب غيابها عن البلاط العثماني سلسلة من الأحداث انتهت إلى إعدام السلطان لأكبر أبنائه مصطفى وكذلك إعدام الصدر الأعظم القوي وزوج شقيقة السلطان إبراهيم باشا، أم زوجة السلطان سليمان السلطانة خُرم فيعتقد أنها مع العودة إلى مفهوم "سلطنة الحريم"، كانت وراء تلك الأحداث، كما تحتفظ الأراشيف بمراسلات لها مع زعماء

دول العالم آنذاك.

وفور اعتلاء ابنها سدة الحكم العثماني، تنتقل السلطانة الوالدة من السراي القديم إلى قصر الباب العالي في موكب يعرف باسم "والدة آلايي" أي موكب السلطانة الوالدة، ومنذ هذه اللحظة، تصبح أعلى السيدات شأنًا طوال حكم ابنها، والمسئولة الأولى عن جناح الحرم العثماني. ولدعم موقعها هذا، تخصص لوالدة السلطان إيرادات ضخمة من أراضٍ خاصة (سلطانية) ومخصصات أخرى شتوية وصيفية، إضافة إلى هدايا الدول الأجنبية ورجالات الدولة العثمانية. وإضافة إلى مسؤوليات القصر، وتقديم أدوار استشارية للسلطان نفسه، تنشغل والدات السلاطين ببناء الأوقاف والمشاريع الخيرية في السلطنة العثمانية والحرمين الشريفين والقدس.كان وجود والدة السلطان في هذا الموقع يتسم بالأهمية أحياناً، نظير العدد الكبير من الأشخاص والأنشطة التي تجري داخل القصر العثماني، واتخاذ السلطان قرارات بخصوصه قد لا تستند إلى إلمام كاف بتفاصيله الداخلية.

وبما بات يعرف بـ "سلطنة الحريم" اتجهت والدات سلاطين أخريات إلى السياسة و"استخدمن نفوذهن بما جلب الضرر، وهناك من هذه النماذج السيئة على ذلك السلطانة (نور بانو) والسلطانة (صفية) في القرن السادس عشر، والسلطانة (كُوسّم ماه بَيْكر) في القرن السابع عشر، وفي الصفحات التالية نستعرض أهم السلطانات اللاتي اضطلعن بأدوار سياسية في إطار سلطنة الحريم ودسسن أنوفهن في شؤون البلاد ما كان له أثره البالغ على مستقبل الدولة العثمانية أحيانا بالإيجاب وغالبا بالسلب.

الحريم العثماني

تاريخ المسلمين في عصر سلاطين العثمانيين - في معظمه - كانت تصنعه الجوارى اللاتى سيطرن على الخليفة والخلافة.. أولئك الخلفاء سلبوا النساء حريتهن وجعلوهن جوارى فقامت الجوارى بالتحكم فيمن سلبهن حريتهن، فأصبحت الجارية تسيطر على الخليفة أو السلطان سواء كانت أمه أو محظيته. وانتقمن بذلك ممن سلبهن حريتهن . الخلفاء العثمانيون أو السلاطين العثمانيون ساروا على نهج الخلفاء العباسيين في إتخاذ الحريم.

وعاش حريم السلطان العثمانى داخل أجنحة الحريم التي تحيطها الأسوار العالية والتي يتناوب على حراستها حراس من الخصيان السود يحتفظون بمفاتيح الأبواب ليل نهار .وأجنحة الحريم العثماني تعد منطقة مغلقة أو منطقة محرمة لا يسمح السلطان العثماني لأحد بالدخول أو مجرد الاقتراب منها أو النظر لسكانها ، لا يدخلها إلا رجل واحد هو السلطان ، بالإضافة للخصيان القائمين على الخدمة ، وهم ليسوا برجال وإنما أشباه رجال، وحدث أن تجرأ تاجر من البندقية ونظر من بعيد للحريم السلطاني أو جناح الحريم السلطاني من خلال نظارة مقربة فاكتشفوا أمره، وأمر السلطان العثماني بشنقه فورا، وتكررت المحاولة وقام بها مترجم أرمني يعمل للسفير الفرنسي في استانبول ، وقبضت عليه السلطات العثمانية متلبسا بالنظر من خلال النظارة المعظمة فأمر السلطان العثماني بشنقه فورا قبل أن يتدخل السفير الفرنسي.

وكان للسلطان مقصورة خاصة وسط أجنحة الحريم تحوى غرفة نومه وحماما وقاعة استقبال كبيرة كان يؤدى فيها الصلاة ويستقبل فيها قريباته المتزوجات، وعند زيارته لأجنحة الحريم كانت تصحبه (الكايا) وهى من كبرى الموظفات في الحريم السلطاني ، ومن بين اختصاصاتها تنظيم الأوقات التي يقضيها السلطان مع الحريم بالليل أو النهار ، وكان يطلق على هذه الزيارات "خلوت همايون" أي "الخلوة السلطانية". ولكي يتم الإعلام بوصول السلطان فإنه كان يلبس صندلا كي يحدث صوتا على الأرض المكسوة بالرخام . وكان من قواعد البروتوكول العثماني في أجنحة الحريم أن الحريم إذا فوجئت بوجود السلطان فلا ينبغي لإحداهن أن تنظر

للسلطان ، بل تغض بصرها وتنظر للأرض خشية وحياء.

وكان السلطان يتزوج من الحرائر مثنى وثلاث ورباع ، ولكنه كان لا يزيد على أربع زوجات معا في (الجولة الواحة)، وكان منهن مسلمات ومسيحيات ، من الحرائر اللاتي لم يمسهن رق أو أسر ، ويتزوجهن السلطان بعقود شرعية ، وكان ذلك في عهد السلاطين السبع الأوائل ابتداء من السلطان عثمان الأول وانتهاء بالسلطان محمد الفاتح أي ما بين (١٢٩٩ ـ ١٤٨١) م . ولكن بعدها نبذ السلاطين العثمانيين الزواج من الحرائر وفضلوا عليهن الجواري الحسان اللائي كان يموج بهن القصر السلطان في أجنحة الحريم.

معظم السلطانات كان يتم جلبهن كجوارى من بلاط الامبراطور البيزنطي، وقصور أمراء القسطنطينية، نظرا لما يتمتعن به من جمال خلاب، وتدريب راق على قواعد وأخلاقيات الطبقات العليا، وكن يسلكن حياة هادية مستقرة في بيئتهن العثمانية الجديدة، لا يتدخلن في شئون الحكم، منصرفات لواجباتهن البيتية، وتربية الانجال كما يتوجب أن تكون التربية.. وأول سلطانة معروفة تاريخيا كانت السلطانة نيلوفر زوجة السلطان المؤسس أورخان الغازى وكانت مثالا للزوجة الطاهرة التي تعرف مسؤولياتها وتقوم بها في هدوء واخلاص، فبينما كان زوجها مشغولا عنها في حروبه وتوسيع ملكه، كانت هى تستقبل الضيوف وتكرم وفادتهم كربة بيت موقرة، لم يسجل التاريخ تدخلا نسائيا في شؤون الدولة العثمانية، في أوائل نشأتها على عهد السلاطين التسع، قبل سليمان القانوني.

والسلاطين الأوائل مع التزامهم بالحد الأقصى في عدد الزوجات ـ حسب المتبع في الدين السّنى ـ إلا أنهم لم يلتزموا بشرط العدل بين الزوجات ، فالبرتوكول العثماني كان يفضل الزوجة التي تلد ابنا على التي تلد بنتا ، وكانت مخصصات الأولى المالية أكثر من الأخرى ، بالإضافة إلى التقدير الزائد التي كانت تحصل عليه والدة ولى العهد. ولكن فيما عدا ذلك تقريبا كانت كل سلطانة تقيم في جناح خاص بها في الحريم السلطاني ، ولكل سلطانة حاشية خاصة بها تضم وصيفات يقمن على خدمتها . وتضم الحاشية عدد معينا من الخصيان ورئيسا لهم يسمى " أغا الطواشية " أو " أغا

الخصيان " ، ويقوم فريق منهم بخدمة السلطانة أي الزوجة ويقوم الفريق الآخر بحراسة الجناح والطرق الموصلة إليه ، وكان عدد الحراس أربعين . أما الأغا فيتلقى رغبات السلطانة أو أوامرها وينقلها إلى السلطان نفسه إذا كانت السلطانة أم ولى العهد أو أنجبت ولدا ، أو ينقلها إلى الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) إذا كانت السلطانة من الدرجة الثانية.

وكلمة حريم باللغة التركية تطلق على كل الجناح الذي تقيم فيه نساء القصر السلطاني وتطلق أيضا على النساء اللاتي في هذا الجناح الذي له نظم خاصة ويعد مجتمعا خاصا ولافراده درجات ومراتب وهذا يفسر عدم وجود ملكة في الدولة العثمانية وذلك لكثرة نساء السلطان وان أمه تلقب بـ(تاج المستورات) وتسمى الوالدة وكان لها ارفع منزلة في الحريم ولها نائبة تسمى (خازن دار اوستا) ومهمتها الرقابة والادارة وتدبير النفقات وكانت ترافق السلطان في زيارته للحريم واذا ماتت الوالدة خلفتها في مكانتها وللسلطان زوجات من هؤلاء الحريم يسمون (قادين) ولم يكن يتقيد بالعقد الشرعي فيكفي أن يقول أن هذه زوجته لتكون زوجة شرعية له ويقال أن السلطان با يزيد الأول المتوفى عام ١٤٠٣ م أول سلطان تزوج زواجا شرعيا ولكل زوجة من زوجات السلطان حاشية من الجواري خاصة بها ترعاها وتسهر على راحتها وجرت عادة السلطان بزيارة الحريم رغبة منه في زيارة والدته أو احدى زوجاته واذا عرفت الجواري هذا الخبر بادرن بالتزين والتعطر املا في اعجاب السلطان بهن واذا لفتت نظره واحدة منهن وسأل عن اسمها يكون ذلك بالطبع اعجاب بها فتقبل عليها الدنيا وتسمى (كوزدة) وتعني انها راقت بعين السلطان واذا أعجب بها كثيرا وزاد اهتمامه بها سميت (اقبال) واذا ما غضب عليها طردت من القصر لتعيش خارجه حرة طليقة ومن المألوف أن يتزوجها بعض من رجال البلاط أو كبار موظفي الدولة، وكان الحريم مرتعا للكيد والدس والتنافس على الاستئثار بميل السلطان إلى نسائه وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر كان تأثير النساء في السلاطين من الشدة إلى حد أن الايطاليات والصقليات كن يعرض أنفسهن للبيع بمحض رغبتهن في الوصول إلى قلب السلطان.

وكان الحريم السلطاني يموج بأعداد وفيرة من الجواري الحسان ، وكان السلاطين يحصلون عليهن من ثلاثة مصادر، أولا: الشراء من تجار الرقيق الذين كانوا يسارعون إلى ساحات القتال حين يسمعون أن حربا أوروبية قد اشتعلت ويشترون السيدات والفتيات الأسيرات ويحملوهن إلى الدولة العثمانية. وكان أمين جمرك الآستانة يأخذ حاجة القصر السلطاني من الفتيات اللاتي تتراوح أعمارهن بين العاشرة والحادية عشر.

ثانيا: وفى أوقات السلم كان تجار الرقيق في أوروبا وآسيا يخطفون الفتيات من اليونان وإيطاليا وألبانيا والنمسا وروسيا والقرم ، وكان أكثرية تجارة الرقيق من بلاد القوقاز . لذلك كانت أغلبية الفتيات الرقيقات من تلك النواحي واشتهرن بجمالهن المفرط.

ثالثا: كانت الهدايا المورد الأخير الذي يتلقى السلطان عن طريقه أجمل الفتيات ، يقدمهن له كبار موظفي الدولة أو حكام بعض الدول الأوروبية.

أما الجواري فكن يتعرضن لدروس مكثفة في بعض العلوم والسلوكيات الاجتماعية الراقية بحيث يكن مؤهلات للدخول في الحريم السلطانى وتلقى التعاليم العثمانية، ومعظم أولئك الجواري كن مسيحيات ، ولكن بمجرد التحاقهن بالقصر تتغير أوضاعهن فيدخلن في الإسلام ويتعلمن البروتوكول العثماني .وفى أروقة القصر يتلقين دراسات في الثقافة الإسلامية والثقافة العامة والسلوك الاجتماعي واللغة التركية .وأثناء هذه الدراسة تظهر موهبة الفتاة ومدى استعدادها للدراسات الإضافية كاللغات الفارسية والعربية والفرنسية والإنجليزية ، والتاريخ الإسلامي والجغرافية ، هذا إذا كانت مستعدة للدراسة النظرية ، وإذا كان لديها استعداد للدراسة العملية فتتلقى تعليما في التطريز والحياكة والموسيقى والغناء والرقص، وكانت الجواري ينتظمن في مجموعات كل مجموعة تتكون من عشر جوار ، وتشرف رئيسة على كل مجموعة، وبمضي الأيام تزداد الجارية جمالا ورشاقة وعلما وثقافة ولباقة وسعة أفق ، وعند الوصول إلى سن معينة لا تتجاوز الخامسة والعشرين يعتقها السلطان ويأذن لها كسيدة حرة في الزواج من أحد رجال الدولة ، والسلطان هو الذي يختار لها الزوج وتغادر

القصر.

وقد تجذب الجارية انتباه السلطان فيختارها لنفسه وقد تنجب منه ولدا أو بنتا ، ويعلو مركزها إلى درج تقارب السلطانة الحرة ، وحينئذ يطلق عليها لقب " قادين " وهى كلمة تركية معناها سيدة ، وتحصل على حريتها بعد وفاة السلطان .ولأن من حق السلطان أن يتمتع بمن يشاء من الجواري فإن السلاطين العثمانيين عدلوا عن الزواج بالحرائر وفضلوا عليهن الجواري الحسان ، ولكنهم كنوع من الإتباع للسلاطين السابقين كانوا يعينون من الجواري أربعا ممن أنجبن ويجعلونهن من القادينات ، وكانت كل قادين بمثابة سلطانة تعيش بمعزل عن زميلاتها الثلاث ولا تقابلهن إلا في الحفلات ، ولها حاشية تقوم على خدمتها ولها إعتمادات مالية .. ولا يعلوهن في المرتبة إلا والدة السلطان إذا كانت حية ترزق.

وتدخل البروتوكول العثماني في تحديد أوضاع القادينات ، الكبرى والثانية والوسطى ثم الصغرى. وتحديد أهمية القادين يتوقف على نوع الولد ، فإن كان ذكرا أصبحت " باسن قادين " أي كبيرة القادينات أو " خاصكى سلطانة " لتقترب من درجة السلطانة وتصبح السيدة الأولى بعد وفاة أم السلطان ويكون ابنها كالعادة ولى العهد طالما هو أكبر الأبناء ويتولى العرش إذا لم تصادفه مؤامرة تسلبه الحياة.

وتعد أزياء نساء الحرملك من الجوانب المثيرة حول زي المرأة في العصر العثماني، وسيتوقف الباحثون كثيرًا أمام عدد من المخطوطات النادرة التي تعكس زي النساء، منها رسالة "العنوان في مسالك النسوان" لمؤلف مجهول، ومخطوط السيوطي "إسبال الكساء على النساء"، ومخطوط ابن العماد "رفع الجناح عما هو من المرأة مباح"، ومخطوط ياسمين العمري "الروضة الفيحاء في تاريخ النساء".

وشاع استخدام بعض أنواع الأقمشة التي لم تكن شائعة من قبل في الدولة العثمانية كالجوخ، كما استخدم الفراء كقلايات وأفاريز وبطاقات، وشاع بصفة خاصة في أزياء نساء الطبقة العليا. وكان نادر الاستخدام قبل ذلك، ومن المعروف أن (الموضات) وبخاصة في أزياء النساء تهبط من أعلى إلى أسفل، وغالبًا ما تنبع من العاصمة. لذلك كان رداء "اليلك" الذي نشره العثمانيون في كل أنحاء دولتهم، حتى كاد أن يكون زيًّا

قوميًّا لنساء الدولة العثمانية، واليلك رداء منزلي يلبس فوق القميص مشقوق من الأمام حتى الذيل وهو مفتوح من الجانبين، والكمان ضيقان ينتهيان عند المعصمين، ويلف حول الخصر حزام من الحرير أو الكشمير وقد يكون من المعدن، ويلبس "اليلك" صيفا وشتاء فيصنع في الصيف من الحرير والأقمشة القطنية الرقيقة وفي الشتاء من الصوف أو الكشمير، وكانت ترتديه الأميرات ونساء القصر وعِلْية القوم في كل مكان، نزولا إلى جميع نساء الطبقة الوسطى، ولم يتنازل عن ارتدائه إلا اللواتي كن بعيدات عن رياح التغيير ولا يتأثرن بتغيير الموضة كفلاحات الريف والبدويات.

ولبست النساء في ذلك العصر القفطان فوق "اليلك" وتحت الجبة، وكان استعماله قبل ذلك مقصورًا على الرجال واستعملته النساء في مصر منذ العصر العثماني، وهو رداء مشوق من الأمام حتى نهاية الذيل يفلق على الصدر بأزرار، وأكمامه طويلة متسعة، وتستخدم في صناعته الأقمشة القطنية والحريرية ذات الألوان المختلفة، وتظهر أكمامه المتسعة من تحت الجبة وتمتد حتى أطراف الأصابع ويصل طول القفطان إلى القدمين.

وتلبس فوق اليلك والقفطان الجبة وكانت مخصصة للرجال قبل العصر العثماني ولبستها النساء في ذلك العصر، وبخاصة نساء الطبقتين العليا والوسطى، وهي مشوقة من الأمام ولا يسمح اتساعها بالتقاء حافتيها الأماميتين على الصدر ولا تقفل وليس لها عروات أو أزرار، وهي قصيرة يصل طولها إلى ما بين منتصف الساق والقدمين .أما الأكمام فقد تكون قصيرة وتنتهي عند الكوع أو طويلة تصل إلى الرسخ، وهي أكمام ضيقة ليست متسعة كأكمام القفطان، ويركب الفراء في شرائط علوية على جانبي فتحة الجبة، وقد يدور بالذيل وقد يغطي نصفها العلوي كله.

وكانت المرأة في ذلك العصر تلبس عند الزواج ما يعرف باسم "التريزة" وتتكون من السبلة، وهي ثوب فضفاض قليل التفاصيل يتسع ليلبس فوق جميع الملابس المنزلية السابقة، ويصنع غالبًا من قماش ناعم من الحرير أو التفتاز وغالبًا ما يكون أسود اللون وأكمامه متسعة جدًا. ثم تلبس معه" الحبرة" وهي قطعة من القماش مربعة

المساحة تقريبًا طول ضلعها حوالي مترين، وهي من الحرير الأسود في منتصفها شريط ضيق يثبت حول الرأس وتنسدل لتغطي الرأس والوجه وبقية الجسم من الخلف، وتمسك السيدة طرفي الحبرة من الداخل وتضمها بذراعيها لتلف جسدها كله فلا يظهر منها سوى وجهها الذي يغطيه البرقع، وهو الجزء الثالث المكمل لزي خروج المرأة، وتلبس كل هذه القطع فوق الزي المنزلي السابق الذكر عند الخروج، أما الجانب العملي من الدراسة والذي كان بمثابة المفاجأة، فقد كان عبارة عن ٢٥ نموذجًا) باترون) مجسمًا لأهم قطع الزي التي تنتمي لفترة البحث، حيث قامت الباحثة بتصميمها، من خلال صور المخطوطات ورسوماتها.

أما عن الحرملك من الداخل فيشمل الأقسام الخاصة والإدارية المفصولة بجدار باب سعادة في سرايا طوب قابي جناح الحرم أيضا. الأبنية باتجاه ميدان ديوان الحرم والتي هي بامتداد الجدار الفاصل تمثل أماكن إقامة الجواري مجموعة الخدمة الداخلية أو الخدمة الخارجية التابعة لمسئولي الحرم، باب الجملة الذي يفتح على الجدار الرئيسي الوارد الذكر وقرة اغلار تاشلغي التابع للحرم مع القسم الأساسي للحرم الذي تعيش فيه السيدات ذات المستوى الراقي حيث يتصل هذا القسم بطريق التون يول والموجود بمحيط باحة جناح السلطان حيث تفتح على الجناح الذي يعيش فيه السلطان وكبار العائلة ومكان الاستقبال ومكان الجواري وليس من السهل وصف باقي أقسام السراي، وتتجسد القدسية التي منحها الإسلام للمحارم في حياة العثمانيون بالتصميم المعماري لمكان المحارم عندهم ، ويوضح الحرم في طرازه أو أسلوب تصميمه المعماري ٤ حقب زمنية رئيسية.

أولا الفترة بين نهاية القرن ١٥ والنصف الأول من القرن ١٦ بين عهدي السلطان محمد الفاتح والسلطان سليمان القانوني: كانت أول سرايا بنيت في استانبول في منطقة بايزيد مع سرايا طوب قابي خلال الفترة الأولى هذه سرايا للنساء كان يطلق عليها (سرايا دوهتران). واليوم فقد هذا الجناح خاصيته وعزلته نتيجة التغيرات التي أجريت عليه ويعرف باسم جناح باش هاسكي ما يعني رئيس الخاصة. واعتبارا من برج العدالة أصبحت البروزات الموجودة في باب جملة الحرم وجناح باش هاسكي وبرج

سليم الأول وقصر بغداد وأبراج حكيم باشا تشكل قلعة ذات أبراج. وخلال هذه الفترة تناسقت معمارية المساكن مع الباحات الخارجية وأبنية الحرم وفي خلال أواخر القرن ١٦ حُدد جناح السلطان ووالدته وصالونات الجواري بجدران الحديقة الموجودة .من الواضح وجود مجال حر خارج الحرم باتجاه عدالت وأبواب عربات الحرم وذلك لعدم الحاجة إلى وجود كادر من الخدم والجواري خلال الفترة الأولى .من مجاميع الأبنية المهمة في الفترة الأولى جناح الاستقبال الموجود عند الغرف الخاصة للحرم. ومن المعلوم فصل أبراج سليم الأول وحماملي والمسماة بكوله كوشكي للتعليم تحت عناية الشاهزادة. وكون هذا المجال اعتبارا من نهاية القرن ١٦ جناح الشاهزادة والمسمى بقفص شيمشارلك والحاوي على حدائق أيضا. ومن الواضح تميز الفترة الأولى بوجود حزام من الممرات حول جناح والدة السلطان والمقربين منها.

ثانيا: فترة السلطان القانوني:بدأت هذه الفترة مع السلطان سليمان القانوني وصاحبة الشخصية الفذة هاسكي هورم سلطان وانضمام الحرم إلى سرايا طوب قابي . وكان من نتيجة توسيع سرايا طوب قابي مابين أعوام ١٥٢٠-١٥٣٠ أن تغيرت فائدته أو غايته . وبخروج هورم سلطان من الحرم في السرايا القديمة مع أطفالها إلى حرم سرايا طوب قابي تكون قد فتحت بابا لتلبية جميع حاجات العائلة من هذا الحرم. وفي خلال هذه الفترة تم إقامة رواقين بجانب الحرم للخدم أو الجواري داخل مجال غير مسقف ومستقل عن الحرم .وتعزل الأقسام خارج أقسام السيدات إلى درجة حمايتها .ويحتوي هذا القسم على أماكن المكلفات بالعمل ومسؤولة النساء أو البنات وعلى حمامهم أيضا . ويرتبط مع هذه الأقسام جناح الاسطة والعمال والذين يشكلون عنصرا هاما في الخرم والذين من المفروض انتقالهم في عهد الفاتح إلى الجناح أمام جناح الباش هاسكي التابع للوالدة .ويبدو واضحا إقامة غرف خاصة (خاص أودا) في عهد مراد الثالث عند تجديد جناح الباش هاسكي والذي سمته كذلك هورم سلطان والذي كان يناسب مقامها في تلك الفترة .

ثالثا: فترة مراد الثالث والسلطانة نوربانو – صافية: يبدو واضحا إتمام تأسيس الحرم في السرايا حسب النظام العثماني في نهاية القرن ١٦. نتيجة للأعراف والتقاليد

الإسلامية التركية في تكوين العائلة أصبح للسلطانة الأم دور في حرم السرايا العثمانية. ونتيجة للمشاحنات المستمرة في العلاقة بين كل من السلطانة نوربانو والسلطانة صافية وحيرة السلطان مراد III فيما بينهما، ما أدى إلى إجباره على اتخاذ خطوات جدية لإدارة الوضع المتأزم بينهن في حرم سرايا طوب قابي. وكان لا بد من تقسيم القوى في الحرم وذلك بتسخير إمكانيات العمارة الكلاسيكية في هذه الفترة وبما يتناسب وظروف الوضع الفعلي للتصاميم الممكن تنفيذها. وأصبحت ردهات الجواري تمثل البنية التحتية في هذه الأجنحة. ومن اجزاء الحرم المبنية بشكل تفصيلي من وجهة النظر التفصيلية ومن ناحية كون لها تأثير مهم هو جناح السلطانة الأم.

تم تجسيد قدرة معماري الامبراطورية العثمانية من امثال المعمار سنان والمعمار داوود بأعمالهم من مثل هونكار حماملاري(حمامات السلاطين) وهونكار صوفاصي(رواقات السلاطين).كانت صالونان الاحتفال والاستقبال في البداية ذات قبب عادية ثم زينت هذه القبب من الداخل والخارج .ومن امثلة موازنة المعمار للمنطقية والجمالية العثمانية التصميم الذي أنجزه في الغرفة الخاصة لمراد الثالث بجانب الرواق.وقد وازن العثمانيون باستخدام مصنوع الجين(عبارة عن فخار مطلي بطلاء خاص)بتغليف داخل القبب وبتغليف الأحواض على حد سواء.باستخدام مثل هذه الأماكن والواجهات يكونوا قد وصلوا إلى أساسات ثابتة في تأسيس وإقامة أماكن من مثل الحرم وأماكن السلطان والسلطانة الوالدة.تطبق هذه العمارة التي اوجدوها من المنطق الكلاسيكي حتى على أحواض الحدائق .من مفارقات هذه الفترة في منظومة السرايا المتمثلة ببناء سرايا طوب قابي والحرم وجود جناح الشاهزادة . كان من دواعي ضم الشاهزادة للحرم ما حدث خلال القرن ١٦ من مداخلات خطرة بين الأناضول وإيران وما حدث من مشاحنات بين الشاهزادة والسرايا وهذا ما توجب من وضع الشاهزادة تحت الإقامة الجبرية في الحرم بسبب قوانين الفاتح والتي توجبت عدم قتل الشاهزادة حفاظا على سير أمور الدولة وهذا ما سبب تحالف شعبي ضد السرايا .وفي نهاية القرن ١٦ ركزت الدولة على بروتوكولات الواجهات وقامت ببناء جناح الشاهزادة فوق جناح الباش هاسكي وكان يحتوي هذا النظام من البناء على

الحمامات وكانت تضم سرايا سليم الأول الحرم وحدائقه ما جعلت الحرم بهذا الشكل من أوسع الأجنحة ورمزا للعصر.

رابعا: القرون ١٥-١٧ و١٨ : في نهاية القرن ١٦ ونتيجة الحركة الداخلية الواسعة تم إضافة أقسام جديدة إلى الحرم ولم يكن السبب الحاجة إلى الحماية بقدر ما كانت الحاجة إلى التوسعة بسبب الزحام الحاصل من كثرة الأشخاص وبالتالي كثرة الحرائق الناتجة .من ثم اصبح الدافع هو الرمز حيث اصبح رمز كون الشخص سلطانا هو بناء غرفة خاصة له في السرايا .وظهرت في هذه الفترة مجموعة تقيم الحرم بجانب باحة المستشفى. وظهرت في هذه الفترة أيضا ظاهرة قوة هيبة السلطانة الأم وزيادة نفوذها مما أدى إلى طلبها بناء غرف فوق جناحها.

وفي القرن ١٨ بدأ استخدام ديكورات روكوكو والباروك الغربية التي ركزت على جمالية الطبيعة والخفة وتمثل ذلك بغرفة الطعام للسلطان احمد الثالث والتي كانت تحوي على لوحات فنية تصويرية وخلال منتصف المئوية نلاحظ أن السلاطين كانوا قد طلبوا إنجاز لوحات شاعرية غنية وخفيفة ضمن الديكورات الداخلية للقصور .كانت غرفة الخزينة تبرز في الواجهة خلال الفترة الكلاسيكية وتبرز إلى جانبها الغرفة الخاصة وكانت تستخدم نفس الديكورات في عهد عبد الحميد الأول وقد تم هدم قسم من برج سليم الأول وأقيم مكانه ما يبدو مسكنا وهو عبارة عن جناح استقبال وفراغ. أصبح الخاندان والشهزادة في القرن يعيشون بحرية وأعطيت لهم قصورا وتعتبر منطقة ذات طبيعة دراماتيكية خاصة باعتباره ساحة شيشارلك(شقائق النعمان) في التاريخ.ويلاحظ استخدام اساليب حرفية متنوعة في بناء الحرم . وسراي طوب قابي عبارة عن متحف نادر يوضح سياسة وثقافة وصنعة العثمانيون كما هي على ارض الواقع وتعبر سرايا طوب قابي عن حقبة زمنية محتشمة ذات طبيعة قوية معبرة وتمثل خطوة كلاسيكية.

الأغوات

وبمناسبة الحديث عن الحرملك أيام العثمانيين لابد أن نعرج على نظام رديف هو نظام الأغوات لارتباطها بالحريم وبتاريخ هذة الفترة ولتصحيح مفهوم هذة الكلمة

ومدلولها عند الجميع، فمن هم الأغوات ؟؟

لفظ اغا أعجمية مستعملة في اللغات التركية والكردية والفارسية فعند الأكراد تطلق على شيوخهم وكبارهم وتطلق عند الأتراك على الرئيس والسيد وتطلق في الفارسية على رئيس الأسرة، وصارت كلمة أغا أيام الدولة العثمانية تطلق على الشيخ أو السيد وصاحب الارض ورئيس خدمة البيت وكان كثير من خدمة الحكومة في الوظائف العسكرية يلقبون بكلمة أغا وكانت تطلق أيضا على الخصيان الخادمين في القصر.

يعود تاريخ الأغوات إلى عهد معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه فهو اول من وضع خداما للكعبة المشرفة من العبيد، وأول من اتخذ الخصيان لخدمة الكعبة هو يزيد من معاوية، وهناك من يرى أن أول من رتب الأغوات في المسجد الحرام هو ابو جعفر المنصور.

وللاغوات مراتب أعلاها رتبة شيخ الأغوات وهو ناظر أوقافهم و المسؤول عن سير أعمالهم، ويشترط في الذي يريد الالتحاق بسلك الأغوات أن يكون مخصيا وان يقبل تطبيق نظام الأغوات عليه وان يؤدي واجبه على أكمل وجه وان يطيع أوامر رؤسائه وان يتمتع بصحة جيدة.

وظل الأغوات على مر العصور يتميزون بزي معين فقد وصفهم ابن بطوطة في رحلته قائلا أن الأغوات "على هيئات حسان وصور نظاف وملابس ظراف وكبيرهم يعرف بشيخ الحرم وهو في هيئة الأمراء الكبار"، وفي أيام الدولة العثمانية كان الأغوات يلبسون عباءات استانبوليه وأثوابا واسعة مطرزة مشدودا عليها حزام ويحملون في أيديهم عصيا طويلة ويضعون على رؤسهم غطاء ويقال أن السلطان سليمان القانوني هو الذي رتبهم على هذا الوضع في القرن السادس الميلادي اما لباسهم اليوم فيتكون من رداء يسمى الرجبة ورداء يوضع على الكتف يسمى الحزام وغطاء يوضع على الرأس يسمى القاووق.

وفي القديم كانوا يشددون في الزي فالاغا في القديم لا يلبس ثوبا وزرار رقبته مفتوحة ومن فعل ذلك يعاقب بالضرب وكانوا يلبسون الساعة أو الخاتم و لا يمسكون

الشمسية اما لباسهم اليوم لا يزيد على ما وصفنا أنفا، ويتميز الأغوات على بعضهم البعض بشارات وعلامات حسب رتبهم وتظهر هذه العلامات في الزي الذي يرتدونه فالخبزية يضعون على رؤوسهم شاشا مصنوعا من القصب يسمى فرخ يشمك يلفون به الطربوش (القاووق) والذي يرتدونه هذا الزي هم كبار الأغوات من درجة خبزي فما فوق.

كما يمكن التمييز بين درجات الأغوات ومراتبهم بواسطة استعمال الشال (حزام من صوف) على كيفيات معينة فمن كان منهم في درجة الخبزية فما فوقها فانه يضع الشال على الكتف ومن كان دون درجة الخبزية فانه يربط الشال في وسطه، وتحت الرداء (الرجبة أو الفرجية) يلبسون الثوب والكوت أو السديرية والسروال الطويل وهذا الزي الذي يظهر فيه الأغوات هو زي العمل وبعد انتهاء العمل وعودتهم إلى بيوتهم فأنهم يلبسون الملابس المعتادة.

السلطانة حفصة
ست الكل

بـدأت تباشـير عصـر سـلطنة الحـريم مـع السـلطانة عائشـة حفصـة خـاتون زوج السلطان سليم وأم السلطان سليمان القانوني، فمعها ظهر لقب الساطنة الأم وأحكمت أمهات السلطان قبضتهن على الحرملك ومن هناك بدأت السلطانات في مد نفوذهن إلى السلاملك ولعب دور في سياسة البلاد العليا، فقد كانت السلطانة حفصة واحدة من أكثر الشخصيات نفوذا في الدولة العثمانية خلال فترتي حكم زوجها وابنها حتى وفاتها عام ١٥٤٣٤م، ومثلت بحزمها صورة قياسية وكمثال على عصر "سلطنة الحريم".

وتنتمي السلطانة عائشة حفصة سلطان إلى شعب تتار القرم (جنوب أوكرنيا حاليا) فهي ابنة خان القرم، ولدت في عان ١٤٧٩م تقريبا، وعقد والدها قراتها على السلطان سليم الأول دعما للعلاقات بين خانات القرم والدولة العثمانية، وانجبت حفصة للسلطان سليم ولي عهده الأمير سليمان سنة ١٤٩٤م، أصبحت الشخصية النسائية الأولى في الحرملك والشخصية الثانية بعد السلطان سليم، الذي كان لغيابه الطويل عن مقر عرشه في غزواته الشهيرة التي هزم خلالها الدولة الصفوية في إيران وقضى على دولة المماليك في الشام ومصر، وتولت إدارة القصر في ظل فترة غياب السلطان سليم، السلطانة حفصة التي ادارت القصر بحزم وكأن السلطان لم يغادره.

ومع إعداد الأمير سليمان لتولي أمور الحكم والسلطنة كولي للعهد انتقلت السلطانة حفصة مع الأمير الشاب إلى مدينة مانيسا غرب الأناضول التي كانت تعد المقر الرسمي لتدريب ولاة العهد، في الفترة بين ١٥١٣ حتى ١٥٢٠م، وهناك استغلت السلطانة حفصة فترة تواجدها في بناء مجمع إسلامي كبير ضم مسجدا وكتاب لتعليم الأطفال ومدرسة لتعليم الشباب وتكية، كما وضعت الأساس للاحتفال الشعبي الشهير الذي يقام حتى يومنا هذا باسم "مهرجان المسير".

ويتعلق بسيرة السلطانة حفصة تلك القصة الشهيرة التي دارت بينها وابنها وبين الحاج توفيق أفندي المعروف بـ"معلم السلاطين"، وذلك عندما سرتْ شائعة في القصر ترددت على لسان خصيان القصر حتى وصلت أذن السلطانة مفادها أن الحاج

توفيق عزم اعتزال مهنة التأديب. هرعت السلطانة الأم إلى حجرة المعلم بصحبة ابنها. ماذا سيقول آغات الانكشارية و القادة السباهية عن ابنها بعد أن يسمعوا الخبر و هم الذين يطلقون على الحاج توفيق لقب "معلم السلاطين"؟ إن انصراف المعلم الذي درّس على التوالي كلا من الفاتح و بايزيد الثاني و سليم العبوس عن تأديب ابنها أمر جلل، و نذير شؤم، و سيشجع العامة على التشكيك بأحقية سليمان في شغل منصب الخلافة، لذلك اصطحبت ابنها لمقابلة توفيق أفندي، وانتظرت على بابه وما أن رأته خارجاً من الحمام و قطرات الماء تتفصدُ من لحيته جثت بين يديه، و أشارت إلى ولدها كي يصنع مثلها، وقالت:"سألتك بالله يا حاج توفيق أن لا تحرم ابني حكمتَك و علمَك". ابتسم توفيق أفندي بخجل، و انحنى بظهره المتخشب ليرفع ابن السلطان و أمه. وضع راحتيه المبللتين فوق كتفيّ سليمان، وتأمل قسمات وجههِ الحادة و بشرته السمراء، سأله: "كم عمرك يا سليمان؟"،

فرد: "تسع سنوات"

فقال توفيق أفندي: "هل تحفظ المقولة التي أوصى بها أرطغل ابنَه المؤسسَ عثمان؟"

فقال سليمان: "إذا حال بينكَ و بين كرسي الحكم أبوك؛ اقتل أباك. إذا حالت بينك وبين كرسي الحكم أمُك؛ اقتل أمَك. إذا حال بينك و بين كرسي الحكم أخوك؛ اقتل أخاك. إذا حال بينكَ و بين كرسي الحكم ابنُك، اقتل ابنَك".

فقال توفيق أفندي:"أنت تعلم إذن أنّ أباك لم يعزل جدَك السلطان بايزيد فقط، وإنما دسّ له السمَّ في المنفى. أنتَ تعلمُ أيضاً أن أعمامك قضوا شنقا بأوتار الأقواس بأمرٍ من أبيك. رغم ذلك، العامة لا تكره أباك، و لا تنظر إليه كقاتل. أتدري لماذا؟"

لم ينبس سليمان ببنتِ شفة. استأنف توفيق أفندي: "لأن هذا القتل يعلي من قيمة رقاب الناس عند أنفسهم؛ لأن المكان الذي يحكم أحدهم من فوقه رقابَ ملايين الناسِ يستحق من أجله أن يقتل الابنُ أباه، و الأبُ ابنَه. كلما ارتفع الثمن المبذول من أجل الكرسي كلما ارتفعت قيمة رقاب الناس عند أنفسهم، هكذا تفكر الغوغاء. الفكرة مريعة، و لكنها حقيقة. كان أبوك مولعاً بأعمامك. أتذَكرُ جيداً كيف كان يلهو معهم في

جذلٍ في الكتّاب. و لكنه في نفس الوقت كان يدرك أنه عندما يكبر سيتواجه معهم، و أن كرسي الحكم لا يتسع إلا لرجل واحد، و أنه إذا لم يكن ذاك الرجل الجالس فوق الكرسي فإن هامته لا ريب ستكون فوقَ النطع. هل تفهم هذا؟".

فقال سليمان:"أفهمُه".

فقال توفيق أفندي: "إذن أنتَ لا تحتاج إليّ كي تدركَ بغيتَك".

تدخلت السلطانة حفصة في الحوار قائلة: "تمهّل يا حاج توفيق، ما هذا الذي تقوله؟".

فقال توفيق أفندي:"لم يبقَ في العمر أكثر مما مضى يا سلطانة، و لا أظن أن أبنك يحتاجُ مشورة رجل مثلي يطأ القبر برجله. ابنكِ يتفجر حياةً، لذا عليه أن يبتعد عن ظلال الموت من أمثالي. أنا أرى مخايل النجابة تلوح فوقَ جبهته، و سيكون أعظم سلاطين بني عثمان".

قالت السلطانة: "ولكن كل فتى في حاجةٍ إلى معلم".

فقال توفيق أفندي: "صحيح. و سأعهد بابنك إلى من هما أفضل مني." قالَ هذا و هو يتراجع على أعقابه ليدخل حُجرتَه. عندما عاد، كان يمسك بين يديه سِفراً ضخماً ينوف على الألف صفحة، قدمه للأمير سليمان وقال: "هل تعرفُ ما هذا يا سليمان؟"

قال سليمان: "أرى كتاباً".

فقال توفيق أفندي:"ليس أيّ كتاب، إنه سِفر تاريخ، و هو المعلم الأول الذي أوصيك بالتتلمذِ على يديه. عندما تقرأ التاريخ سوف تفهم النواميس التي تحكم الكون؛ سوف تفهم كيف يفكر الرجال، و ما الذي يثيرهم، كيف تُكسب المعارك، و لماذا تندلعُ الثورات".

وسأله سليمان عن المعلم الثاني، فرد توفيق أفنددي قائلا: "الدنيا؛ من التاريخ سوف تتعلم من تجارب الآخرين، أما من الدنيا فسوف تتعلمُ من تجاربك. لا تصعّر بخدك أو تنصرف عن صغائر الأمور زاعما أن السلطان لا يهتم إلا بالجليلِ منها. إن قدرة الله تتجلى في أكثر الأمور تفاهة، و قديماً قيل أن شيخا صوفيا وصل مرحة الكشف بعد أن تأمل دبيبَ النمل عشرين سنة. افتح عينيك يا سليمان، ليس عينيك و

حسب، و إنما أذنيك و منخريك أيضا، استقبل كل ذرةٍ في هذا الكون، كل مشهد فيه، كل همسة، كل نسمة".

سأل سليمان معلمه: "كم ساعة أنام إذن؟"

"من يبغي السلطنةَ لا ينام" سكت الحاج توفيق. أخذ يتأمل ملامح سليمان و كأنه ينتظر أن يتبين أثر الكلمات التي ألقاها بالتو على وجهه، كأنه يتوقع أن هذه الكلمات سوف تغير الصبي الواقف أمامه إلى الأبد. بعد صمت قصير أضاف: "هنالك سلاح أكثر فتكا من السيف و البارود و المدفع، أتعرف ما هو؟"، عندما لم يجب سليمان أضاف المعلم هامساً: "الأسرار".

ويقول بيترو سفير جمهورية البندقية عن السلطانة حفصة في بداية سلطنة سليمان القانوني "تلاحظ امرأة جميلة جدا في سن الثامنة والأربعين يحمل لها السلطان سليمان توقيرا كبيرا ومزيد من الحب"، هذا الحب والتوقير جعل السلطانة حفصة التي حصلت على لقب السلطانة الأم تلعب دورا كبيرا في إعادة ترتيب الحرملك العثماني من الداخل.

وتعد والدة السلطان أكثر الشخصيات نفوذاً في السراي العثماني، وأكثر سيدات القصر اتصالاً بالعالم الخارجي، وتحظى بهذه الصفة والدة السلطان الحاكم، ويطلق على أم السلطان العثماني السلطانة الأم أو السلطانة الوالدة أو والدة سلطان، وعرفت في المصادر العثمانية باسم "مهدِ عُلياي سلطنت" أي مهد السلطنة العالي، وكان يطلق عليها في البداية اسم "خاتون" وهو لقب سلجوقي الأصل وذلك حتى القرن السادس عشر.

وكانت السلطنة حفصة هي أول أميرة عثمانية تحصل على لقب والدة السلطان وذلك في عهد ابنها، في حين لم يحصل على اللقب سوى ٢٣ سلطانة من أصل ٣٦ أم سلطان.

ومن الامتيازات التي تحصل عليها السلطانة الأم انتقالها من السراي القديم إلى سراي الباب العالي مقر الحكم العثماني فور اعتلاء ابنها سدة الحكم العثماني، في موكب يعرف باسم "والدة آلايي" أي موكب السلطانة الوالدة، ومنذ هذه اللحظة،

تصبح أعلى السيدات شأنًا طوال حكم ابنها، والمسؤولة الأولى عن جناح الحرم العثماني، ولدعم موقعها هذا، تخصص لوالدة السلطان إيرادات ضخمة من أراضٍ خاصة (سلطانية) ومخصصات أخرى شتوية وصيفية، إضافة إلى هدايا الدول الأجنبية ورجالات الدولة العثمانية، وإضافة إلى مسؤوليات القصر، وتقديم أدوار استشارية للسلطان نفسه، تنشغل والدات السلاطين ببناء الأوقاف والمشاريع الخيرية في السلطنة العثمانية والحرمين الشريفين والقدس.

كان وجود والدة السلطان في هذا الموقع يتسم بالأهمية أحياناً، نظير العدد الكبير من الأشخاص والأنشطة التي تجري داخل القصر العثماني، واتخاذ السلطان قرارات بخصوصه قد لا تستند إلى إلمام كاف بتفاصيله الداخلية، في هذا المجال الإيجابي، يبرز من جديد اسم السلطانة حفصة والدة سليمان القانوني، إذ يعتقد أنه برحيلها، اشتدت شراسة الخلافات بين زوجتي السلطان سليمان، خُرم ومهدفران بما انتهى إلى نفي الثانية وإعدام ابنها. كما أن وفاة السلطانة حفصة أفقدت زوج ابنتها السلطانة خديجة، الصدر الأعظم القوي إبراهيم باشا الحماية التي كان يحتاجها، ما أدى به إلى الموت خنقاً بأمر السلطان سليمان.

على الجانب الآخر، بدأت السلطانة حفصة عصرا بات يعرف بـ"سلطنة الحريم"، اتجهت والدات سلاطين أخريات إلى السياسة واستخدمن نفوذهن بما جلب الضرر، وهناك من هذه النماذج السيئة على ذلك السلطانة (نور بانو) والسلطانة (صفية) في القرن السادس عشر، والسلطانة (كُوسّم ماه بَيْكر) في القرن السابع عشر.

أما السلطانة حفصة فقد لعبت دورا كبيرا في الحرملك، خلال السنوات الأولى من عصر السلطان سليمان، خصوصا في لجم الخلافات بين زوجتي السلطان، خُرم ومهدفران، وهو صراع تفجر بعد وفاة السلطانة حفصة وانتهى بإبعاد السلطانة مهد فران وإعدام ابنها وولي العهد الأمير مصطفى، بعد أن أحكمت السلطانة خرم سيطرتها على الحرملك. كما لعبت السلطانة حفصة دورا في حماية زوج ابنتها السلطانة خديجة، الصدر الأعظم القوي إبراهيم باشا من نزوات السلطان سليمان، لذلك لم يكن غريبا أن يصدر السلطان سليمان قرار بإعدام إبراهيم باشا بعد وفاة

السلطانة حفصة بعام واحد.

عندما توفيت السلطنة حفصة في مارس ١٥٣٤م، دفنت بالقرب من زوجها السلطان سليم في مسجده بمدينة اسطنبول، لكن زلزال عام ١٨٨٤ الذي ضرب العاصمة العثمانية دمر القبة الجميلة التي تزين قبر السلطانة حفصة، ورغم جهود إعادة البناء التي تمت في عام ١٩٠٠م لم يستعد قبر السلطانة حفصة رونقة أبدا وهو الآن أبسط كثيرا مما كان أصلا.

خُلدت السلطانة حفصة في التاريخ العثماني لدورها في الحرملك وكونها أول من حملت لقب "السلطانة الأم"، لكن التاريخ التركي الشعبي حمل لها ذكرى طيبة ما تزال حية حتى يومنا هذا، يتمثل في مهرجان "المسير" الذي يتم احياءه سنويا في مدينة مانيسا ويشارك فيه عموم الشعب التركي وهو أقدم احتفال في تركيا يمتد إلى ٤٧٠ عاما.

وتذكر كتب التاريخ العثماني قصة هذا الاحتفال الذي يعود الفضل فيه للسلطانة حفصة، وتوقل الرواية التاريخية أن السلطان سليمان عندما كان أميرا ويتدرب على شؤون الحكم في مدينة مانيسا أصابه مرض أعجز الأطباء وهو ما أزعج أمه السلطانة حفصة زوجة السلطان سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح، التي بحثت عن علاج لمرض ابنها الوحيد، ولما بلغ اليأس مداه بلغ السلطانة حفصة أن هناك معجونا سحريا لديه القدرة على شفاء الأمراض المستعصية.

وبحسب الرواية التاريخية التي يرددها أهالي مانيسا أن السلطانة حفصة جاءت بمخترع هذا المعجون وهو مصلح الدين مركز أفندي وجعلته يعجن لابنها معجونه السحري الذي يتكون من ٤١ نوعا من البهارات مخلوطة مع العسل وان السلطانة بعدما شفى الله ولدها من مرضه نتيجة تداويه بالمعجون السحري نذرت أن توزع المعجون على الناس في مانيسا سنويا من خلال حفل تقوم فيه بنثره في الساحة المقابلة لجامع السلطان المبني في عام ١٥٢٢.

ومنذ هذا التاريخ ومدينة مانيسا تقيم مهرجانا خاصا بهذه المناسبة تطلق عليه (مسير معجون) في شهر مارس من كل عام ويمتد لسبعة أيام يتخلله فعاليات تراثية

وفنية وعروض موسيقية تعكس تاريخ المدينة وثقافتها موضحا أن ضيفة مهرجان هذا العام هي رومانيا التي شاركت بفرق فنية قدمت عروضا فنية وثقافية في ساحات المدينة وعلى مسارحها، وهو المهرجان الأقدم في تركيا حاليا ويبلغ عمره نحو ٤٧٠ عاما، وتسعى الحكومة التركية لإخراج المهرجان من إطاره المحلي ليكون محفلا ثقافيا يبرز المدينة على خريطة المهرجانات الدولية والفنية مغتنمة في ذلك شهرة المعجون السحري وهو ما تبدى في مشاركة الرئيس عبدالله غول الذي قدم خصيصا لنثر المعجون على الحشود الغفيرة من أهالي المدينة في بادرة تعكس اهتماما وحرصا رسميا وشعبيا.

وتفكر الحكومة التركية جديا بانشاء مشتلا زراعيا لإنتاج ١٥ نوعا من البهارات المستخدمة في صنع المعجون المذكور على اعتبار انه منتج محلي ويجب أن يتم انتاج مكوناته في تركيا بدلا من استيرادها من الخارج، وتسعى تركيا إلى تصدير هذا المعجون إلى الخارج حيث أن المزايا الطبية لهذا المعجون تمكنه من أن يكون علاجا فعالا إلى جانب كونه مأكولا شعبيا يمتاز بحلاوة الطعم.

وقد عاشت مدينة مانيسا في مارس من عام ٢٠١٢، كما هى العادة كل عام، أسبوعا كاملا من الأجواء الاحتفالية وشارك الرئيس التركى عبد الله جول وقرينته خير النساء خلاله عشرات الآلاف من المواطنين هذا الاحتفال حيث نظمت بلديتها ٧ حفلات شارك فيها مجموعة من أشهر المطربين في تركيا اختتمت الليلة الختامية بحفل للمطربة الشهيرة فوندا أرار وشاركت الفرقة الرومانية في عدد من الحفلات، كما أقيمت أيضا مسيرة المشاعل، وهى جزء مهم من المهرجان.

وفى ختام فعاليات المهرجان أقيمت مسيرة تحاكى الطقوس التي كانت تتبعها السلطانة حفصة حيث كانت تنتقل وأفراد عائلتها من منزلها، الواقع الآن في ميدان الجمهورية، وحتى مسجدها مصحوبة بأجواء احتفالية ثم تصعد إلى ساحة المسجد لتلقى معجون المسير على المواطنين.

السلطانة خرم
هيام الشوق

يعد عصر السلطان سليمان القانوني حكم في الفترة ١٥٢٠-١٥٦٦، العصر الذهبي للدولة العثمانية كانت الدولة بحق أكبر وأعظم قوة في العالم كله، وكان سلطانه يمتد من بلاد الجزائر في إفريقيا غربا إلى حدود العراق وأذربيجان مع إيران شرقا ومن نهر الدانوب شمال إلى حدود بلاد اليمن جنوبا، وكان يحكم جميع بلاد العالم القديم الحضارية مصر وسورية والعراق واليونان، كما كان يشرف على المدن الثلاث المقدسة عند المسلمين مكة والمدينة والقدس الشريف، فضلا عن حكمه للمدن الإسلامية الرئيسية التي تنقلت الخلافة الإسلامية بينها وهي على التوالي المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة، فكان بحق سلطان العالم، وكانت أوروبا كلها ترتجف رعبا لمجرد ذكر اسمه، فقد كان وبحق سيد أوروبا ويكفي أن ملك فرنسا فرانسوا الأول اعتبر السلطان سليمان بمثابة الوالد، أما خصم السلطان الإمبراطور شارلكان إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وملك إسبانيا فقد اعترف في معاهدة رسمية أن السلطان سليمان هو الإمبراطور الوحيد وأنه –أي شارلكان- مجرد قيصر تابع له، لذلك عرفت المصادر الأوروبية السلطان سليمان باسم السلطان سليمان العظيم أو الأكبر.

وأشرف السلطان سليمان بنفسه على نهضة علمية وأدبية في عصره فضلا عن كونه شاعرا وصائغا يعشف تصميم حلي الجواهر، كما أدخل السلطان سليمان إصلاحات قضائية في مجالات المجتمع والتعليم والجباية والقانون الجنائي، ووضع الأساس القانوني المنظم لإدارة الولايات العثمانية الموزعة في قارات العالم القديم آسيا وإفريقيا وأوروبا، لذلك عرف باسم سليمان القانوني أو المشرع، فقد كان عصر السلطان سليمان القانوني بحق قمة القوة للدولة العثمانية ومكانتها بين دول العالم آنذاك، ويعتبر عصر السلطان سليمان هو العصر الذهبي للدولة العثمانية، حيث شهدت سنوات حكمه من926-972هـ، الموافق ١٥٢٠-١٥٦٦م توسعاً عظيماً لم يسبق له مثيل، وأصبحت أقاليم الدولة العثمانية منتشرة في ثلاث قارات عالمية.

وكان لهذا البروز أثره على دول العالم المعاصرة وبالأخص على دول أوروبا التي كانت تعيش انقسامات سياسية ودينية خطيرة، ولهذا تنوعت مواقف الدول الأوروبية من الدولة العثمانية حسب ظروف كل دولة.

وكان "شارل الخامس أو شارلكان ملك الامبراطورية الرومانية المقدسة وفرانسو الأول ملك فرنسا يتنافسان على كرسي الحكم للإمبراطورية الرومانية وزعامة أوروبا، فيما كان البابا ليو العاشر منافساً للراهب الألماني مارتن لوثر زعيم البروتستانتية، وكانت بلغراد تعاني من اضطرابات داخلية بسبب صغر سن ملكها لويس الثاني مما أدى إلى نشوب النزاع بين الأمراء، ولهذا رأى ملك فرنسا أن يستغل مكانه وقوة الدولة العثمانية ويكسبها صديقاً له، فوقف منه موقف التودد والرغبة في الوفاق معتقداً أن الدولة العثمانية هي التي ستحد من طموحات ملك إسبانيا فقابل السفير الفرنساوي السلطان سليمان في ٦ ديسمبر ١٥٢٥ باحتفال زائد وأجزل له الأخير العطايا و بعد أن عرض عليه السفير مطالب ملكه و عده السلطان بمحاربة المجر، ولكن لم تمض بينهما معاهدة بل اكتفى السلطان بأن كتب لملك فرنسا جواباً يظهر له فيه استعداده لمساعدته وهذا نصه:

الله العلي المعطي المغني المعين

بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته و علت كلمته و بمعجزات سيد زمرة الانبياء وقدوة فرقة الاصفياء محمد المصطفى - صلى الله عليه وسلم- الكثيرة البركات، وبمؤازرة قدس أرواح حماية الأربعة "أبي بكر" و"عمر" و"عثمان" و"علي" رضوان الله عليهم أجمعين وجميع أولياء الله، أنا سلطان السلاطين و برهان الخواقين متوج الملوك ظل الله في الأرضين سلطان البحر الأبيض والبحر الاسود والأناضول والروملي و قرمان الروم وولاية ذى القدرية و ديار بكر و كردستان و أذربيجان و العجم و الشام و حلب ومصر ومكة والمدينة و القدس وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة أيضا التي فتحها آبائى الكرام و اجدادى العظام بقوتهم القاهرة أنار الله براهينهم و بلاد أخرى كثيرة أفتتحها يد جلالتى بسيف مظفر ، أنا السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان ، إلى فرنسيس ملك فرنسا وصل

إلى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذي أرسلتموه مع تابعكم فرانقبان النشيط مع بعض الاخبار التي أوصيتموه بها شفاهياً و أعلمنا أن عدوكم استولى على بلادكم وأنكم الآن محبوسون و تستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم وكل ما قلتموه عرض على أعتاب سرير سدتنا الملوكانية و أحاط به علمى الشريف على وجه التفصيل فصار بتمامه معلوماً فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم فكن منشرح الصدر ولا تكن مشغول الخاطر فإن أبائى الكرام و أجدادى العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد ورد العدو و نحن أيضا سالكون على طريقتهم وفى كل وقت نفتح البلاد الصعبة و القلاع الحصينة و خيولنا ليلا نهارامسروجة و سيوفنا مسلولة فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته و مشيئته و أما باقى الاحوال و الاخبار تفهمونها من تابعكم المذكور فليكن معلومكم هذا.

تحريراً في أوائل شهر آخر الربيعين سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة

بمقام دار السلطنة العلية

القسطنطينية المحروسة المحمية

التحالف العثماني – الفرنسي تم تفعيله سريعا بمشروع غزو إيطاليا، فقد طمع ملك فرنسا في ثراء المدن الإيطالية وأزدهار ثقافاتها، فيما رغب السلطان سيلمان في دخول مدينة روما مقر وجود البابا الكاثوليكي زعيم المسيحية الأوروبية.

وبالفعل توجه سليمان الأول بمئة ألف جندي لمهاجمة إيطاليا من الشرق، وهبط خير الدين بربروس من جهة الجنوب في ميناء أوترانة الايطالي كما تقدم الفرنسيون من جهة الغرب الإيطالي، وكان الهدف من هذا هو هجوم واحد وكبير من ثلاثة جهات، إلا أن توجس الملك الفرنسي من أن يتهم بالردة عن المسيحية من قبل العامة ورجال الدين (لتعاونه عسكريا مع دولة مسلمة) جعله يعلق عملياته العسكرية ويكتفي بمهادنة شارلكان، ولو أن الحملة العسكرية المشتركة تمت كما خطط لها لغدت إيطاليا بكاملها ولاية عثمانية.

نار في.. الحريم

رغم كل هذه العظمة البادية والقوة المطلقة التي وصل إليها السلطان سليمان إلا أن عصره شهد بداية الظاهرة التاريخية المعروفة باسم "سلطنة الحريم"، مع هذا الصراع المحموم الذي أندلع بين السلطانة الأم حفصة وزوجتي السلطان خرم ومهدفران، وكان الصراع يدور حول أمران أولهما احتلال مكانة متقدمة في حرملك السلطان سليمان، وتأمين ولاية العهد لأحد أبناء السلطان من خرم أو مهدفران، وهو صراع استخدمت فيه كل الوسائل والأدوات والسبل للوصول إلى غاية كل من السلطانات، وهو صراع ستخرج منه السلطانة خرم منتصرة في تثبيت سيادتها على حريم القصر وتثبيت أبناءها في ولاية العهد، ولكن من هي خرم خانم؟ وكيف وصلت إلى ما وصلت إليه؟ ومن هم منافسيها؟ وكيف كان موقف السلطان سليمان القانوني؟ وهي أسئلة سنحاول الإجابة عنها سويا خلال الصفحات القليلة الموالية.

تعد شخصية السلطانة خرم من الشخصيات التي شغلت مكانة مرموقة في التاريخ العثماني وثارت ولاتزال تثير موجات من الجدل حول دورها في تاريخ الدولة العثمانية في فترة تعد وبحق العصر الذهبي لتلك القوة وذروة مجدها على الإطلاق، فبين اتهامات بتخريب الدولة من الخارج وعملها من أجل سيادة الحرملك على شؤون الدولة ما أدى إلى إنهيار الدولة سريعا وتراجع مكانتها الدولية، فيما يرى البعض أنها كانت إمرأة طموحة أرادت تأمين الوضع لأبنائها وسط صراع شرس داخل القصر لكنها لا تعد مسؤولة على ما جرى بعد رحيلها سواء من ضعف الدولة أو انهيارها فيما بعد.

نشير في البداية قبل الدخول في آتون حرب الحرملك إلى تعدد أسماء السلطانة خرم، ففي الأصل كان اسمها الذي ولدت به هو روكسانا أو إلكسندرا، وعرفت في المصادر العثمانية باسم "خرم" وهو الاسم الذي يعني بالتركية "الضاحكة" أو "الباسمة"، وهو الاسم الذي أطلقته عليها السلطانة مهدفران بعد وصولها إلى القصر مباشرة، وهو اللقب الذي اشتهرت به على حساب اسمها الذي سجلت به في حريم السلطان وهو "حوريم"، أما في المصادر الأوروبية فتعرف السلطانة خرم باسم

روكسولينا و روكسولانا حتى روزيكا، وعرفت في الأدبيات الأوكرانية باسم إلكساندر، وعرفت في المصادر العربية باسم السلطانة "كريمة"، ولم تكتف السلطانة خرم في حصد الأسماء والألقاب في حياتها بل استطاعت أن تحصد على اسم جديد في القرن الواحد والعشرين عندما عرفت باسم "هويام" في المسلسل التركي الذي يعرض مدبلجا على القنوات العربية.

ولدت السلطانة خرم، في مدينة روهاتين شرق أوكرانيا وكان والدها راهبا روسيا يدعى دي روجالينو، واختطفت من تتار القرم أثناء هجماتهم المعتادة في القرم وبيعت لاحقاً أو أهديت إلى القصر العثماني، ويقال أن من اشتراها هو إبراهيم باشا صديق السلطان سليمان، وهو من أهداها إلى القصر العثماني "الباب العالي" ومنذ اللحظة الأولى التي وقع فيها نظر السلطان على الجارية الجديدة حتى وقع في غرامها، ومنذ هذه اللحظة وقع السلطان في عشق هذه الجارية، التي جعلها المفضلة بين الجواري، فهي لم تكن باهرة الجمال لكنها تميزت بالمرح والجاذبية وقد تعلق السلطان سليمان بها، وازداد حب السلطان لها نضارة وقوة مع مرور الأيام، ولم يمض عام على دخولها إلى الحرملك حتى أنجبت للسلطان ولدا أطلق عليه السلطان اسم محمد، وبذلك ارتقى شأن خرم التي أصبحت تحتل المرتبة الثالثة بعد السلطانة الأم السلطانة حفصة وزوجة السلطان السلطانة مهدفران والدة ابنه البكر الأمير مصطفى وسرعان ما سرت الشائعات في القصر بأن السلطان لا يقنع بمشاركة السلطانة خرم الفراش، بل أولع بقضاء الساعات في محادثتها ومناقشة شؤون الدولة معها، لما كانت ذلك أمرا جديدا بالنسبة إلى سلطان عثماني فقد تأكد للجميع داخل القصر وخارجه أن السلطانة خرم هي المفضلة عند السلطان بلا شك، فقد حصلت على حقوق داخل القصر جعلتها تقف على قدم المساواة مع السلطانة الشرعية مهدفران.

لذلك لم يكن غريبا أن تطلب السلطانة خرم من السلطان سليمان أن يعقد عليها رسميا ليكون زواجهما شرعيا، ولم يمانع السلطان بما يكنه لها من عواطف جياشة ميزتها عن جميع نساء القصر، فأطلق حريتها من العبودية اولا وتزوجها شرعيا ثانيا، وكان في هذا الزواج الرسمي خرقا لتقاليد الدولة العثمانية على مدار أكثر من قرن

كامل، فمنذ مطلع القرن الخامس عشر الميلادي وسلاطين العثمانيين لا يعقدون زواجا شرعيا أبدا، ومرد ذلك إلى الإهانة التي واجهت السلطان بايزيد الأول في اعقاب هزيمة انقرة الساحقة سنة ١٤٠٢م أمام سلطان المغول تيمور لنك، وذلك في شخص زوجته الصربية الأصل ماريا دسيينا، فقد أرغمها تيمور المنتصر بعد أن وقعت في الأسر هي وزوجها السلطان على أن تقوم بالخدمة خلال حفل انتصاره وهي عارية تماما، أمام زوجها الذي مات كمدا، ومنذ ذلك الوقت لم يعقد سلاطين آل عثمان زواجا رسميا وذلك حتى لا يتعرضوا لإهانات مماثلة في أشخاص زوجاتهم، إلا أن عشق السلطان سليمان لخرم جعله يهدم هذه القاعدة ويعقد قرانه عليها.وكتب الديبلوماسي النمساوى هانز ديرنشاوم في مذكراته بعد أن أمضى بعض الوقت في اسطنبول عام ١٥٥٥م "سليمان وقع في حب تلك الفتاة المجهولة العائلة والتي يغلب الظن أنها من أصل روسي، فأعتقها وتزوجها وسمح لها بالانتقال للعيش معه في نفس القصر".

أرادت السلطانة خرم أن تتمتع بالنفوذ والقوة إلى نهاية عمرها، ولكن كان هناك خطر على احلامها فهي لا تزال تخشى وهي في مستقبل الشباب، والسلطان كهل قد لا يلبث طويلا قبل أن يفارقها ويموت فتفقد سلطانها ويؤول العرش إلى ولي العهد الأمير مصطفى ابن السلطانة مهدفران، غريمتها اللدود، التي ستصبح في هذه اللحظة المتحكمة في كل شيء داخل القصر العثماني وخارجه، وقتها لن ينجد خرم من انتقام مهدفران أحد، التي ستنتقم من خرم بسبب الأيام الخوالي التي تحكمت فيها من خلال السلطان سليمان على القصر والحرملك.

ورأت خرم أن السبيل الأمثل لضمان المستقبل أن تستثمر نفوذها وحب السلطان لها، من أجل جعل أحد أولادها يلي عرش السلطنة لتبدأ معها الحرب بين السلطانة خرم في مواجهة حلف ثلاثي بين السلطانة الأم السلطانة حفصة والصدر الأعظم إبراهيم باشا والسلطانة مهدفران الراغبين في تولية العرش للأمير مصطفى، لكن وقف في طريقها تحالف قوي قاده الصدر الأعظم إبراهيم باشا لمساعدة السلطانة مهدفران في فتح الطريق أمام ابنها الأمير مصطفى ليصل إلى قمة الدولة، فمن هو

إبراهيم باشا.

إبراهيم باشا

ويعد أحد أكبر وأخطر خصوم السلطانة خرم، الصدر الأعظم والصديق المقرب للسلطان سليمان، إبراهيم باشا الفرنجي، الذي تزوج من أخت السلطان السلطانة خديجة، فحاز من النفوذ قدرا كبيرا حتى عد قرين السلطان سليمان في إدارة الدولة العثمانية، وكان طبيعيا والحال كذلك أن يصطدم نفوذ إبراهيم باشا بنفوذ السلطانة خرم التي كانت تريد أن تمهد الطريق أمام أي من أبنائها لتولي عرش السلطنة.

وترجع أصول إبراهيم باشا إلى مدينة بارغا (ومن هنا عرف باسم إبراهيم البرغي) على الساحل اليوناني وولد إبراهيم لأسرة مسيحية، قرب مدينة بارغا على الساحل اليوناني، وكان والده يعمل صياد سمك حين أُبعد عن أسرته، إما باختيارها أو باختطافه من قراصنة أو بنظام الدوشيرمة، الذي كان يأخذ أبناء العائلات المسيحية للخدمة في البلاط العثماني، وأُخذ إلى الأناضول، حيث دأب أولياء العهد العثماني على تلقي تعليمهم. هناك، لاحظ العثمانيون فطنة إبراهيم المبكرة ووسامته وشخصيته الجذابة فقربوه إلى مجايله الأمير سليمان ابن السلطان سليم الأول الذي اتخذه صديقاً، فيما سمحت العلاقة بين الاثنين لإبراهيم بتلقي تعليمه مع ولي العهد العثماني، ليكتسب مهارات معرفية منها اللغات المتعددة والثقافة الموسوعية.

ومع تولي الأمير سليمان السلطنة في عام ١٥٢٠م، عمل على الارتقاء بصديقه الحميم إبراهيم، الذي قابل ذلك ببرهنة مستمرة على مهاراته الدبلوماسية وبراعته العسكرية، ما جعله يصعد سريعاً في سلم الحكومة العثمانية، وذلك بدءاً من أول مناصبه المعروفة رئيساً للغرفة الخاصة للسلطان "خاص أوده باشي" وهي المهمة التي تجعل صاحبها الأقرب شخصياً إلى السلطان، و الذي لا يفارقه أبدا. وحتى بعد تعيينه صدراً أعظماً للدولة العلية، وهو أهم منصب عثماني بعد منصب السلطان مباشرة، وهو منصب موازي لمنصبي نائب الرئيس ورئيس الوزراء معا، واصل إبراهيم باشا حصد الألقاب والمناصب، وتوسيع نفوذه في الدولة الآخذة بالتمدد ما خوله سلطة شبه مطلقة تكاد تقترب من سلطة سيده، ولعب إبراهيم باشا دورا كبيرا في توجيه السياسية الخارجية للدولة العثمانية، وظهر أمام السفراء والغرب كصانع

أساسي في السلطنة العثمانية، وبموجب ذلك بات مسؤولو البندقية يطلقون عليه لقب "إبراهيم العظيم" لاعبين في ذلك على نغمة "سليمان العظيم"وهو الاسم الذي عرف به السلطان سليمان القانوني في أوربا.

ولم يتنظر السلطان سليمان كثيرا، فبعد سبعة شهور من عودة السلطان سليمان من رودوس عام ١٥٢٣ اتخذ السلطان سليمان قرار امتدت أثاره لأثنى عشر سنة، حيث قرر السلطان سليمان القانوني تعين إبراهيم باشا كصدر أعظم، و الذي لعب دور أساسي ومؤسس من الدرجة الأولى جعل فترة توليه لمنصب الصدر الأعظم الفترة الأكثر روعه في العهد الذهبي، وواجهه تعين إبراهيم باشا كصدر أعظم الكثير من الاعتراضات حيث انه لم يمر بالمراحل التي يمر عليها من يريد أن يصل إلى هذا المنصب ما أدى إلى غضب الكثير من الوزراء والشخصيات الهامة ومحاولة لامتصاص سخط الساخطين، اعطى إبراهيم باشا ولاية مصر التي تعتبر أهم الولايات العثمانية، إلى الوزير الثاني أحمد باشا أحد أبرز المتقدمين لنيل منصب الصدر الأعظم، ولكنه لم يتحمل فكرة تخطيه وعدم تعيينه في منصب الصدر الأعظم فأعلن التمرد بعد فترة قصيرة من توليه مهام ولاية مصر، وأمر السلطان سليمان إبراهيم باشا بقمع هذا التمرد بنفسه، وهو ما نجح فيه، استغل فترة تواجده في مصر من أجل إقرار الوضع القانوني والإداري لمصر ضمن "قانون نامة مصر"، وظل في مصر من ٣٠ سبتمبر ١٥٢٤ وحتى ٥ سبتمبر ١٥٢٥م، وقلل الضرائب واجتمع الشكايات من الشعب واستمع إليهم وقام بعدد من الإصلاحات في مصر من ضمنها ترميم جامع عمرو بن العاص.

وجاءت اللحظة المصيرية في حياة إبراهيم باشا، عندما تزوج من اخت السلطان سليمان وهي السلطانة خديجة في حفل لم تشهده اسطنبول تميز باحتفالات باذخة واستمرت الاحتفالات أكثر من اسبوعين ومن الأمور التي كانت تثير استغراب الكثيرين أن إبراهيم باشا كان حين يدخل على زوجته كان ينحني ويقبل طرف ثوبها، مع أن ذلك يكون فقط للخدم، وكان لا يناديها إلا "سلطانتي" أو "السلطانة" من شدة احترامه لها.

صعد نفوذ إبراهيم باشا إلى القمة بعد زواجه من السلطانة خديجة، وحصا على لقب "داماد" الذي يمنح لصهر السلطان، وشارك إبراهيم باشا في انتصارات الجيوش العثمانية، ورافق السلطان في الحملات التي قادها، في حين تولى بنفسه حملات أخرى كقائد للجيش، كما ساهم إبراهيم في تحجيم نزعة البطش لدى السلطان سليمان، فقد أمر الأخير بقتل جميع أهالي حلب عقابا على ثورتهم في بداية حكمه، فألغى إبراهيم باشا، هذا الأمر واكتفى بقتل زعماء الثورة.

كان إبراهيم باشا قائدا عسكريا بارعا وكان له الفضل الأكبر في انتصارات العثمانيين ابان حكم السلطان سليمان فأثناء التجهيز لفتح بلجراد عاصمة صربيا، نصح إبراهيم باشا السلطان أن ينقل الجيش ومعداته عن طريق نهر طونا (الدانوب حاليا) بدلا من الطريق البرى حتى لايضطر لدخول الغابات التي يستطيع منها المجريون القضاء على الجيش العثمانى بسهولة، ونجحت الخطة وفوجيء المجريون بالجيش العثماني وقد أصبح على أبواب بلجراد.

ويعتبر إبراهيم باشا هو مهندس معركة "موهاكس" الفاصلة التي اكتسح فيها الجيش العثماني الجيش المجري في ساعة ونصف الساعة فقط والتي فتحت أبواب بوادبست عاصمة المجر لاستقبال السلطان العثماني، وخلال رغبة السلطان في فتح فيينا نصح إبراهيم باشا السلطان بأن يقوم أولا ببناء مخازن ومستودعات للذخيرة والطعام بطول الطريق نظرا لبعد المسافة، كما نصحه بأن يبدأ هجومه في نهاية فصل الشتاء حتى يبدأ الحصار في منتصف الربيع حتى يتمكن من فتحها قبل أن يطول الحصار للشتاء، ويقال أن عدم التزام السلطان سليمان بهذه النصائح كانت السبب في عدم التمكن من فتح فيينا عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وأهم مدن أوروبا بعد روما مقر البابوية.كما قام إبراهيم باشا بقيادة الجيوش العثمانية في الحرب ضد الدولة الصفوية الشيعية في إيران، وحقق نجاحا واضحا حيث استطاع دخول تبريز عاصمة الشاه واحتلال قلعة "وان" المنيعة وفتح مدينة اريوان واستكمل مع السلطان الفتح بعد ذلك حتى دخل بغداد، وفرضت الدولة العثمانية سيادتها على العراق بالكامل.

وبالنظر إلى مجمل الأعمال العسكرية التي تمت في عهد سليمان القانوني بعد

اعدامه لإبراهيم باشا، وهي فترة تقدر بـ٣٠ عاما، فإنها لا تقارن بما فعله إبراهيم باشا أثناء خدمته كصدر أعظم (حوالى ١٣ عاما)، ويشتهر أن السلطان سليمان قد فتح في عهده حوالى ٣٦٠ قلعة قام إبراهيم وحده بفتح نصفها كأكبر قائد عسكري مسلم من حيث عدد فتوحاته، كما أن إبراهيم شارك السلطان في فتحه لعدة قلاع أخرى.

على المستوى الدبلوماسي، حققت جهود إبراهيم باشا مع الغرب المسيحي نجاحًا واضحًا، ما جعله يظهر أمامهم كصانع أساسي في السلطنة العثمانية، ففضلا عن علاقته الجيدة مع المملكة الفرنسية وإدارة المدن الإيطالية، أقنع بمهارته السياسية شارل الخامس في عام ١٥٣٣ بتحويل المجر التي كانت محل نزاع بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى إقليم تابع للدولة العثمانية، وكان آخر عمل دبلوماسي قام به إبراهيم باشا في عام ١٥٣٥م بمنح فرنسا امتيازات تجارية داخل الأراضي العثمانية مقابل التحالف ضد العدو المشترك شارلمان وكان هذا الاتفاق آخر أعمال إبراهيم باشا البارزة.

إلا أن ارتفاع الطير فوق السحاب يعقبه السقوط المدوي، فإبراهيم باشا الذي عرف بالفرنجي والتركي والبرغلي وداماد باشا، كان عليه بعد أن عرف بـ"مقبول إبراهيم باشا" أن يحصل على لقب "مقتول باشا"، فقد تجمعت نذر الأزمة لتعكر سماء إبراهيم باشا، فقد كان للصراع بينه وبين السلطانة خرم على أحقية من يلي عرش السلطنة بعد السلطان سليمان، ففيما إنحاز إبراهيم باشا إلى صف السلطانة الأم حفصة والسلطانة مهدفران لتعيين الأمير مصطفى، في مقابلة السلطانة خرم التي أرادت أن تحتفظ بولاية العرش لأحد أولادها الامراء محمد وسليم وبايزيد، فقادت السلطانة مجموعة من المكائد والدسائس ضد هذا التحالف، ووفقاً للروايات، فإن السلطانة خرم سعت لتقويض ثقة السلطان سليمان بإبراهيم باشا، من خلال اللعب على وتر عظمة السلطان ومشاركة إبراهيم باشا في هذه العظمة ومقاسمته حب الرعية والجند ما يشكل خطرا على سلامة السلطان، وهو ما عبرت عنه السلطان خرم تلميحا في أحدى رسائلها للسلطان سليمان قائلة: "تسألني عن السبب في غضبي على إبراهيم باشا،

حين يجمعنا الله ثانية سأذكر لك السبب، وستفهمني".

يدعم هذا الرأي أن قرار إعدام إبراهيم باشا جاء أثر وفاة السلطانة الأم السلطانة حفصة التي كانت تحمي زوج ابنتها، إلا أن البعض أرجع أمر إعدامه بسبب زواجه من امرأه اخرى كان اسمها محسنة ودفعت غيرة السلطانة خديجة عند معرفتها بهذا الخبر أن أوعزت للسلطان سليمان لإصدار القرار بإعدام ابراهيم باشا، ليكون ضحية مكائد حريم السلطان.

إلا أن بعض المصادر ترى أن السبب الذي دفع السلطان سليمان للتخلص من إبراهيم باشا هو استشعاره القلق من مطامع صديقه في الحكم في ظل نفوذه المتصاعد بين صفوف الجيش، ففي آخر نشاط عسكري له في حروبه ضد إيران، كان إبراهيم باشا هو القائد العام لكل الجيوش العثمانية، وارتكب خطأ كبيرا عندما وقع بعض الأوامر العسكرية باسم "سر عسكر سلطان" ما عد خرقاً بروتوكولياً وتجاوزاً على المقام السلطاني، وشعر السلطان سليمان أن هذا مقدمة لاغتصاب الملك، ربما من خلال تنفيذ مخطط انقلابي يطيح بسليمان ويأتي بولده الأمير مصطفى ليكون هو السلطان والسلطة في يد إبراهيم باشا. خصوصا مع قيام إبراهيم عدد من القرارت دون العودة إلى مجلس الديوان الذي يضم وزارء الدولة، وانتشرت أقاويل بأنه يطمع في عرش بلاد المجر، لكن بعض المؤرخين يرون أن إبراهيم باشا اساء استخدام السلطة الممنوحة له في حملة العراقيين التي سار إليها إبراهيم باشا وكان يرافقه مسؤول الخزانة إسكندر جلبي الذي أُعدم بسبب ما قيل إنه فساد في تصريف الأموال، أو أخطاء ارتكبها في الحملة، ويعتقد أن إبراهيم دفع، ولو متأخراً، ضريبة إعدام إسكندر جلبي، كما أنه بموجب القوانين العثمانية، فإن الصدر الأعظم هو صاحب الكلمة الأولى في عمليات الصرف، ويتحمل بالتالي المسؤولية النهائية لتبذير الأموال.

أحد الأسباب التي يسوقها البعض لإصدار قرار الإعدام تتعلق بما يراه بعض المؤرخين بأن إبراهيم باشا ظل محافظاً على روابط مع جذوره المسيحية، وعمد إلى تقريب اليونانيين، وجلب والديه للعيش معه في العاصمة العثمانية؛ ما منح خصومه فرصة ترويج الإشاعات عن تمسكه بمسيحيته وخطورته على الدولة الإسلامية، وكان

للتشكيك في عقيدة الصدر الأعظم ما يبرره في نظر بعض المؤرخين الذين لاحظوا أن حرص إبراهيم باشا الديني صار يتدنى مع تعاظم قوته، وأن معظم أعماله الإسلامية كانت في آخر عهده، ربما لمواجهة الأقاويل حول ضعف إسلامه، وتقدم واحدة من الروايات مثالاً لما يمكن أن يؤدي إليه التساها الديني فبعد عودته من الحملة المظفرة في المجر عام ١٥٢٦، جلب إبراهيم باشا من بودا ثلاثة تماثيل لشخصيات الآلهة الرومانية: أبولو وهرقل وديانا، ونصبها في باحة قصره، بالنسبة للعامة، الذين يطلقون على الصدر الأعظم اسم إبراهيم الفرنجي اعتماداً على أصوله الأوروبية، فإن هذا التصرف يدل على ضعف العقيدة، بل وأخطر من ذلك: تمسكا بالجذور المسيحية في وقت كانت روح الحروب الصليبية وفكرة الجهاد مسيطرة، لذلك انتشر بيت نسب إلى الشاعر فيجاني، وترجمته:

في هذا العالم ظهر إبراهيمان الأول هدم الأوثان والثاني نصبها

وفي مجتمع إسلامي يرفع شعار حماية العالم الإسلامي والدفاع عنه فإن لمثل حملات التشكيك هذه خطورة كبرى، بالنظر إلى أن السلطان العثماني، الذي يعد نفسه خليفة للمسلمين، ليس بوسعه احتمال عواقب صدر أعظم مشكوك في عقيدته. على تعدد روايات الأسباب التي أدت إلى مقتل إبراهيم باشا فتظل حقيقة هي تلك التي ذكرها الشاعر والكاتب لامارتين "نهاية حياة إبراهيم باشا لم تكن لأي سبب ولا جريمة سوى عظمته".

يذكر المؤرخوت العثمانيون أن إبراهيم باشا، توسل بعد أن أغدق السلطان عليه بالرتب، للأخير بأن يتمهل في ترقيته بغية عدم إثارة حسد وزراء ومسؤولي الحكومة الكبار، الأمر الذي قابله السلطان بأن أقسم على ألا يسمح للوشاية أن تأخذ طريقاً بينهما، وبعدم تعريض صديقه للموت الذي كان، في الدولة العثمانية، عقوبة معتادة للمسؤول المشتبه في تقصيره أو خيانته، إلا أن السلطان سليمان القانوني حصل على فتوى تجيز له الحنث بقسمه لقاء بناء مسجد في القسطنطينية، وواصل لسبعة ليال تناول طعام العشاء مع إبراهيم باشا وحدهما، مانحاً إياه فرصة الهرب أو حتى أن يقتل السلطان بنفسه، وكشفت رسائل إبراهيم باشا التي كتبها قبل أيام من إعدامه، علمه بنية

سيده وقراره، رغم ذلك، البقاء وفياً للسلطان.

وبعد عودة الجيوش العثمانية إلى القسطنطينية قادمة من مواجهتها الظافرة الأولى مع الدولة الصفوية في عصر القانوني، أمر السلطان بإعدام رجله الأول والثاني في الدولة بعد السلطان بإعدام رجله الأول إبراهيم باشا، الذي عثر عليه ليلة ٢٢ رمضان سنة ٩٤٢هـ، الموافقة لـ٥ مارس سنة ١٥٣٦م، مخنوقا في غرفة نومه، أي بعد ١٣ عاماً من تعيينه صدراً عثمانياً أعظم، ويعد إبراهيم باشا واحدًا من ٢٢ صدرًا أعظمًا قضوا نحبهم قتلا بأوامر من سلاطينهم وخامس صدر أعظم من حيث مدة البقاء في المنصب دون انقطاع، غير أن مكانته -قربه الشخصي الذي أمسى عائليًا من السلطان، ومنصبه- ثم الصلاحيات التي منحت له والأعمال التي أوكلت إليه، مع عدم وضوح الدافع الحقيقي لإعدامه؛ جعلت المؤرخين يهتمون به ويركزون الضوء على تفاصيل حياته.

مقتل إبراهيم باشا واختفاؤه من المشهد السياسي العثماني كان له تأثيره الكبير على صراع "الحرملك"، فقد استقبلت السلطانة خرم خبر وفاة إبراهيم باشا بالسعادة كونه كان أحد المعارضين لتقديم ابنها الأمير محمد لولاية العهد، في المقابل رأت السلطانة مهدفران في مقتل إبراهيم باشا بعد رحيل السلطانة الأم السلطانة حفصة، خطرا بالغا على نفوذها داخل الحرملك وتهديد صريح لحظوظ ابنها الأمير مصطفى للوصول إلى سدة الحكم، وقبل أن نتابع الحديث عن السلطانة خرم سنتوقف قليلا لنتحدث عن منافستها السلطانة مهدفران.

السلطانة مهدفران

تعرف السلطانة مهدفران في المصادر بأكثر من اسم منها مهدفران أو ماه دوران ولقبت كلبهار أي "زهرة الربيع"، واشتهرت عند العرب باسم "ناهد دوران"بعد المسلسل التركي الشهير "القرن العظيم" المعروف أكثر باسم "حريم السلطان"، وتعد "مهدفران" الزوجة الأولى للسلطان سليمان القانوني، وأم الأمير مصطفى الذي كان أكبر المرشحين لخلافة والده على تخت السلطنة العثمانية وتوفيت سنة ١٥٨١.

ويرجع أصل مهدفران إلى أصول ألبانية ومعنى اسمها "زهرة الربيع" وهي ابنة موسيقي ألباني ثري يدعى "عبد الله رجاي"، وكان لها أخ وحيد يدعى "نقاشان آدم"، وتزوجها سليمان عندما كان شابا صغيرا وأميرا على سنجق "مانيسا" التي لا يتولاها عادة إلا ولي العهد، في حياة والده السلطان سليم الأول.

أنجبت مهدفران للسلطان سليمان القانوني، الأمير مصطفى عام ١٥١٥م، وعندما توفى السلطان سليم الأول عام ١٥٢٠م، وتولي سليمان القانوني عرش الدولة العثمانية انتقل بزوجته وولده إلى اسطنبوا مقر العرش العثماني.

وهناك بدأت مهدفران في ممارسة صلاحيات كونها زوج السلطان في الحريم السلطاني تحت إشراف أم السلطان السلطانة حفصة، التي كانت تتمتع بذكاء خارق وبدأت تعد العدة لنقل صلاحياتها إلى زوجة ابنها. وكانت مهدفران لديها من المؤهلات ما يمكنها من تولى إدارة الحرم السلطاني، فتميزت بالذكاء والخبث بالإضافة إلى جمالها وحب السلطان لها، ولكنها لم تحسن السيطرة على غضبها وغيرتها ، فلم يتزوج السلطان غيرها في بداية الأمر ولم يكن يميل إلى جواريه احتراما لها، خصوصا وأنها كانت حريصة على أن تحيط السلطان براعيتها فكانت تسافر مع السلطان أينما ذهب وتحاول أن تكون في عينيه كل النساء، وكانت تساعدها في ذلك جاريتها المخلصة كوثر، والتي ترجع علاقاتها بالسلطانة مهدفران إلى ما قبل زواجها بالسلطان سليمان، فقد كانت كوثر بنت يتيمة، اهتمت السلطانة مهدفران بها وجعلتها صديقتها ووصيفتها المقربة، وكانت كوثر واتباعها يخبرون السلطانة عند قدوم دفعة جديدة من الجواري إلى الحرملك لتتم معاينتها من قبل السلطانة، وكانت الجارية

الجميلة يتم إعادتها إلى بلادها أما متوسطة الجمال التي لا يمكن أن تعجب السلطان فيتم ضمها للحرملك، لكن رغم هذا النظام الذي أحكمت به السلطانة مهدفران سيطرتها على الحرملك إلا أنه اخترق مرة واحدة كانت كافية للقضاء على نفوذ السلطانة.

ففي أحد دفعات الجواري، كانت تضم روكسلانا، فالتقت وجهاً لوجه للمرة الأولى مع مهدفران، التي لم تلتفت إلى هذه الجارية الجديدة كونها متوسطة الجمال لكنها لم تمعن النظر في عينيها التي تشعان ذكاء ودهاء، ودار حوار بين السلطانة والجارية.ي

فسألت ناهد : ما أسمك؟.

أجابت: اسمي روكسلانا يا مولاتي

السلطانة: ماذا تتقنين من عمل الجواري

روكسلانا: مراقبة الاطفال، والتزيين، والدف والعزف والرقص، وأعرف التجهيز للمناسبات يا مولاتي.

السلطانة: ربما لن نحتاج لعزفك ورقصك ، ولكن قد تنفعين في مناسبات الحرملك، سنعينك مع جواري المناسبات. وكانت المناسبات مثل حفلات الزواج ، والاحتفال بولادة الاطفال ، كذلك عيد الفطر والاضحى ، وحفلات استقبال السلطان لما يرجع من حروبه وسفرياته. وأطلقت السلطانة مهدفران على الجارية الجديدة اسم "خرم" أي باسمة الوجه أو الضاحكة، وهكذا دخلت سلطانة المستقبل خرم القصر العثماني على يد عدوتها ومنافستها الأولى السلطانة مهدفران.

وكانت روكسلانا دخلت القصر بعد أن تم أسرها من قبل قبائل تتار القرم، ثم بيعت لاحقا إلى إبراهيم باشا الصدر الأعظم وصديق السلطان سليمان وزوج أخته، ويقال أنه هو من أهداها للقصر العثماني.

سرعان ما ووصلت روكسلانا إلى قلب السلطان سليمان، وأصبحت الجارية المفضلة لقلب السلطان، وأنجبت للسلطان الأمير محمد عام ١٥٢١م، ثم الأمير سليم عام ١٥٢٣، لتشتعل المنافسة بين خرم ومهدفران، وهنا كان لنفوذ السلطانة الأم حفصة دور في السيطرة على هذا الصراع الذي أشعل نار الحقد في الحرملك.

كان كل يوم يمر على الحرملك يعني زيادة في نفوذ السلطانة خرم وسيطرتها على السلطان سليمان القانون الذي سقط في بحر عشقها غريقا، وتتفق معظم المصادر التاريخية على تأثيرها الأسطوري عليه، وهو ما لاحظه الديبلوماسي النمساوي ديرنشاوم قائلا عن روكسلانة: "كان نفوذها عظيما لدرجة دفعت البعض إلى التكهن بأنها ربما تكون سيطرت علي السلطان سليمان بفعل السحر".

أثبتت السلطانة خرم نفوذها عندما طلبت من السلطان نقل مقر الحرملك من قصر بازيد (القصر القديم) إلى القصر السلطاني "توبي كابي سراي" أي قصر الباب العالي، مقر العرش العثماني، وكانت حجة خرم لهذا الطلب هو أن تكون على مقربة من السلطان سليمان، فقد كانت المسافة التي كانت تفصل سرايا السلطان عن مقر الحريم كبيرة جدا فمقر الحريم حتى أواسط القرن السادس عشر في السراى القديم الذي شيده السلطان محمد الفاح عقب دخوله القسطنطينية في عام ١٤٥٣، لذلك رأت السلطانة خرم أن الأفضل أن تكون بجوار زوجها السلطان، وساعدها على نيل مطلبها هذا، نشوب حريق في العاصمة في عام ١٥٤١ أدى إلى تدمير جزء كبير من السراي القديم الأمر الذي أفزع القاطنات في سكن الحريم، انتهزت روكسلانا الفرصة لكي تنتقل إلي السراي الكبير الذي أصبح منذ عهد محمد الفاتح مركزاً للحكومة، وفيه كان ينام سليمان حين لا يشعر بالرغبة في زيارة الحريم. بعد انتقال السلطانة خرم إلى السراي الكبير أمرت ببناء باب بين جناحها الجديد وبين جناح السلطان وبذلك أصبحا لا يفترقان.

لم تقف السلطانة مهدفران مكتوفة الأيدي أمام تنامي نفوذ السلطانة خرم وسيطرتها على السلطان سليمان، فاندلعت حرب شرسة بين السلطانتين، وبعد وفاة السلطانة الأم حفصة في عام ١٥٣٤م، تمادت السلطانة مهدفران في الاساءة إلى السلطانة خرم، بعد أن رأت نفوذها يتعاظم وأصبحت تجلس متربعة على عرش السلطان سليمان، لذلك سعت للتخلص من خرم، ولما فشلت في جميع محاولاتها، هاجمت خرم بنفسها وأنهالت السلطانة مهرفران على خرم بالضري بجنون، وبدا حقدها على غريمتها الروسية واضحاً من خلال أسلوبها في اللكم والعض وتمزيق

الثياب، الأمر الذي تسبب للسلطانة خرم بالكدمات والخدوش في أنحاء متفرقة من جسمها.

بعد انتهاء هذه المعركة النسائية عادت مهدفران مسرعة إلى جناحها حتى تحتفل بانتصارها، بينما عادت خرم سعيدة بما تحمله من آثار العدوان، واحتجبت عن السلطان على غير عادتها، ما أشعره بالقلق عليها، وأرسل يستعلم عن سبب غيرتها، فأرسلت له تقول: "إنها غير جديرة بالظهور أمامه لأنها كما قالت السلطانة مهدفران لحم يباع ويشترى الأمر الذي أثار غضب السلطان وانتهى بإقصاء السيدة الأولى وأم ولي العهد عن موقعها الرسمي، بذلك وضعت بأفعالها السلطانة مهدفران نهايتها ونهاية ابنها مصطفى لاحقاً بغيرتها وسذاجتها.

اصدر السلطان الغاضب قراره بنفي السلطانة مهدفران وابنها الأمير مصطفى إلى ولاية أماسيا، ورغم أن القرار جاء في شكل إرسال الأمير الشاب إلى مقر ولايته ليستعد لولاية السلطانة، إلا أن الجميع كان يعلم أن القرار بمثابة إقصاء للأمير مصطفى من ولاية العرش، وخروج السلطانة مهدفران من عالم حريم السلطان نهائيا.

الصراع على العرش وصل إلى ذروته، بإقدام السلطان سليمان القانوني على قتل ولده الأكبر وولي عهده الأمير "مصطفى"، فالأخير فقد حلفاؤه بعد وفاة جدته السلطانة حفصة ومقتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا وإقصاء والدته السلطانة مهدفران بعيدا عن قصر الباب العالي، في وقت أحكمت فيه السلطانة خرم قبضتها على القصر السلطاني، ونجحت في لفت اهتمام السلطان إلى ابنائه منها وعلى رأسهم الأمير محمد والأمير سليم، كما أنها عينت زوج ابنتها رستم باشا صدرا أعظم للبلاد بعد مقتل إبراهيم باشا.

لذلك توترت العلاقات بين الأمير محمد ووالده السلطان سليمان، الأخير بدا وكأنه يعد الأمير محمد ابنه من خرم لتولي السلطنة بعد أن عينه واليا على ولاية مناسيا وهي الولاية القريبة من العاصمة اسطنبول (استانة) والتي كان يتولاها عادة ولي العهد، فيما كان نصيب الأمير مصطفى ولاية أماسيا البعيدة، وهو ما يعد خرقا للتقاليد العثمانية التي تنص على ضرورة بقاء ولي العهد بالقرب من عاصمة الدولة.

تبسم الحظ لحظة في وجه الأمير مصطفى عندما بلغه خبر وفاة أخية الأمير محمد سنة ١٥٤٣م، لأنه كان المفضل عن السلطان كان جميع رجال القصر على يقين من أنه السلطان القادم، وبوفاته اعتقد الأمير مصطفى أن الطريق أصبح مفتوحا للعرش العثماني، لكن الحظ عانده سريعا فشاه بايزيد الاخ الشقيق للأمير محمد، قامت أمه السلطانة خرم بتصعيده لمنافسة الأمير مصطفى، وكان بايزيد أكثر أبناء السلطان سليمان فروسية ومهارة عسكرية، لذلك جاء قرار تعيينه على ولاية كوتاهيا القريبة من العاصمة، ليبعث الرعب في قلب الأمير مصطفى من جديد، خصوصا مع إرسال الأمير سليم الابن الثاني للسلطانة خرم من سليمان إلى ولاية الأناضول، وبذلك تأزمت الأمورفهناك ثلاثة أمراء في الأناضول جميعهم مرشحين لولاية العرش العثماني، واثنان منهم من أبناء السلطانة خرم، هذا يعني أن الحاجز الوحيد بين السلطة وخرم كان مصطفى، وكانت حياة مصطفى في خطر بسبب التحالف بين السلطانة خرم و رستم باشا.

فبعد خروج مهدفران من القصر يلاحقها خزي الهزيمة، سيطرت السلطانة خرم على القصر تماما، ونجحت من خلال زوج ابنتها الصدر الأعظم رستم باشا في تأليب السلطان سليمان على ولي عهده الأمير مصطفى، وكان الأخير قد بدأ يشعر بانحراف والده عنه واقترابه من أعلان أحد أبناء خرم ولي للعهد، وبدأ يبحث عن أنصار لقضيته بين الجنود وكبار رجال الدولة، لذلك لم يكن من الصعب إقناع السلطان سليمان بأن الأمير مصطفى سيثور على السلطان ويعزله باستغلال محبة الجنود الإنكشارية، وتواردت شائعات حول نجاح الأمير مصطفى في الحصول على مساندة خيالة الأناضول وقبائل التركمان وقطاع الطرق بهدف القيام بثورة عامة ضد السلطان سليمان للوصول بالأمير مصطفى إلى كرسي العرش، كما فعل والده السلطان سليم الأول ضد جده السلطان بايزيد الثاني، مما حدا بالسلطان سليمان إلى إصدار قرار بإعدامه سنة ١٥٥٣، بعد أن قامت السلطانة خرم بمساندة رستم باشا بتدبير مؤمرة للتخلص من الأمير مصطفى، ففي أثناء خروج السلطان في أحدى حملات الجيش على إيران قام رستم باشا بإرسال أحد أكثر الرجال الذين يثق بهم السلطان سليمان

لتقديم تقرير يثبت انة منذ ترك السلطان قيادة الجيوش قام الجنود بالانحياز للأمير مصطفى ليتقلد السلطة، ومع انتشار الاشاعات بدا مصطفى متقبلآ للفكرة، ولم يهتم السلطان سليمان للأمر في البداية، لكنه أصبح شرسا للغاية عند سماعه الأمر من مصدر موثوق به.

وقاد سليمان قواته عبر الأناضول خلال صيف عام ١٥٥٣ للوصول إلى معسكر الجيش العثماني المتوجه لمقاتلة الفرس في القرب من مدينة قونية، وهناك استدعى ابنه للمثول بين يديه الذي شق طريقه إلى خيمة ابيه وكان بانتظاره خمسة من الجلادين الذين كان يعهد إليهم بشنق ذوي المكانة بوتر القوس وهو شرف لا يحظى به إلا علية القوم، راقب السلطان من وراء الستار قتل ابنه المحبوب وحين انتهى كل شيء؛ برز إلى العيان دون أن تظهر عليه أي علامة من علامات الشفقة والندم وتظاهر أنه لم يقتل ابنه، وعندما عاد إلى العاصمة العثمانية لم يخبر أحد بمقتل ولده، وانتظر حتى وصله خطاب من الديوان مكتوب بحبر أبيض على ورق أسود يخبره بموت ابنه وحينئذ ألقى بعمامته إلى الأرض وأمر بإقامة الحداد عليه.

وبذلك أنفردت السلطانة خرم بقلب السلطان سليمان القانوني وتحقق لها ما كانت تصبوا إليه بأن أصبحت سيدة القصر، أما السلطانة مهدفران فقد دمرتها كارثة إعدام ولدها الوحيد الأمير مصطفى، وأنزوت وسط حزنها على فلذت كبدها تلعق مرارة الهزيمة والوحدة، وانتقلت إلى بورصة تعاني ألم الفراق لتجاوز قبر ولدها الذي دفن هناك، ولم يكن لها مصدر دخل بعد أن تجاهلها السلطان سليمان، وبعد وفاته قرر السلطان الجديد سليم الثاني ابن عدوتها السلطانة خرم أن يخصص لها راتب حتى وفاتها ١٥٨١م.

وجاءت وفاة الأمير مصطفى بمثابة الصدمة في القصر العثماني، فالأمير جهانكير أعلن رفضه لجريمة والده السلطان سليمان وصارحه بالأمر، وتوفى كمدا وحزنا على أخيه غير الشقيق، وتقول بعض المصادر العثمانية أنه قام بقتل نفسه أمام والده بعد أن بكته على قتل أخيه، كما أن الصراع على ولاية العهد انتقل إلى ابناء السلطانة خرم، بايزيد وسليم، وهو صراع مدمر شهدت السلطانة خرم بدايته لكنها

توفيت سنة ١٥٥٨ بعد أن أمنت العرش لأحد أولادها، وحزن السلطان سليمان عليها كما لم يحزن على أحد فقد أمر بعد وفاتها بإغلاق الباب الذي كان يصل جناحها وجناح السلطان، وأصبح يتناول وجباته منفردا، وقد بدأت عليه علامات الشيخوخة خاصة بعد أن فقد أعز أصدقائه وأحبائه إبراهيم باشا والأمير مصطفى وأخيرا عشق حياته السلطانة خرم، وشاهد السلطان سليمان الصراع العنيف بين ولديه من خرم، سليم وبايزيد، وكان الأخير أكثر كفاءة عسكريا وعقليا، لكن سليم ورث دهاء أمه السلطان خرم، فحاك بمساعدة شقيقته السلطانة مريم التي ورثت نفوذ أمها في الحرملك ضد شقيقهم الأمير بايزيد المعروف بصرامته وقوة شكيمته، واستخدم سليم في مخططه مربيه الخاص "لاله مصطفى" الذي عين ناظرا للخاصة وهي وظيفة تجعل شاغلها قريبا من السلطان، واستغل قربه من السلطان ليرسل إلى الأمير بايزيد يقول له أن سليماً منهمك في الشهوات و لايليق أن يخلف والده على عرش آل عثمان ومع ذلك فوالده مصمم على استخلافه مع عدم أهليته للملك وعدم استعداده لإدارة السلطنة مترامية الأطراف وتم تبادل الرسائل بينهما، حتى وصل "لاله مصطفى" في هدفه فقد كتب بايزيد رسالة جاء فيها تسفيه لسليم وأيضا به عبارات تمس كرامة والده السلطان، فما كان من "لاله مصطفى" إلا تسليم تلك الرسالة إلى الأمير سليم الذي سلمها إلى السلطان سليمان الذي استشاط غضبا شديدا، وكتب لابنه بايزيد يوبخه على ما آتاه وطلب في إرساله فخشى بايزيد أن يكون قصد أبيه الغدر به كما فعل في الأمير مصطفى، وأمتنع عن التوجه إلى أماسيا وجمع جيشا يبلغ عدده ٢٠ ألفا وأعلن التمرد على والده، فأرسل إليه السلطان سليمان وزيره محمد باشا الملقب بـ"الصقلي" لمحاربته، فتقابل الجيشان بقرب قونية واستمر القتال يومي ٣٠ و ٣١ مايو سنة ١٥٦١ م واخيراً هزم بايزيد وتقهقر إلى أماسيا ومنها إلى بلاد العجم حيث إلتجأ هو وأولاده إلى الشاه "طهماسب" فقابله بالاحترام و الإخلاص ولكنه أرسل للسلطان سليمان سرا وفاوضه على تسليم بايزيد وأولاده، وعلى الفور أرسل السلطان سليمان رسل الموت إلى عاصمة الشاه الإيراني وقاموا بقتل الأمير بايزيد وأولاده الأربعة أورخان ومحمود وعبد الله وعثمان، ونقلت جثثهم إلى مدينة سيواس حيث وراهم

الثري وكان لبايزيد ابن صغير في مدينة بورصة فخنق أيضا ودفن في جانب والده وأخوته.

بعد وفاة بايزيد خلى الجو للأمير سليم الذي أصبح المرشح الوحيد لولاية العهد، في وقت اشتد المرض بالسلطان المسن سليمان القانوني بسبب إصابته بمرض النقرس، ما منعه من ركوب الخيل، على الرغم من ذلك فعندما بلغه هجوم النمساويين على الحدود، أمر وهو في الـ٧٤ من العمر ورغم مرضه بإعداد الجيوش، وكان الطبيب الخاص لسليمان قبل خروجه للجهاد، نصحه بعدم الخروج لعلّة النقرس التي به، فكان جواب السلطان سليمان الذي خلده له التاريخ "أحب أن أموت غازيا في سبيل الله"، وخرج على رأسها في ٩ شوال عام ٩٧٣هـ/ ٢٩ أبريل عام ١٥٦٦م، ووصل إلى مدينة سيكتوار المجرية وكانت من أعظم ما شيّدته دولة النمسا من القلاع.

وتوفى السلطان سليمان أثناء الحصار في يوم ٥ سبتمبر ١٥٦٦ عن أربع وسبعين سنة وكانت مدة ملكة ثمانية واربعين عاما قضاها في توسيع نطاق الدولة وإعلاء شأنها حتى بلغت في أيامه أعلى درجات الكمال، وأخفى الوزير خبر موته خوفاً من وقوع الفشل في المعسكر وأرسل لولده سليم بمدينة كوتاهية يخبره بذلك ويطلب منه الحضور على جناح السرعة إلى الأستانة منعاً للقلاقل. وأعلن الوزير الانتصار بعد سقوط القلعة لكافة الجهات باسم السلطان سليمان حرصاً على عدم إذاعة موته الذي لم يذعه إلا بعد أن وصلته رسالة من الأستانة بوصول ولده سليم إليها واستلامه مهام منصبه كسلطان للبلاد.

ومع وصول السلطان سليم الثاني إلى سدة الحكم بدأ عصر جديد يترسخ في أفق الدولة العثمانية عرف تاريخيا باسم "سلطنة الحريم" فقد أصبح للحرملك دور بارز في تسيير أمور السلطنة العثمانية والسياسية العامة للدولة، وخضع السلاطين أمام رغبات وطموحات نساء الحرملك وهو عصر سيقود الدولة العثمانية إلى بداية الانحطاط السياسي.

السلطانة نوربانو...سيدة النور

مع وصول السلطان سليم الثاني إلى سدة الحكم (حكم في الفترة:من سنة ١٥٦٦إلى سنة ١٥٧٤م، أخذت سلطة وسلطان الحرملك في الأزدياد وأصبحت واضحة للعيان وأمر معترف به داخل أروقة القصر العثماني، بل في الدول الأوروبية التي بدأت تتصل بالحرملك لمخاطبة السلطانات لمناقشة الأمور الدولية، فانفوذ الذي لعبته السلطانة "خُرم" والدة السلطان سليم في عهد والده السلطان سليمان القانوني، وكيف دخلت في صراع داخل الحرملك عرضنا تفاصيله في الفصل السابق حتى نجحت في تمهيد الطريق أمام أبناءها للوصول إلى العرش وهو ما نجح فيه الأمير سليم الثاني.

لكن سليم ليس وحده من وصل إلى سدة الحكم، فشقيقته الأميرة محرمة (المعروفة عربيا بالأميرة مريم) احتلت المساحة التي كانت تشغلها السلطانة خرم بعد وفاتها، خصوصا وأنها كانت زوجة الصدر الأعظم رستم باشا، وأصبحت لسلطانة محرمة صاحبة السلطان الأكبر داخل القصر العثماني وورثت مكانة والدتها وتلقبت بالسلطانة الأم ومارست نفوذها منذ السنوات الأخيرة من عصر والدها السلطان سليمان، وتتابع نفوذها في عهد أخيها في الفترة الأولى من حكمه ولعبت دور في تحريك الأحداث داخل لكن نفوذها المتصاعد وجه بحزم من قبل امرأة أخرى استطاعت أن تحد كثيرا من نفوذ السلطانة محرمة وتدخلها منطقة الظل وتستأثر هي بكل السلطان، فمن هذه المرأة؟!

هي السلطانة نوربانو زوجة السلطان سليم الثاني وأم ولي العهد الأمير مراد، التي حاذت على نفوذ كبير داخل القصر العثماني وعلى يديها ترسخ نفوذ "الحريم" في الدولة واعتبر سلطة قائمة بذاته، وصارت لكلمة "الحرملك" نفس مفعول وقوة كلمة السلطان، ومنذ "نوربانو" لم يعد السلطان بقادر على اتخاذ أيّ قرار دون الرجوع إلى السلطانة الأم أو جاريته المفضلة أم ولي العهد.

نفوذ السلطانة نوربانو تعاظم مع شخصية زوجها السلطان سليم الضعيفة مقارنة مع شخصية والده السلطان سليمان القانوني الذي يعد آخر سلاطين الدولة العثمانية

العظام، فقد كان السلطان سليم مدمنا على الشراب مسرفا في تناول الخمور حتى عرف بلقب "سليم مست" أي سليم السكير، وكان كما – يقول الدكتور عبد العزيز الشناوي مؤرخ الدولة العثمانية – مشهورا بارتكاب أقذر أنواع الرذائل التي يشعر الإنسان بالخجل عند سماعها ، وكان يقضي أوقاته داخل القصر يمارس هوايته في شرب الخمور ومطلقا العنان لشهواته البهيمية ومسامرا لحثالة من حاشيته ، ولم يذهب إلى ساحة القتال أبدا ، مع أن عهده شهد إرسال حملة عسكرية لإعادة السيطرة العثمانية على اليمن ، وإرسال حملة أخرى لفتح قبرص ، وذلك يرجع إلى أن قوة الدولة كانت لا تزال متأججة برغم ضعف ذلك السلطان ، الذي كان دافعه لفتح قبرص هو أن مستشاره اليهودي الماجن جوزيف ناسي قد أقنعه بأن نبيذ قبرص هو أعظم نبيذ في العالم ، مما جعل السلطان يهتف قائلا لصديقه اليهودي : ستكون ملكا على قبرص ، وقد بلغ من حظوة ذلك اليهودي عند السلطان سليم الثاني أن أعطاه جزيرة ناكسوس بعد أن نجحت الدولة في الاستيلاء عليها .وقد تشجعت الدول الأوربية بضعف هذا السلطان فتنادت إلى عقد حلف ضده ونجحت في تحطيم الأسطول العثماني في موقعة لبانتو في أكتوبر سنة ١٥٧١، واعتبرتها أوربا هزيمة للإسلام، رغم أن الأسطول العثماني عاد أقوى من ذي قبل في غضون شهور.

ولذلك يرى بعض المؤرخين كما يقول الدكتور عبد العزيز الشناوي في كتابه الضخم عن الدولة العثمانية أن هذا السلطان هو أسوأ السلاطين العثمانيين، وأنه البداية الحقيقية لاضمحلال الدولة العثمانية ، وأنه أول من يستحق وصف "التنبل"، وعلى رأس السلاطين التنابلة الذين لا عمل لهم إلا اقتناص المتعة الشرعية وغير الشرعية، تاركا سيدات القصر ليقمن بإدارة شئون الدولة بدلا منه، وكانت أقواهن السلطانة "نوربانو" أي سيدة النور وهي إحدى قادينات السلطان سليم الثاني وقد اكتسبت قوتها من كونها أم ولي العهد، وقد استمر نفوذها بتولي ابنها السلطنة تحت اسم مراد الثالث، وقد استمر يحكم الدولة أكثر من عشرين عاما ١٥٧٤ – ١٥٩٥.

هناك خلاف حول أصول السلطانة نوربانو فوفقا لسجلات مدينة البندقية، يفترض أن سيسيليل أو أوليفيا هي ابنة سيد بروسا فيرنييه نيكولوس، أو ابنه لدوك البندقية

سيباستيانو فينييه ووقعت في الأسر عندما غزا العثمانيون جزيرة سيكلاديز باروس، حيث ولدت، خلال الحرب سنة ١٥٣٧، واختطف من هناك واقتيدت كجارية إلى الحريم السلطان سليمان القانوني، حيث وقع في غرامها الأمير سليم الذي أطلق عليها اسم "نوربانو".

هناك من يرى أن نوربانو تعود إلى جذور إسبانية يهودية وان اسمها هو راشيل بنت جوزيف ناسي، وهو ما يمكن استخلاصه من بعض مراسلات السلطانة صفية مع جمهورية البندقية، لكن لا سند تاريخي لهذه الرواية.

أما الرواية الأكثر شهرة وهي أن نوربانو تعود بأصولها إلى جزيرة كركيرا التابعة لإدارة البندقية، والتي صمدت لحصار الأسطول العثماني أكثر من مرة إلا أن حصار سنة ١٥٣٧ كان شديدا وكادت أن تسقط الجزيرة في قبضة العثمانيين، إلا أنهم انسحبوا نتيجة شدة الطقس واستبسال القوات المدافعة ولكنهم في انسحابهم اصطحبوا معهم العديد من الأسرى كان من ضمنهم نوربانو نفسها، وبعيت الجواري في أسواق القسطنطينية، حيث تم البيع علنا في مزاد، وكان من ضمن الأسرى الجميلة كالي وأمها وشقيقها، وكالي هي نوربانو التي دخلت القصر السلطاني وهي بنت سبعة أعوام، أما أمها فقد استطاعت العودة إللا بلادها وكذلك حصل شقيقها على حريتهوعاد إلى أمه في كركيرا، وتعد هذه الرواية هي الأقرب إلى الصحة التاريخية بعد اكتشاف خطاب في مكتبة ميلانو مرسل من أم السلطانة نوربانو إليها بعد أن أصبحت سلطانة، تطالبها فيه ابنتها بزيارتها في استانبول، ولا نعرف حقيقة ما إذا كانت الأم قد رأت بنتها بعد أن أصبحت سلطانة أم لا.

على كل حال فقد أعجب الأمير سليم بهذه الجارية الجميلة التي اعتبر أجمل ما في حياته، فتزوجها سنة ١٥٤٥، وهو في الواحدة والعشرين من عمره، وكانت نوربانو وقتها في الخامسة عشر، وولدت لسليم الأمير مراد في سنة ١٥٤٦ في المصيف الجبلي بوزداغ التابع لسنجق (ولاية) صاروخان التي كان سليم واليا عليها.

ومع تولي سليم السلطنة بعد وفاة والده السلطان سليمان القانوني في سنة ١٥٦٦م، دخلت السلطانة نوربانو في صراع على رئاسة الحرملك مع السلطانة محرمة (أو

مرماه) بنت السلطان سليمان والتي حملت لقب السلطانة الأم وهو صراع سيظل مستمرا حتى وفاة الأخيرة في سنة ١٥٧٨م، وبعد تخلصها من نفوذ محرمة أصبحت نوربانو هي سيدة الحرملك بلا منازع خصوصا وأنها حملت لقب السلطانة الأم في عهد سلطنة ولدها السلطان مراد الثالث، واحتفظت بلقب السلطانة الأم حتى وفاتها في ١٧ ديسمبر ١٥٨٣، وكانت تقارن بكاترين دي مدتشي ملكة فرنسا الوالدة والمعاصرة لها. لكن سنوات حكم أبنها لم تمر مرور الكرام فقد دخلت في صراع نفوذ مع زوجة ابنها السلطانة صفية، وهو صراع سيكون له أثره الحاسم في تاريخ الحرملك.

السلطانة نوربانو بالمنشآت المعمارية في استانبول، فأنشأت مجمع ديني- تعليمي في حي أوسكودار يضم مسجد ومدارس دينية وخانقاه للصوفية وخان، كما أمرت ببناء حمام شامبارلي تاش الذي انتهي من بناءه بعد وفاتها سنة ١٥٨٤م، وهو ما استغل دخله لتمويل كلية السلطانة نوربانو باسكودار، والحمام يعد قطعة فنية قائمة بذاته وأحد أهم المنشآت التي استمر تأثيرها في العصور العثمانية التالية فهو من تأسيس المهندس المعماري سنان باشا، الذي أجرى تعديلات حاسمة على مكونات قسم "الحرملك" داخل قصر الباب العالي (طوبي قابو سراي)، فإلى هذا العهد يبدو واضحا إتمام تأسيس الحرم في السرايا حسب النظام العثماني في نهاية القرن السادس عشر، وهي تعديلات أجريت بأوامر من السلطانة الأم نوربانو كي يخضع القصر للأعراف والتقاليد الإسلامية التركية في تكوين العائلة، ولكي يكون للسلطانة الأم دور في حرم السرايا العثمانية ومكانتها في الدولة تنعكس على طبيعة مكانها ومحل إقامتها داخل الحرملك.

ونتيجة للمشاحنات المستمرة في العلاقة بين كل من السلطانة الأم السلطانة نوربانو والسلطانة صافية زوجة السلطان مراد الثالث، والتي جعلت الأخير في حيرة من أمره لا يعرف من يرضي ما إجباره على اتخاذ خطوات جدية لإدارة الوضع المتأزم بينهن في حرم سرايا طوب قابي. وكان لا بد من تقسيم القوى في الحرم وذلك بتسخير إمكانيات العمارة الكلاسيكية في هذه الفترة وبما يتناسب وظروف الوضع

الفعلي للتصاميم الممكن تنفيذها، وأصبحت ردهات الجواري تمثل البنية التحتية في هذه الأجنحة، ومن اجزاء الحرم المبنية بشكل تفصيلي من وجهة النظر التفصيلية ومن ناحية كون لها تأثير مهم هو جناح السلطانة الأم الذي أصبح الأضخم على الإطلاق داخل الحرملك وهو ما عد انتصارا ساحقا للسلطانة الأم نوربانو.

وكان لتحكم السلطانة نوربانو وأوامرها بإدخال تعديلات على القصر السلطاني سببا في تلك النهضة المعمارية التي عرفتها العمارة العثمانية على يد المعماري العظيم سنان باشا والمعماري الكبير داوود باشا في أعمال عظيمة في حمامات السلاطين (هونكار حماملاري) ورواقات السلاطين (هونكار صوفاصي)، وأجريت تعديلات حاسمة على العمارة العثمانية فقد كانت صالونات الاحتفال والاستقبال في البداية ذات قبب عادية ثم زينت هذه القبب من الداخل والخارج، ومن أمثلة موازنة المعمار للمنطقية والجمالية العثمانية التصميم الذي أنجزه في الغرفة الخاصة لمراد الثالث بجانب الرواق، وقد وازن العثمانيون باستخدام مصنوع الجين(عبارة عن فخار مطلي بطلاء خاص) بتغليف داخل القبب وبتغليف الأحواض على حد سواء، وباستخدام مثل هذه الأماكن والواجهات يكونوا قد وصلوا إلى أساسات ثابتة في تأسيس وإقامة أماكن مثل الحرم وأماكن السلطان والسلطانة الوالدة.

وتطبق هذه العمارة التي أوجدوها في هذا العصرمن المنطق الكلاسيكي حتى على أحواض الحدائق، من مفارقات هذه الفترة في منظومة السرايا المتمثلة ببناء سرايا طوب قابي والحرم وجود جناح الشاهزادة، كان من دواعي ضم الشاهزادة للحرم ما حدث خلال القرن ١٦ من مداخلات خطرة بين الأناضول وإيران وما حدث من مشاحنات بين الشاهزادة والسرايا وهذا ما توجب من وضع الشاهزادة تحت الإقامة الجبرية في الحرم بسبب قوانين الفاتح والتي توجبت عدم قتل الشاهزادة حفاظا على سير أمور الدولة وهذا ما سبب تحالف شعبي ضد السرايا، وفي نهاية القرن ١٦ ركزت الدولة على بروتوكولات الواجهات وقامت ببناء جناح الشاهزادة فوق جناح الباش هاسكي وكان يحتوي هذا النظام من البناء على الحمامات وكانت تضم سرايا سليم الأول الحرم وحدائقه ما جعلت الحرم بهذا الشكل من أوسع الأجنحة ورمزا

للعصر.

لعبت السلطانة نوربانو دورا كبيرا في السياسة الخارجية للدولة العثمانية فاق أي دور لعبته سلطانة سبقتها، فزوجها الضعيف سليم أوكل مهام الدولة إلى صدره الأعظم محمد باشا صوقوللو (نسبة إلى مدينة صوقولو البوسنية التي ينحدر منها)، وتحالفت السلطانة نوربانو مع الصدر الأعظم لإدارة الدولة في ظل غياب السلطان سليم الغارق في ملاذته.

ولابد هنا من وقفه مع الصدر الأعظم محمد باشا صوقوللو، الذي يعد الشخصية الأبرز في النصف الثاني من القرن السادس عشر في تاريخ الدولة العثمانية، وهو من قام بإخفاء موت الخليفة القانوني خوفا من ثورة الانكشارية حتى تسلم سليم الثاني الحكم، واستغل مواهبه الإدارية الفذة في ملئ الفراغ الذي خلفه رحيل السلطان سليمان بشخصيته الفريدة، ووجود السلطان سليم ضعيف الشخصية، وهو ما نجح فيه عن جدارة، فإليه وحده تنسب تلك الانتصارات المبهرة التي حققتها جيوش الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم سواء في أوروبا أو في اليمن أو في تونس أو على الجبهة الإيرانية، وإليه ينسب الفضل في إعادة بناء الأسطول العثماني في سرعة مدهشة بعد كارثة معركة ليبانتو سنة ١٥٧١م التي حطم فيها الأسطول العثماني، وظل يمارس نفوذه بكفاءة يحسد عليها في عصر السلطان مراد، لكن بعض الشخصيات المحيطة بالسلطان الشاب جعلت تأثير محمد باشا ومنزلته تتراجع، ولم يمنع السلطان مراد من إصدار قرار بإعدام صدره الأعظم إلا السلطانة الأم نوربانو، التي كانت تعرف جيدا أهمية بقاء محمد باشا صوقوللو في منصبه لمصلحة الدولة العثمانية، لم تستطع حاشية السلطان التخلص من الصدر الأعظم إلا من خلال مؤامرة دبرت في السر بعيدا عن السلطانة الأم، التي ما علمت بما يدبر إلا بعد مقتل الوزير الأعظم سنة ١٥٧٩م، واستشاطت غضبا من ابنها السلطان ووبخته على ما اقترفه من جريمة في حق رجل أخلص في خدمة الدولة العثمانية.

ولعبت السلطانة نوربانو دورا بارزا في السياسة الخارجية، وخلال سنوات توليها مرتبة السلطانة الأم عملت نوربانو على تدعيم أواصر العلاقات بين الدولة العثمانية

وجمهورية البندقية التي قيل أن أصولها تنحدر من أحدى أسر تلك المدينة الغنية، كما أن نوربانو كانت السبب الرئيسي في توتر العلاقات بين الدولة العثمانية وجنوا، بعد أن انحازت صراحة في صف البندقية عدوة جنوا. واستخدمت نوربانو في علاقاتها الخارجية شخصية نسائية بارزة في هذا العصر وهي "استر كيرا" اليهودية، وهي شخصية تمكنت من أن تلعب دورا كبيرا في السياسة الداخلية والخارجية العثمانية، وذلك من خلال تغلغلها في دائرة حريم السلطان ودعم السلطانة الأم نوربانو لها، حتى أصبحت كيرا مسؤولة عن جمارك اسطنبول بفرمان اصدره السلطان، وهي وظيفة ظلت تحتفظ بها لمدة نصف قرت تقريبا.

بعض المؤرخين يرى أن استركيرا مارست نشاطاً تخريبا في الدولة العثمانية، من خلال تزييف العملة العثمانية وترويجها، مما انعكس سلبا على مالية الدولة العثمانية، كما عملت على بيع المناصب ونشر الفساد الاداري والرشوة بين موظفي المالية، وكان لها ولدان هما ايليا و يوسف شارك الاول والدته في عملها هذا وعلى الرغم من علم الدفتردار بزيف تلك النقود الا انه كان يوزعها على الجنود، تجنبا لسطوة ونفوذ اليهودية، استركيرا، غير أن الجنود تذمروا من جراء توزيع تلك النقود، بدرجة ادت إلى نشوب الحركات في داخل الجيش واعدام عدد من الوزراء، قبل أن تطيح أحدى ثورات الإنكشارية باستر كيرا.

أحد الاتهامات التي ألقيت في ساحة السلطانة نوربانو، تلك التهمة المتعلقة بأًصول السلطانة فبعض الروايات تشير إلى أن نوربانو ذات أصول يهودية، وأن أصولها اليهودية كانت السبب في إفساح الطريق أمام تغلغل النفوذ اليهودي داخل الدولة العثمانية خصوصا في قصر السلطان.

ويقال إن السلطانة نوربانو هي التي دفعت السلطان سليم الثاني إلى تعيين اليهودي إبراهيم كاسترو وزيرا للمالية وكان كاسترو هذا قد جاء مهاجرا إلى الدولة العثمانية مع خمسمائة يهودي في عهد السلطان سليمان القانوني وذلك عام ١٥٥٣، وكان كاسترو مسؤولا عن سك العملة في مصر، إذ كان الولاة العثمانيون في مصر يختارون شخصيات يهودية للقيام بالأعمال المالية ويمكننا أرجاع ذلك إلى الخبرات

الكبيرة التي كان يتمتع بها اليهود دون غيرهم، في الشؤون المالية والاقتصادية.

وعندما توفي السلطان سليم الثاني عام (١٥٧٤)، تولى عرش السلطنة العثمانية السلطان مراد الثالث(١٥٧٤- ١٥٩٥)، وفي عهده أصبحت السلطانة نوربانو المتحكمة في القصر بعد أن أصبحت السلطانة الأم واشتد التنافس بين الصدر الأعظم محمد صوقوللو واليهودي جوزيف ناسي، ولكن النتيجة حسمت لصالح ناسي بعد أن أعرض السلطان عن نصائح محمد صوقوللو ويمكننا أرجاع ذلك وفقا لبعض الروايات التاريخية إلى الدعم المعنوي الذي قدمته والدة السلطان نوربانو لجوزيف ناسي، إلا أن علامات الانهيار والضعف قد بدأت تظهر بعد اغتيال الصدر الأعظم محمد صوقوللو عام ١٥٧٩، إذ قامت قوات الانكشارية بالتمرد على السلطان مراد الثالث عام ١٥٨٩ فضلاً عن حدوث انتفاضات في الولايات العثمانية، في سوريا وترانسلفانيا وملدافيا وولاكيا.

وبين عامي (١٥٧٦ – ١٥٧٧) أمر السلطان مراد الثالث بنقل ألف من اليهود الأغنياء، من منطقة صفد في فلسطين، والمناطق التابعة لها مع عوائلهم وأموالهم إلى جزيرة قبرص، كما تم نقل اليهود من جزيرة رودس إلى قبرص كما أرسلت الأوامر نفسها في عام ١٥٧٧ ، إلى منطقتي المنصورة والقنيطرة في سوريا، وتعود فكرة نقل اليهود إلى جزيرة قبرص، إلى عهد السلطان سليم الثاني وكان وراءها كل من السلطانة نوربانو وجوزيف ناسي، وكان هذا الأمر يمثل باكورة العمل الصهيوني في الدولة العثمانية آنذاك، وظهر هذا التوجه واضحا عندما حاولت نوربانو المتأثرة بأفكار ناسي اقناع السلطان سليم الثاني، من أجل جمع يهود الدولة العثمانية في جزيرة قبرص وجعلها مستعمرة يهودية وذلك يعود به هذا المشروع، على ابناء جلدتها اليهود من فائدة مادية عظيمة لما تتمتع به جزيرة قبرص من موقع مميز، الذي من خلاله يمكن للتجار اليهود الاثرياء الاستفادة عن طريق التجارة مع جميع البلدان المجاورة في منطقة البحر المتوسط دون أي عائق إلا أن هذا المشروع لم يدخل حيز التنفيذ إلا في عهد السلطان مراد الثالث.

السلطانة صفية
الحكم على قاعدة الدم

لم تكن السلطانة نوربانو وحدها التي تمارس النفوذ على ولدها السلطان مراد الثالث، فقد شاركها في هذا النفوذ شخصية أخرى في الحرملك تلك الباش قادين صفية، زوج السلطان والمفضلة لديه والتي دخلت في صراع حقيقي ضد السلطانة الأم نوربانو وشقيقة السلطان السلطان أسمات على الإنفراد بزعامة الحرملك وتوجيه سياسة الدولة من خلف ستائر الحرملك، وقد سطرت اسمها كأقوى سلطانة والدة بعد أن انفردت بشؤون الحرملك وسيطرت على الدولة تماما في عصر ولدها السلطان محمد خان وسلكت السلطانة صفية كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لإحكام قبضتها على السلطة حتى ولو سارت في بحور الدم.

والباش قادين صفية هي في الأصل كانت بنتا رائعة الجمال من أسرة بافو التي تنتمي إلى جمهورية البندقية، وكان أبوها حاكما على جزيرة قورفو وأثناء نزهة بحرية مع بعض السيدات النبيلات، وهي في الرابعة عشرة من عمرها خطفها القراصنة ، وانتهى الحال بها لتباع إلى حرملك السلطان جارية رائعة الجمال، وهناك روايات تقال إن صفية تجمعها بالسلطانة الأم نوربانو علاقات نسب وقرابة، اعتمادا على بعض الروايات التاريخية التي تشير إلى أصول السلطانة نوربانو التي ترجع إلى البندقية وأن السلطانة نوربانو هي من جلبت صفية باتفاق مع أسرتها إلى بلاط الدولة العثمانية ودفعتها في طريق ابنها لتستمر في سيطرتها عليه.

إلا أن الرواية الرسمية المعتمدة تؤكد على أسر القراصنة لصفية وبيعها للحرملك السلطاني، وحين تولى السلطان مراد الثالث بهره جمالها فأعتقها وتزوجها وأنجب منها وارتفع مركزها في البروتوكول العثماني من جارية إلى قادين ثم إلى باش قادين، أي الزوجة الأولى، وتقول الدكتورة سعاد ماهر أستاذ الآثار الإسلامية في موسوعتها "مساجد مصر وأولياءها الصالحين" عن السلطانة صفية "إنها سليلة عائلة "يافو" بالبندقية، وإن والدها كان حاكما على جزيرة "كورفو"، وإنها أختطفت عند خروجها في رحلة بحرية وهى في الثالثة عشر من عمرها، وإن القراصنة باعوها في

القسطنطينية حيث الحقت بالقصور السلطانية فكانت على قدر كبير من الجمال فكانت موضع أهتمام أمراء القصور فتزوجها الأمير مراد بن السلطان سليم الثاني قبل تولية السلطة وكان عمره السادسة عشر، وعندما كان حاكما لمقاطعة أنجبت صفية الأمير محمد الذي تولى السلطنة فيما بعد.

واستغلت صفية ضعف شخصية زوجها السلطان مراد الثالث، فقد كان الأخير صاحب إرادة ضعيفة ، و قابلا للوقوع تحت مختلف التأثيرات ، لذا فمع أن الامور سارت سيرا حسناً طوال عهد صدارة صوقوللى محمد باشا إلا أنه ما أن توفى هذا الصدر الأعظم حتى ساءت إدارة الدولة بسبب تدخل والدة السلطان وكذلك تدخل بعض أصحاب المصالح و المنافع ، وبدأت فترة الركود و التوقف الفعلى في عهده، عاش السلطان مراد الثالث حياة منزوية و منعزلة في قصره طوال ٢١ سنة، وفى أواخر عهده بدأ بأداء صلاة الجمعة في جامع القصر، ومع أنه بقى ضمن دائرة الشرع إلا انه كان مغرما بالنساء، ويقال إن عدد الجواري التي دخل معهن في علاقات مشروعة يزيد على أربعين جارية وقد جاز عدد أولاده المئة، وقد عرف أنه لم يسلك طريقا غير مشروع لأنه كان في الوقت نفسه شاعراً صوفيا وله كتابان في التصوف تحت اسم "فتوحات الصيام" و"أسرار نامة".

انزواء السلطان مراد الثالث، مكن السلطانة صفية من أن تمد نفوذها سريعا في جنبات الحرملك ثم تتطلع برأسها في شؤون الدولة والإسهام في السياسة العثمانية بقدر ما تستطيع اقتناصه من نفوذ السلطانة الوالدة نوربانو، وعملت الباش قادين صفية، على أن تسير السياسة الخارجية العثمانية على نحو يخدم مصالح وطنها الأم جمهورية البندقية الإيطالية. وكان للسلطانة صفية نفوذ كبير في شئون الدولة العثمانية بوصفها زوجة السلطان مراد الثالث نافستها فيه أم السلطان "نوربانو" والعجيب أن هذه المرأة كانت حريصة على أن ينشغل ابنها السلطان بالجوارى مستغلة في ذلك شغفه بالنساء حتى تتمكن من الانفراد بالسيطرة على أمور الحكم. وإلى جانب الاثنتين كان لشقيقة السلطان "إسمات" نفوذ كبير خصوصا أن زوجها كان الرجل الثاني في الدولة بعد السلطان بوصفه الصدر العظم وهى وظيفة تعادل منصب رئيس الوزراء في زماننا،

وقد تدنت مكانة السلطان مراد الثالث إلى الحد الذي كان فيه لمسئولة الحريم السلطاني نفوذ كبير في إدارة أمور البلاط.

لكن وفاة السلطانة نوربانو في عام ١٥٨٣م وتقلص نفوذ السلطانة أسمات بعد مقتل زوجها الصدر الأعظم محمد باشا صوقوللو، لم يكن يعني تفرد السلطانة صفية بالحرملك، فقد ظهرت لها منافسة غير متوقعة تمثلت في الكايا "جافيد خاتون" وهي التي تدير شؤون الجواري الفاتنات في الحريم السلطاني، فاستغلت شغف السلطان مراد الثالث بالجواري الفتان من أجل السيطرة عليه ومن ثم السيطرة على الحرملك كله، لذلك قامت جافيد خاتون بالإكثار من شراء الجواري وإلحاقهن بالحرملك السلطاني بصورة مبالغ فيها حتى أن ذلك أدى إلى ارتفاع جنوني في أسعار الجواري في سوق النخاسة، وكانت "جافيد خاتون" تعمل على تعليم الجواري رقة المشاعر وخفة الدم ورشاقة العود والحيوية والعذوبة فضلا عن الجمال لإبهار السلطان.

مؤمرات جافيد خاتون جوبهت بكل حزم من قبل السلطانة صفية التي عملت كل ما في وسعها لتقليص نفوذ جافيد خاتون حتى نجحت في ذلك خصوصا بعد وفاة السلطان مراد الثالث سنة ١٥٩٥م، وتولي السلطانة صفية الإشراف الكامل على شؤون الدولة في عهد ابنها السلطان محمد الثالث في نفس العام، وقد أصبحت السلطانة الأم بحكم الأمر الواقع أحد المشاركين في إدارة الدولة العثمانية، بصفتها السلطانة الأم وهو المنصب الذي شغلته صفية بين أعوام ١٥٩٥ و١٦٠٣م.

أداء السلطانة صفية السياسي وحجمه كشفته الرسائل المتبادلة بين السلطانة وملكة إنجلترا إليزابيث الأولى، المكانة الدولية التي وصلتها السلطانة صفية فالرسائل تحمل صيغ تبجيل وتعظيم من إليزابيث الأولى للسلطانة صفية وهو ما يعد اعترافا دولي بمكانة السلطانة صفية، كما تعكس تلك الرسائل كيف لعبت المرأة دورا كبيرا في سياسات تلك العصور وكيف لعبت عملية تبادل النساء الرسائل دورا من أجل تأمين الدبلوماسية والتحالفات الاقتصادية والعسكرية.

لكن تبقى الملكة صفية الأكثر توحشا فتلك المرأة رغبة منها في استمرار نفوذها على الدولة، ما أن توفى زوجها السلطان مراد الثالث، فعندما دخل مراد في دور

الاحتضار، وبدأت الاستعدادات لإعداد جثمانه للدفن وإجراء مراسم العزاء في القاعة الكبرى لقصر السلطنة، أسرعت صفية إلى ولدها محمد خان تطلب منه سرعة الجلوس في صدر القاعة على مقعد العرش ليكون مستعداً لاستقبال المعزّين بصفته السلطان الجديد، وأطل محمد خان حوله فلم يجد أحداً من إخوته الثمانية عشر لمشاركته في تقبّل العزاء، وسأل أمه عن سر تخلفهم عن الحضور، فقالت له: لا يثورن قلقك، فأنت وحدك بصفتك السلطان الجديد ستقوم بواجب تقبّل العزاء في السلطان الراحل. أما إخوتك الباقون، فقد سبقوك إلى داخل الضريح ليكونوا في استقبال جثمان أبيهم عند الدفن.

ولم يكن محمد الثالث يدري أن إخوته الثمانية عشر غير الأشقاء قد سبقوه بالفعل إلى داخل الضريح قبيل شروق الشمس، إذ نزلوا جثثاً هامدة الواحد تلو الآخر مخنوقين، فقد كانت الملكة صفية قد دبّرت للأمر مع عدد من مماليكها ليكونوا في وقت واحد قد انفردوا بأبناء السلطان ليخنقوهم داخل غرفهم في سكون ويحملوهم في جنح الليل وينفّذوا أمر السلطانة بأن تسبق أجسادهم جثمان السلطان قبل إنزاله إلى الضريح!

ولما علم السلطان محمد الثالث بما حدث قالت له أمه: "لقد خلصتك منهم حتى لا ينازعك في السلطة أحد منهم، فتصبح وحدك السلطان دون منازع، ألا تعلم أن أباك السلطان مراد خان قد فعلها هو وزوجته اليهودية مع إخوته الخمسة محمد وسليمان ومصطفى وجهانكير وعبدالله حتى لا يزاحمه أحد في السلطة بعد وفاة أبيه السلطان سليم الثاني عام ١٥٧٤؟".

ولم يستغرب محمد الثالث مما فعلته أمه، فقد كان يعرف أنها تنتسب إلى عائلة "بافو" أحد دوقات البندقية الذين كانوا يخنقون أعداءهم ومنافسيهم داخل زنزانات قصر الدوقية ثم يلقون بجثثهم من فوق جسر التنهدات، حيث يغرقون سرّاً ولا يعرف أحد عنهم شيئاً.

وقد عرفت السلطانة صفية كيف تخرس ألسنة الناس بالعطايا والانعامات السلطانية عندما تساءلوا عمّن يتبوأ العرش بعد السلطان الراحل، ففي ذلك الصباح،

وقبل أن يوارى السلطان التراب، انتشر في العاصمة خبر تردد الناس في تصديقه يقول "أصبح محمد بن مراد صاحب العرش الوحيد باسم محمد الثالث، أما إخوته، فقد اختفوا بعد أن حاولوا قتل السلطان"، أما هؤلاء فقد ذكر أسماءهم كتاب "ألبوم العثمانيين" بقلم المؤرخ التركي "عبدالقادر ديديوجلو" وهم: سليم وبايزيد ومصطفى وعثمان وجيهانكير وعبدالله وعبدالرحمن وحسن وأحمد ويعقوب وعلمشاه ويوسف وحسين وكركود وعلي واسحق وعمر وعلاء الدين. والحق أن محمد الثالث لم يأمر بقتل إخوته، ولكنها إرادة وتدبير أمه صفية ليكون العرش لولدها وحده.

وأدرك السلطان محمد الثالث ما كان يعنيه جده سليمان القانوني حين قال: "إذا أراد الله خراب مملكة سلّط على ملوكها النساء"، وبرغم ذلك فقد وقع في الخطأ الذي وقع فيه جده، فاستسلم للنساء استسلام من ضرب العمى على بصره وبصيرته، فكان أيضاً ألعوبة بأيدي حريمه وحظاياه العديدات وبخاصة أمه صفية التي لم يكن يردّ لها طلباً. وعرفت هي كيف تستغل تعلق ابنها بها، واستسلامه لها، فجعلت تدس الدسائس في الخفاء لخدمة وطنها البندقية، والانتقام من أعدائها ومزاحميها، وأصبحت هي صاحبة الكلمة الأولى في القصر.

وعندما ثار الجنود الإنكشارية وهاجموا "طوبو قابي سراي" مطالبين بأن تدفع رواتبهم كاملة، وبأن تعاد قيمة النقود إلى ما كانت عليه قبل أن يخفض الصدر الأعظم قيمة الربع منها، أوفدت السلطانة صفية من لدنها رسولاً يقول لزعمائهم: "إن السلطان غاضب على وزيره الأكبر صاحب هذه الفكرة، ومولاكم يعدكم بأنه سيعيد إلى النقود قيمتها ويدفع لكم رواتبكم غير منقوصة، أما اليوم فإنه يدفع إليكم برأس وزيره المسؤول"، وقاد جنود الحرس الوزير المسكين وسلموه للإنكشارية فذبحوه مهللين: "نصر الله السلطان"، وهكذا تخلصت من الصدر الأعظم الذي حاول أن يحد من نفوذها.

وكان محمد الثالث مستسلما لوالدته التي ظل نفوذها في البلاط لا ينازع، وظلت تلك الداهية مسيطرة على ابنها محمد الثالث كما كانت مسيطرة على زوجها، واستمر السلطان ألعوبة في يديها كما كان أبوه مراد من قبل، وعندما حاولت أن تفعل ذلك

أيضاً مع حفيدها السلطان أحمد الذي تولى العرش بعد موت أبيه، رفض الانقياد لأهواء جدته، ووضع تحت تصرفها قصراً جميلاً على ضفاف البوسفور تقضي فيه بقية حياتها.

وبعيدا عن السياسة، فقد كان للباش قادين صفية عدة مشروعات خيرية دينية إسلامية، منها بناء مسجد ضخم في منطقة ايمينونو بأسطنبول وهو مسجد استغرق بناءه نصف قرن، ويوجد بدار الكتب المصرية مصحف محلى بالذهب مكتوب عليه أنه " وقف المرحومة صفية أم السلطان محمد خان في سنة ١٠٣٢ هـ".

وترتبط السلطانة صفية بالمصريين من خلال مسجد ضخم يحمل اسمها في منطقة القاهرة القديمة وتحديدا في شارع محمد علي، ويحمل اسم مسجد الست صفية، وهو المسجد الذي انشأه عثمان أغا عثمان دار السعادة مملوك السلطانة صفية، ثم امتلكته السلطانة صفية عقب وفاة منشئه، وهي في الحقيقة استولت عليه بدعوى أنه مملوكها ولم تعتقه وأمرت باستكماله ليحمل اسمها ويخلد ذكراها، واستكملته على يد إسماعيل أغا الناظر على الوقف، وكان الفراغ منه في المحرم سنه ١٠١٩هـ كما هو مسجل أعلى باب المسجد.

ويحمل هذا المسجد لوحة تذكارية تقول " أنشأت هذا الجامع المبارك المعمور بذكر الله تعالى" صاحبت " الخير الآدر. (يعني الحريم السلطاني) الشريفة والدة المرحوم مولانا السلطان محمد خان طاب ثراه على يد فخر الخواص المتقربين مولانا الناظر الشرعي على الوقف المذكور ، وكان الفراغ من هذا البناء المذكور في السابع والعشرين من شهر محرم من سنة تسع عشر وألف من الهجرة". (وذلك يوافق ٢١ أبريل ١٦١٠م)، وعينت السلطانة صفية للمسجد عالم زاهد وخطيب كريم الخلق يخطب فيه على منوال الشرع في الجمع والأعياد خطبة تناسب الأيام والفصول وليس له أن ينيب أحدا عنه بدون عزر شرعى وعينت فيه خدم منهم لحفظ المصاحف ومنهم لنظافة المسجد ومنهم للبخور ومنهم للإنارة ومنهم للتعمير ومنهم للزراعة ومنهم لتحفيظ القراءات ومنهم لقراءة القرآن والدعاء لها بطول العمر.

ومسجد السلطانة صفية وضع تصميمه على مثال الجوامع العثمانية في مدينة

استانبول، وهي الجوامع التي انتشرت في القاهرة فكان أولها سليمان باشا بالقلعة ثم سنان باشا ببولاق وهذا الجامع هو الثالث، أما عن الوصف المعماري للمسجد فيضم من الداخل قسم المساحة الداخلية (الصحن ومكان الصلاة)، ويشغل الصحن نصف الجامع وهو مربع الشكل ويتوسط كل ضلع من أضلاعه الثلاثة التي تطل على الميدان من النواحى الجنوبية و الشمالية والغربية المداخل الرئيسية الثلاثة، ويتوسط الصحن جزء مكشوف ينخفض عن باقى الصحن ويحيط بهذا الجزء المكشوف من أربع جهات رواق يتقدمه صف من أربع أعمدة يعلوها ثلاث عقود مدببة، كل ضلع ينقسم لخمس مربعات يغطيها قباب صغيرة، يغطي المربعات التي تلي المداخل الثلاث والمدخل المؤدى لبيت الصلاة أقبية تبدو من الخارج على هيئة قباب مربعة الأضلاع.

الجدران الداخلية الجنوبية والغربية والشمالية يتخللها أربع نوافذ مماثلة، أما الجدار الرابع في الجهة الشرقية الفاصل بين الصحن و بيت الصلاة فأهم ما يميزه المدخل الرئيسى وعلى جانبيه مدخلان يقعان في حنية عميقة يعلوها إطار مستطيل بداخله عقد مفصص ملئت بصف من الدلايات، يتوسط الحنية فتحة المدخل يعلوها عقد مكون من صنجات رخامية معشقة متبادلة الالوان ويعلو العقد مستطيل يحتوى على ثلاث صفوف من الكتابة النسخية يكتنف ضلعي المدخل الرئيسى تجويفان مماثلان، أما المدخلان الآخران فيشبهان المدخل الرئيسي إلا أنهما أصغر حجما يعلوهما إطار مستطيل خال من الزخرفة يعلوه عقد ثلاثى الفصوص، وهذه المداخل يغلق عليها بواسطة أبواب خشبية من نوع الحشوات المجمعة والمطعمة بالعاج، ويلاحظ وجود نافذتين على كل جانب من جوانب المدخل ملئت بالمصبعات المعدنية وبين كل نافذتين محراب قليل العمق، وفى الركن الجنوبى والشمالى باب صغير يؤدي إلى المئذنة.

أما بيت الصلاة فيشغل النصف الشرقى وهو مربع ويوجد به ٣ مداخل تصل بينه وبين الصحن، ويضم الضلع الغربى بالنسبة لبيت الصلاة ٤ حنيات إلى جانب المدخل تعلوه عقود موتورة يتوسطها نوافذ أربعة والهدف منها ومن الحنيات ثلاث للمداخل (انشاء طابق ثانى يضم ممر ضيق فوق هذه الحنيات يؤدي للمنصة الخشبية التي تعلو المساحة امام المدخل الرئيسى لبيت الصلاة). ويوجد على جانبى هذا الضلع مربعان،

الأول في الطرف الشمالى (ويتم الدخول إليه من بيت الصلاة عبر باب في الجدار الشمالي، ويشغل المربع غرفة مغطاه باقبية متقاطعة، أما المربع الآخر فتشغله المئذنة، ويتخلل الضلعين الشمالي والجنوبي أربع نوافذ كبيرة يعلوها عقود مصمتة مدببة يعلوها نافذتان معقودتان ملئتا بالزجاج الملون بالاضافة لوجود مدخلين بعقود موتورة أحداهما بالناحية الشمالية يؤدى إلى غرفة مقبية، والاخر بالناحية الجنوبية يؤدي لدرج الخاص بالطابق الثاني.

أما جدار القبلة، فيقع بالضلع الشرقى ويبرز عن الجدار الشرقي متخذا شكل الإيوان، يتوسطه المحراب وهو مجوف داخل مستطيل يعلوه عقد مدبب من صنجات متبادلة الألوان يقوم على عمودين مضلعين وقد غشى بفسيفساء رخامية بأشكال هندسية، كما كسيت كوشتى العقد ببلاط خزفية تحصر بينها دائرتان من الرخام المحفور حفر بارز، ويكتنف المحراب نافذتين تعلوهما نافذتان معقودتان ملئتا بالزجاج المعشق. أما المنبر الرخامي، فيقوم على قاعدة مستطيلة يحيط بها حجاب من زخرفة رخامية، ويصعد إلى مجلس الخطيب عن طريق درج يتقدمه فتحة الباب من دلفتان من قطعة واحدة من الرخام ويكتنف الباب عمودان وتعلو فتحة الباب مساحة مستطيلة خالية من الزخرفة ويتوجها من أعلى صف من الدلايات تعلوها شرفات محفورة بها زخارف نباتية بارزة، ويعلو ريشتا المنبر سياج من الرخام المفرغ قوام زخرفته أشكال هندسية وزخارف الباروك والركوك التي انتشرت في العصر العثمانى، ويحيط بمجلس الخطيب أربع أعمدة رخامية يرتكز عليها أربع عقود يعلوها شكل مخروطي يشبه القلم الرصاص من النحاس له قاعده مكتوب عليها بخط النسخ الجميل "بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر"، ويقع أسفل المجلس بابا الروضة.

وغطى بيت الصلاة بقبه كبيرة على مساحة سداسية ويحيط بقباب صغيرة على مساحات غير منتظمة، وتعد القبة الرئيسية للمسجد من أندر القباب العثمانية الموجودة في مصر حاليا، وهي مقامة على أعمدة جرانيتية وضع فوقها المعمار ستة عقود واسعة مدببة الشكل، وأقيم فوق العمودين الشمالي والجنوبي من بيت الصلاة طبلة

خشبية وذلك لكي يتمكن المهندس مصمم المسجد من تحويل مشار العقود ليتحقق لـه الشكل الدائرى لإقامة القبة، ونتج عن هذا أن قمه المثلثات الكروية في منطقة الانتقال انقسمت بدورها لمثلثين منتجة عنصر معمارى جديد، فقد أصبحت القبة على شكل نصف كروي ويحيط بدائرها كوابيل خشبية يرتكز عليها ممر لـه درابزين من خشب الخرط، وفتحت أربع وعشرون نافذة باستدارة القبة ويعلوهم صف من فتحات مستديرة، أما باقي المساحات فتغطيها قباب صغيرة.

يلاحظ أن المعماري المشرف على بناء المسجد عمل عند تقسيم المساحة التي تكتنف القبة الرئيسية من الناحتين الشمالية والجنوبية؛ أقام عقدين في كل ناحية أحداهما سفلى يرتكز من ناحية على العمود الجرانيتى الضخم وعلى الجدار من الناحية الآخرى أما العقد العلوى الذي يبرز عن العقد الأسفل فقد جعله المعمار يرتكز على كوشتي العقدين الأوسطين للقبة الرئيسية من الناحية الأخرى، واستخدموا دعائم ساندة لتحمل ضغط ثقل القبة الرئيسية.

واستخدم طرق وحيل معمارية في بناء مسجد السلطانة صفية اعتمدت عند بناء المساجد في بقية العصر العثماني في مصر، كاستخدام كوابيل حجرية بارزة مجموعة من العقود المختلفة السمك كذلك اختلف احجام المثلثات الكروية، تمكن المهندس المشرف على بناء المسجد من خلال هذه الحيل المعمارية أن يقيم قبتين صغيرتين في الناحية الجنوبية والشمالية، وفي الناحية الغربية أقام قبتين متماثلتين تحصران مساحة مستطيلة غطيت بقبو برميلي، أما الناحية الشرقية فهناك قبة عالية مستديرة تغطى المساحة التي تتقدم المحراب، وجميع مناطق الانتقال في قباب بيت الصلاة بما فيها القبة الكبيرة تتكون من مثلثات كروية.

أما دكة المبلغ؛ فتقع فوق الباب الأوسط في مواجهة المحراب بالجهه الغربية من بيت الصلاة ، وهى محمولة على عمودين من الرخام ولها درابزين من الخشب الخرط، أما المئذنة فتشغل المربع بوسط الوجهة الجنوبية في الحد الفاصل بين الصحن وبيت الصلاة والدخول إليها من باب صغير بالركن الجنوبى الشرقى للصحن، ودرج المئذنة حلزونى تضيئة فتحتان على شكل المزاغل تطلان على الناحية الجنوبية

للجامع، وتتكون المئذنة من طابقين يعلوان القاعدة يبلغ ارتفاعهما ٣٣م، الأول: يتحول مربع القاعدة عن طريق مثلثات مشطوفة لشكل اسطوانى متعدد الاضلاع تتخله حنيات ذات حافات مشطوفة ويتنهى الطابق بشرفة تستند لخمس مجموعات من المقرنصات والدلايات، أما الطابق الثاني فهو اسطوانى الشكل متعدد الأضلاع تتخله حنيات مشطوفه ويتوج هذا الطابق شكل مخروطى متعدد الاضلاع يشبه القلم الرصاص أو مسله ثم تنتهى المئذنة بحلية نحاسى.

وتقع الواجهة الخارجية التي يتوسطها المدخل الشمالي للمسجد وفيه البوابة الرئيسية على شارع الداودية، ومدخل البوابة متسع يعلو عقد نصف دائرى ذو صنجات معشقة ويتوج كتلة المدخل عقد ثلاثى الفصوص يحتوى حجرة من الجانبين على المقرنصات ودلايات، ويحيط بالعقد والمدخل إطار من زخرفة الميمات ويكتنفه مصطبتان.

أما الواجهة الجنوبية فتنقسم إلى جزئين رئيسين أحداهما الشرقى والآخر الغربى، أما الجزء الشرقي الذي يتعامد فيه جدار واجهة القبلة في هذه الناحية مع ضلع جدار هذه الواجهة وتبرز عنه قاعدة المئذنة ووتكون هذه الواجهة من طابقين الأول عبارة عن قاعدة تبرز للخارج وتنتهى في أعلاها بزخرفة قالبية على شكل تروس يتوسطها شطف بسيط ويعلو الزخارف المعمارية شطف آخر يبدأ منه الطابق الثاني، ويتوسط الزاوية الجنوبية الشرقية عمود مدمج في الجدار وهى ظاهرة تكرر في جميع الزوايا القائمة للواجهات فيما عدا أركان المدخل، ويتخلل هذا الجزء أربع نوافذ متماثلة ويعلو كل منها عقد مدبب تحيطه صنجات حجرية والنصف الأسفل من فتحات هذه النوافذ تشغله حاليا مصبعات معدنية حديثة وينتهى هذا الجزء من الطابق الأول بزخرفة قالبية، ويبدأ الطابق الثاني الذي نجد به نافذتين مماثلتين يعلو كل منهما عقد مدبب وتشغل فتحتى النافذتين من الخارج أسلاك حديثة وينتهى الطابق في أعلاه بشرفات على شكل عرائس.

أما الجزء الغربى، فيضم المدخل الجنوبى الذي يفضى إلى صحن المسجد ويتكون أيضا من طابقين الأول يضم المدخل الجنوبى للمسجد تكتنفه من الجانبين

نافذتين في كل جانب ويتقدم الممدخل درجات السلالم ويعد من السمات المميزة لهذا الجامع نظرا لمسقطه النصف الدائرى ويتكون من ١٨ درجة، والمدخل يتكون من كتلة مستطيلة يحيطه إطار مستطيل به زخارف قالبية تتخلها دزائر معقودة على شكل زخرفة الميمات أعلى جزء حجرى مزخرف بصنجات معشقة والمدخل عبارة عن عقد كبير ثلاثى الفصوص ويضم حجر المدخل الفتحه المؤدية إلى داخل الجامع ونجد على الجانبين مصطبتان صغيرتين.

اما الباب فهو دلفتين من الخشب من نوع الحشوات المجمعة ويلاحظ انه يعلو فتحه المدخل عقد موتور ذو صنجات معشقة تعلوه نافذه صغيرة مستطيلة سدت حديثا، أما النوافذ الأربع المتماثلة التي تحيط بفتحة المدخل وتملأ فتحات النوافذ بمصبعات نحاسية ويعول هذه النوافذ أربع أخرى أقل حجما في صف واحد تتوج كل منها عقود موتورة ذات صنجات إشعاعية وتعلوهم زخرفة قالبية ثم الشرفات كذلك يرى بالنسبة لهذا القسم خمسة قباب صغيرة.

وتتماثل الواجهه الغربية إلى حد كبير مع الجزء الغربى من الواجهة الجنوبية ويتوسطها المدخل الغربى للجامع الذي يماثل المدخل الجنوي، وتعد الواجهه الشمالية مماثلة للواجهة الجنوبية إلا أنها فقدت الدرج المؤدى للمدخل وجزئها السفلى يحتوى على نافذة تملؤها مصبعات نحاسية، أما الطابق العلوى فتوجد به ثلاث نوافذ مماثلة وتمتد في صف واحد وينتهى هذا الجزء بقبة صغيرة مقامة على رقبه مثمنة بها ثمانى نوافذ اراد بها المعماري أن تضفى قيمة جمالية .

وتختلف الواجهة الشرقية عن الواجهات الثلاثة الآخرى فهي غير منتظمة الشكل نتيجة لبروز جدار المحراب، وإذا نظرنا إلى الضلع الشمالي الشرقي وجدناه يتكون من طابقين الطابق الأول يوجد به نافذتان يعلوهما عتب أما الطابق الثاني ففيه نافذتين كل منهما معقودتين بعقد مدبب وتتوسطها من أعلى عقد ثم زخرفة قالبية تفصل بين الطابقين أما الشرفات لا وجود لها هنا فقد تساقطت، وينكسر الجدار في اتجاه الشرق حيث نجد نافذة تطل على الناحية الشمالية يعلوها نافذة آخرى.

أما الميضأة، والتي تعد جزء لا يتجزأ من طبيعة المساجد فتقع إلى الجنوب من

الجامع وهى مستطيلة والمدخل يواجه المدخل الجنوبى للجامع وباستثناء جزء من الضلع الشمالى و الغربى فكل مبانيها جديدة، أما السور الخارجي فلم يتبق منه إلا البوابة الخارجية المطلة على شارع الدوادية.

نائبات السلطان
كوسم سلطان-خديجة تارخان

حاول السلطان أحمد الأول (تولي الحكم بين ١٦٠٣-١٦١٧م) إبعاد الحرملك عن شؤون السلطة بعد أن أقصى جدته السلطانة الأم صفية ذات الشخصية القوية، ورفض تدخل السلطانات في شؤون الحكم، وهو ما تحقق لا بأفعاله ولكن لظروف خارجه عن إرادة الجميع سواء السلطان أو الحرملك فقد جاء طغيان فرق الإنكشارية على الدولة وسيطرتهم على أمور الحكم وتدخلوا بعنف في شؤون الحكم وأجبروا السلطان على الخضوع لرغباتهم ونزواتهم فأصبح السلطان معهم حبيس قفص لا يستطيع أن يأمر بما يخالف زعماء الإنكشارية، وهو وضع قلص من نفوذ السلطان ومعه سلطان الحرملك الذي تقلص إلى أبعد الحدود، في فترة الفوضى التي عمت الدولة العثمانية.

والإنكشارية (من التركية العثمانية ينيجري، التي تعني الجنود الجدد) وهي الفرق الخاصة وعماد الجيش العثماني نشأت مع بدايات الدولة العثمانية وكان فلسفة هذه الفرق العسكرية برمجة أسرى الحروب من الغلمان والشباب وإحداث قطيعة بينهم وبين أصولهم، وتربيتهم تربية إسلامية، على أن يكون السلطان والدهم الروحي، وأن تكون الحرب صنعتهم الوحيدة، وتطور أسلوب جمع أفراد الانكشارية لدى سلاطين بني عثمان لاحقاً، إذ باتوا يؤخذون من الأسر المسيحية وفق مبدأ التجنيد الذي سمي بـ"الدوشرمه" (أو الدويشرمه) في عملية جمع دورية تجري كل سنة أو ثلاث أو أربع أو خمس، وتجلب عناصر انكشارية جديدة يقارب عددهم ٨ إلى ١٢ ألف فرد.

وقد بدأت ظاهرة تدخل الإنكشارية في سياسة الدولة منذ عهد مبكر في تاريخ الدولة العثمانية، غير أن هذا التدخل لم يكن له تأثير في عهد سلاطين الدولة العظام؛ أمثال محمد الفاتح وسليم الأول وسليمان القانوني لأن قوتهم كانت تكبح جماح هؤلاء الإنكشاريين، حتى إذا بدأت الدولة في الضعف والانكماش بدأ نفوذ الإنكشاريين في الظهو، فكانوا يعزلون السلاطين ويقتلون بعضهم، ولم يكن سلاطين الدولة في فترة ضعفها يملكون دفع هذه الشرور أو الوقوف في وجهها، ولم يستطع السلطان أحمد الوقوف أمام تعاظم قوة سلطان فرق الإنكشارية التي اعتادت السلب والنهب في

عاصمة الدولة العثمانية بلا رقيب ولا حسيب.

ورحل السلطان أحمد عن الدنيا وهو في سن الثامنة والعشرين، وتولى بعده شقيقه مصطفى الأول سنة ١٦١٧م الذي وصل إلى الحكم بسبب شخصية قوية في الحرملك وهي كوسم سلطان المعروفة باسم "ماه بيكر سلطان"، زوجة السلطان المتوفى أحمد الأول التي تزعمت الحرملك في ذلك الوقت.

وكوسم سلطان هي أبنة قسيس قدمت هدية إلى السلطان أحمد فتزوجها وكانت تعد سيدة ذات خيرات كثيرة فقد كانت تؤدى ديون المعسرين وأنفقت على زواج كثير من الفتيات الفقيرات و الجوارى ولها جامع في "أسكودار" مشهور باسم "الجامع ذو الخزف" مزين بأفخر أنواع البورسلين والخزف ويعتبر تحفة فنية رائعة وبنت أيضا حماماً و مدرسة للصبيان و سبيل و عين ماء ولها وقفية مؤرخة بعام ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠ م أوقفت عليها أموالا كثيرة للأنفاق على الفقراء الذين يقيمون على الطريق إلى مكة المكرمة وكانت هذه الاموال ترسل كل عام مع صرة كما أن لها خيرات كثيرة في مكة المكرمة والمدينة ولها خان كبير معروف باسم خان الوالدة أوقفته للانفاق على "الجامع ذو الخزف".

رفضت السلطانة كوسم أن يلي السلطنة بعد الرحيل السلطان أحمد ولده الأمير عثمان خوفا على ضياع حظوظ ابنها الأمير مراد، ففضلت أن تستعين بشقيق زوجها مصطفى الذي لم يكن راغبا في ارتقاء العرش ، بل كان يرغب في البقاء بعيداً عنه ، وحسب المصادر فإن رجال الدولة و العلم لم يبايعوه عن اقتناع و رضا نفس بسبب خفة عقله وطيش قرارته، وكانت الدولى تساس في عهده من قبل السلطانة كوسم التي استخدمت من وراء ستار لتسيير أمور الدولة أغا دار السعادة مصطفى أغا، وشيخ الإسلام أسعد أفندي والقائم مقام صوفي محمد باشا، وقد أجبر هؤلاء من قبل أرباب الإنكشارية على استصدار فتوى بضرورة عزل السلطان مصطفى الأول، فعزل في ٢٦ فبراير ١٦١٨، ولم يكن قد مضى على وسلطنته ثلاثة أشهر وحبس بإحدى غرف القصر العثماني، وتم تعيين السلطان عثمان الثاني أكبر ابناء السلطان أحمد، وهو أمر أشعل غضب السلطان كوسم، التي بدأت في العمل على الإطاحة بالسلطان عثمان،

الذي عمل من جانبه على تقليص نفوذ زوجة والده.

ورغم صغر سن السلطان عثمان الثاني (تولى الحكم وهو في الثالثة عشر من عمره) إلا أنه أمتلك مشروع إصلاحي بهدف تقليص نفوذ الإنكشارية من خلال تدريب فرق عسكرية جديدة في مصر والشام والأناضول لاستخدامها في القضاء على تمرد الإنكشارية، ومن ناحية أقصى السلطانة كوسم عن أمور الحكم، لذلك إلتقت رغبة السلطانة مع قيادات الإنكشارية في ضرورة التخلص من السلطان عثمان الثاني ودبروا مؤامرة لاغتياله.

وافتعل جنود الإنكشارية أزمة طالبوا خلالها السلطان بتسليمهم الصدر الأعظم "دولار باشا" و"سليمان أغا"، وهو مما تم بالفعل فقطعوهما إربا، وتمادوا في غيهم وطالبوا بعزل السلطان بعد اقتحامهم "طوبو قابي سراي" القصر العثماني ومقر السلطنة، وطالبوا بإعادة السلطان مصطفى من جديد، فقال لهم العلماء: "أيها الرفقاء، إن السلطان أعطى لكم ما طلبتموه و إن السلطان مصطفى مسلوب العقل لا تجوز مبايعته"، فلم يتموا كلامهم إلا وقد هجموا عليهم وأكرهوهم على المبايعة، وهجموا على جناح السلطان عثمان الثاني، وقبضوا عليه من بين جواريه و زوجاته وقادوه قهراً و بعد إجبارهم رجال الدولة بإتمام البيعة للسلطان مصطفى بالقوة، أحضر السلطان "عثمان الثاني" إلى جامع "أورطة جامع" مع سبه وشتمه وحاولوا خنقه بالحبل تنفيذا لأوامر الصدر الأعظم "داوود باشا" المعروف بـ"قارا باشا"، لكنهم فضلوا شنقه خارج الجامع فاقتادوا عثمان الثاني إلى القلعة المعروفة بذات السبع قباب، وهناك قتل أول سلطان عثماني على يد الإنكشارية في التاريخ وهو الحدث الذي ترك أثاره على تاريخ الدولة العثمانية كله، وبذلك نفذت السلطانة كوسم انتقامها بالتخلص من السلطان عثمان وإعادة تنصيب السلطان مصطفى الألعوبة من جديد، وكانت تريد أن تكون فترة سلطنة مصطفى الثانية مجرد فترة إنتقالية حتى يبلغ ابنها مراد بن السلطان أحمد مبلغ الرجال ويلي السلطنة.

لكن عودة السلطان مصطفى إلى الحكم مرة أخرى أدت إلى حالة من عدم الاستقرار الداخلي في الدولة وسادت الفوضى وعدم الأمن و السكينة مدة ثمانية عشر

شهراً متوالية، حتى إذا شعر العموم بما وراء هذه الفوضى من الدمار و الخراب وشبع الانكشارية نهباً وسلباً وقتلاً في نفوس الأهالي وأموالهم عينوا من يدعى "كمانكش على باشا" الذي يعني اسمه "الماهر الحاذق" صدرا أعظم لتوسمهم فيه الخبرة و الاستعداد، فطلب بضرورة عزل السلطان مصطفى لضعف عزيمته ووهن قواه العقلية فعزلوه وعينوا السلطان مراد الرابع بأوامر من السلطانة كوسم.

عندما تولى السلطان مراد الرابع أمور الدولة العثمانية كان يبلغ من العمر ١١ عاما، لذلك أصبحت أم السلطانة كوسم هي الوصية عليه طوال السنوات الثماني الأولى من سلطنته (١٦٢٣-١٦٣٢م)، وهى المرحلة التي كان فيها السلطان مراد الرابع سلطانا بالاسم فقط بينما كانت والدته السلطانة كوسم تدير الدولة بالاستعانة بكبار رجال الدولة كالصدر الأعظم وشيخ الإسلام وغيرهم، جاء ذلك في وقت ركب الإنكشاريين الغرور، وتجاوزوا حدودهم حتى أن رؤساؤهم من أعوات الإنكشارية وأوجاق جورباجيلاري، بدءوا يدخلون إلى مجلس السلطان و يقتلون رجاله، وكانت الرشوة و سوء استغلال المناصب قد شاع و انتشر انتشاراً كبيراً ، كما كانت خزانة الدولة خاوية، حتى لم يكن في استطاعة الدولة توزيع المنح بمناسبة جلوس السلطان على العرش فاضطروا إلى صهر الاشياء المصنوعة من الذهب والفضة في مدرسة "الأندرون" وإرسالها إلى دار سك النقود في محاولة لتوزيع هذه الأعطية على الجنود.هذا في الداخل، أما على المستوى الدولي فإلحقت العديد من الهزائم بالدولة العثمانية خصوصا في الجبهة الإيرانية بعد أن نجح عباس شاه الدولة الصفوية في دخول بغداد والسيطرة على معظم بلاد العراق، فضلا عن تقدم القوات النمساوية داخل الأراضي العثمانية في البلقان.

أمام فتن الداخل والخارج تقدم السلطان مراد الرابع لمباشرة سلطاته، وانتهت بذلك فترة نيابة السلطانة "كوسم" التي دامت نحو تسع سنوات، وأصبح مراد الرابع طليق اليد في إدارة شئون الدولة، بعد أن ضرب بيد من حديد على الثائرين، وقتل كل من ثبت أن له علاقة بالفتنة، فسكنت الثورة واستقرت الأوضاع، وبدأ السلطان في اتخاذ الإجراءات التي تعيد النظام إلى الدولة؛ حتى يفرغ لاستعادة ما فقدته الدولة من

أراضيها.

لم يعن هذا اختفاء السلطانة الأم كوسم عن الأضواء فقد ظلت تسيطر على أمور الحرملك بصورة مطلقة، وكانت تدس أنفها بين الحين والآخر في أمور الدولة وتنفيذ مؤامرات، فعندما قام السلطان بقتل قاضي إزنك بسبب شائعات حول أخذه الرشوة واستغلال منصبه بصورة سيئة، كتب شيخ الإسلام "أخي زاده حسين أفندي" تذكرة يعرب فيها عن أسفه على هذا الأمر، وأرسلها إلى السلطانة الوالدة كوسم وكتب فيها "حاولي إبعاده [أيّ السلطان مراد] عما يجلب عليه الدعاء، ونأمل أن تنصحيه لكي يحصل على دعاء الخير من زمرة العلماء، وأن يبدي السلطان التوقير لهذه الزمرة التي أحترمها أجداده". ولكن السلطانة كوسم لم يعجبها مضمون الرسالة، فقامت بإيصال هذه الرسالة بشكل مشوه للسلطان و أوغرت قلبه ضد شيخ الإسلام فقام السلطان بإعدام شيخ الإسلام بتهمة التحضير لإعلان العصيان، وكان شيخ الإسلام هذا عالماً جريئاً في الحق ، وسبق أن عارض مبدأ قتل الأخوة، وذكر رأيه هذا بصراحة للسلطان مراد نفسه.

ولعبت السلطانة كوسم دورا حاسما بحماية نسل آل عثمان من الإنقراض فقد كاد بطش السلطان مراد الرابع واستبداده وميله إلى سفك الدماء يقضي على ذرية آل عثمان من الرجال، وكانت هناك عادة سيئة يقوم بها سلاطين آل عثمان منذ عهد السلطان بايزيد الأول وهي أن يقدم كل سلطان جديد على جريمة قتل إخوته الذكور بعد توليه السلطة، وكان هذا السلطان قد استصدر فتوى تجيز هذا القتل على أسباب المنافسة على الحكم. فلما ولي السلطان مراد الرابع الحكم استمر في تطبيق هذه العادة المخزية؛ فقتل أخاه وولي عهده بايزيد، وكان في الثالثة والعشرين من عمره، وقتل أخاه سليمان، ودُفن الشقيقان في مقبرة أبيهما السلطان أحمد، ثم لم يلبث مراد الرابع أن أمر بقتل أخيه الثالث "قاسم"، ولم يبق من إخوته الذكور سوى إبراهيم الذي أصبح ولياً للعهد بعد قتل أخيه القاسم. وشاء القدر أنه كلما ولد ابن للسلطان مراد الرابع توفي بعد فترة، ولم يعش له أي أمير من أولاده حتى يجعله وليًّا، وبلغت الحماقة بمراد الرابع أنه عزم على قتل أخيه إبراهيم، لكن والدته السلطانة كوسم منعته حتى لا

تنقرض سلسلة سلاطين آل عثمان، وهكذا نجا إبراهيم من القتل، وأصبح الوحيد من آل عثمان الذي بقي على قيد الحياة، ولو قدر له أن يموت لانقطع النسل العثماني من جهة الرجال.

على كل حال جاءت وفاة السلطان مراد الرابع المفاجأة في سنة ١٦٤٠م وهو فر ريعان شبابه لم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره، لتضع حدا لذلك الاستقرار والعظمة التي اصبغها على الدولة العثمانية بعد أن هزم اعداء الخارج والداخل وأعاد هيبة الدولة العثمانية في العالم من جديد، وتولى السلطنة بعده أخوه إبراهيم السلطنة، والذي كان مسجونا آنذاك، وعندما اندفعت الحاشية المالكة لتهنئ السلطان الجديد، ظن أنهم يريدون قتله وأنها مكيدة من أخيه لاختبار ولائه، فرفض المُلك وأعرض عنهم وقال لهم بأنه يفضل السجن ولم يصدقهم حتى قابلته أمه السلطانة كوسم ومعها جثة السلطان مراد، فتيقن من الخبر ورضي أن يتولى سدة الخلافة، وتقلد سيف عثمان بن أرطغل في مسجد أبي أيوب الأنصاري، وكان مما خطب أنه قال: "الحمدلله اللهم جعلت عبداً ضعيفاً مثلي لائقاً لهذا المقام اللهم أصلح وأحسن حال شعبي مدة حكمي".

إلا أن السلطان إبراهيم لم يهنأ بالسلطنة كثيرا وحاول السلطان إبراهيم أن يقمع الفتنة، ويتخلص من زعماء الإنكشارية بعد أن علا صوتهم، وازداد تدخلهم في شئون الدولة، وتركوا مهمتهم الأصلية في الدفاع عن الدولة ومهاجمة أعدائها إلى التذمر وانتقاض أعمال السلطان، والقيام بالسلب والنهب، وعندما علم زعماء الإنكشارية بعزم السلطان، تحركوا سريعًا وأعلنوا ثورتهم، وعاونهم فيها شيخ الإسلام "عبد الرحيم أفندي" وبعض العلماء، وكانت السلطانة الوالدة "كوسم" تقف وراء الثورة، واتفق الجميع على عزل السلطان وتولية ابنه "محمد الرابع"، ولم يكن قد أتم السابعة من عمره، ووقعت هذه الثورة في أغسطس سنة ١٦٤٨م، وتحقق لها خلع سلطان غير قدير إلى حد كبير، ولا يصلح لتولي مسئولية دولة عظيمة كالدولة العثمانية، غير أن وجوده كان سيمنع –على الأقل- كثيرًا من التصرفات السيئة إذا ما قورن بالنتائج السيئة التي ستترتب على جلوس طفل صغير على عرش دولة كبيرة. وبعد عشرة أيام من عزله قرر العصاة -الذين قاموا بهذه الفتنة- قتله حين تنادى بعض رجال الدولة

بضرورة عودته، لكن ذلك لم يكن في صالحهم، وكان عمر السلطان حين قتل خنقًا قد بلغ الثالثة والثلاثين، ودُفن في قبره الموجود في رواق جامع "آيا صوفيا" إلى جانب عمه "مصطفى الأول".

بمقتل السلطان مصطفى تم تعيين ولده محمد سلطانا على البلاد تحت اسم السلطان محمد الرابع، الذي لم يكن قد جاوز السابعة من عمره ولما كان صغيرًا فقد تولت جدته السلطانة الأم "كوسم" نيابة السلطنة، وكانت هذه هي المرة الأول تصبح امرأة نائبة السلطان، وأصبحت مقاليد الأمور في يديها، واستمرت فترة نيابتها ثلاث سنوات، ساءت فيها أحوال الدولة وازدادت سوءًا على سوء، واستبد الإنكشارية بالحكم، وسيطروا على شئون الدولة، وتدخلوا في تصريف أمورها، ولم يعد لمؤسسات الدولة معهم حول ولا قوة، وقد أطلق المؤرخون على هذه الفترة "سلطنة الأغوات"/ فلم يكن بإمكان السلطانة كوسم أو غيرها الوقوف أمام طغيان الإنكشارية.

وتوفيت السلطانة الجدة كوسم سلطانة بعد ثلاث سنوات من نيابتها في عام ١٦٥١م، بعد أن لعبت دورا رئيسيا في تسير السياسية الداخلية والخارجية للدولة العثمانية وكانت رقما اساسيا في معادلة السلطة دخل القصر العثماني لسنوات طوال، وصلت خلالها إلى ذروة القوة واستطاعت في أحيان أ تصل إلى مركز السلطة الأول في البلاد ولم يكن يعكر صفو نفوذها إلا قيادات الفرق الإنكشارية التي طغى سلطانها في تلك الفترة المضطربة من عمر الدولة العثمانية.

عند وفاة السلطانة كوسم لم يكن محمد الرابع قد بلغ السن التي تمكنه من مباشرة سلطاته وتولي زمام الأمور، فتولت أمه السلطانة خديجة تارخان نيابة السلطنة، وكانت شابة في الرابعة والعشرين، وترجع أصول السلكانة خديجة إلى أوكرانيا عندما أثرت من قبل قبائل التتار وبيعت في أسواق العبيد، وعندما كانت في الثانية عشر من عمرها أرسلت إلأى القصر السلطاني، وربما تكون السلطانة الأم كوسم هي من قدمتها إلى السلطان إبراهيم حيث أصبحت محظيته المفضلة وأنجبت له ابنه ولي العهد والسلطان من بعده محمد الرابع، وعندما قتل السلطان إبراهيم، وتولى السلطان محمد نشب صراع على لقب السلطانة الأم الذي كان مفترضا أن يذهب إلى السلطانة خديجة

تارخان باعتبارها أم السلطان، إلا أن السلطانة الجدة كوسم رفضت هذا الأمر تماما، وقررت أن تحتفظ بلقب السلطانة الأم بحجة أن خديجة تارخان صغيرة لم يتجاوز عمرها الحادية والعشرين، وهو ما اشعل الصراع بين السلطانتين وانحاز رئيس الأغوات والصدر الأعظم لخديجة تارخان فيما أيدت فرق الإنكشارية السلطانة كوسم، وخططت السلطانة كوسم للإطاحة بالسلطان الطفل محمد الرابع للتخلص من نفوذ والدته خديجة تارخان، وبدأت بالفعل في البحث عن أمير عثماني صغير السن لتعينه مكان السلطان محمد، وهو ما علمت به السلطانة خديجة تارخان التي بدأت تعمل بمساعدة رئيس الأغوات على التخلص من عدوتها السلطانة كوسم، ووفقا لبعض الروايات التاريخية فقد نجحت السلطانة خديجة في التخلص من السلطانة الأم كوسم عن طريق السم، بعد ثلاث سنوات من الصراع على السلطة، بذلك خلى الجو للسلطانة خديجة وتولت منصب السلطانة الام إضافة لمنصب نيابة السلطنة.

اتصفت السلطانة خديجة تارخان على صغرها برجاحة العقل واتزان الرأي، ذات رأي وتدبير، تحرص على مصالح الدولة العليا التي أصبحت تعصف بها أهواء الإنكشارية، ولذا شغلت نفسها بالبحث عن الرجال الأكفاء الذين يأخذون بيد الدولة، ويعيدون إليها هيبتها، وكانت تأمل في أن تجد صدرًا أعظم قديرًا يعتمد عليه السلطان في جلائل الأعمال، حيث توالى على هذا المنصب كثير من رجال الدولة الذين عجزوا عن الخروج بدولتهم من محنتها الأليمة، ورافقت ابنها السلطان إلى الاجتماعات الهامة وتحدث في عدة مناسبات من وراء ستائر مكان لها الجلوس. بسبب افتقارها إلى الخبرة، تعتمد على تورهان أعضاء آخرين في الحكومة لتقديم المشورة لها بشأن مسألة سياسية.

وجدت السلطانة الشابة ضالتها المنشودة بعد خمس سنوات من البحث الدءوب في محمد باشا كوبريللي، وهو من أصل ألباني، قوى الشكيمة، ورجل دولة من الطراز الأول، فاشترط لنفسه قبل أن يتولى هذا المنصب الرفيع أن يكون مطلق اليد في مباشرة سلطاته وألا تُغلّ يده، فقبلت السلطانة هذا الشرط؛ حرصًا على مصالح الدولة، ورغبة في أن يعود النظام والهدوء إلى مؤسسات الدولة وبلبيبا الخاضعة للحكم

العثماني كانت تعم الفوضى بعهد الداي عثمان الساقزلي إلى أن نجح أمر حامية طرابلس أحمد القرمانالي وهو ذو أصول لعائلة قادمة من قرمان بالانقلاب والاستيلاء علي طرابلس الغرب ليؤسس حكم الأسرة القرمانلية أما خارج أسوار مدينة طرابلس فكانت السيطرة فيها لرجال البادية وكان الحاكم الشهير عبد الرحمن الجبالي سيد روحة بن عبد الله بن عبد الهادي بن عوكل بن عبيد بن محارب بن عقار الشريف أولاد سالم وله معارك شهيرة مع بن جميل حاكم فزان وسيف النصر الأول والمرامير وكانت تخضع له العربان بالبادية من ساحل الأحامد إلى الجبل الأخضر ومقره قصر الجبالي بسرت ومدحه العياشي في رحلة العطش(ماء الموائد ١٠٥٦ \١٠٦٤) هجرية بأن قال قهر الاعراب وتوود إليه الاتراك وعم الأمان لطرق القوافل إلى دول جنوب الصحراء والسودان وكان سببا لحقد الجميع عليه.

واستمرت السلطانة خديجة تلي نيابة السلطنة حتى سبتمبر ١٦٥٦م، حتى انتهت نيابة السلطانة الوالدة التي استمرت خمس سنوات، وتولى ابنها محمد الرابع شئون الحكم، وهو في الخامسة عشرة من عمره، وتوارت هي إلى الظل وهي في التاسعة والعشرين من عمرها، ولم تتدخل في أمور الدولة والشئون السياسية وتفرغت لتربية ولديها سليمان وأحمد، وانصرفت إلى أعمال الخير، وفتحت بذلك لعائلة كوبريلي أن تقوم بدورها التاريخي الذي استمر سبعا وعشرين سنة، فأعادت هذه العائلة للدولة هيبتها كما كانت في عهد سليمان القانوني.

وفضلت أن توجه قدراتها بعيدا عن سياسة الدولة في الأعمال الخيرية والأوقاف على المساجد وغيرها من الأعمال التي خلدت اسمها في تركيا العثمانية وقد توفيت خديجة عن عمر يناهز الـ ٥٦ عامًا سنة ١٦٨٣م، وكانت أطول امرأة في التاريخ العثماني تحصل على صفة "السلطانة - الوالدة"، حيث استمرت هذه الصفة لصيقة بها ٣٤ عامًا، وبوفاتها انتهى ما عرف تاريخيا بـ"سلطنة" الحريم، فقد دخلت الدولة العثمانية في مشاكل كبيرة استعدت تولي سلاطين كبار واجهوا مشاكل الدولة العثمانية حينا بالحزم وحينا بالانكسار طوال القرنين الباقيين من عمر الدولة العثمانية في وقت تراجع دور الحرملك وعاد إلى وضعه الطبيعي بعيدا عن السياسة بعد أن لعبت نساء

الحرملك دورا في سياسة الدولة العثمانية على مدار قرن كامل.

أثر هيمنة الحرملك على الدولة

بلغت الدولة العثمانية أوج مجدها في عهد سليمان الأول الذي يلقب بسليمان القانوني، سواء أكان ذلك في مجال الفتوحات والتوسع الخارجي أو في مجال الإصلاحات الداخلية والرقي العلمي والحضاري، وقد مات سليمان وترك لابنه سليم الثاني الوزير صوكللي الذي حافظ للدولة العثمانية على مجدها، لكنه ترك له ما هو أخطر فقد بدأت في نهاية عصر السلطان سليمان بدايات سلطنة الحريم وبدأت السلطانات سواء كن أمهات السلاطين أو زوجاتهم في دس أنوفهن في شئون الدولة ما كان له أثره المدمر على الدولة العثمانية خصوصا أن شخصية السلاطين في تلك الفترة من أضعف الشخصيات التي ظهرت في التاريخ، لذلك كانت هزائم الدولة العثمانية كثيرة وانتصاراتها قليلة طوال فترة سلطنة الحريم، وإن كانت الدولة ظلت مرهوبة الجانب فترة بفضل ما وفَّره لها السلطان سليمان القانوني من هيبة دولية.

وقد بدأ ضعف الدولة العثمانية من داخل البناء غير محسوس في البداية، مع عصر السلطان سليم الثاني (حكم في الفترة ١٥٦٦-١٥٧٤م) فلم يكن سليم الثاني من طينة تشبه السلاطين العثمانيين السابقين في العلم و الدراية، ولم يستطع بلوغ مستواهم، فلم يخرج على رأس جيشه لأي حرب، فوضع أسس سيرة سيئة لمن خلفه من السلاطين ما أثر سلبا على معنويات الجيش العثماني وكان قد عمل من قبل والياً على سنجق قونية و مغنسيا و كوتاهيا، وعندما بلغ ٤٢ سنة من عمره أصبح سلطاناً، ولو لم يكن بجانبه رجل دولة مثل الصدر الأعظم صوقوللى محمد باشا الوزير المحنك للسلطان سليمان القانوني كان يدير الدولة بحكمة نيابة عن السلطان سليم الثاني.

فأين كان السلطان؟! تجمع المراجع العثمانية على أن السلطان سليم كان مدمنا على تناول الخمور ما جعله يعرف في تلك المصادر بـ"سليم السكير"، وإقامته الدائمة في الحرملك ما جعل سلطانات الحرملك يفرضن نفوذهن بصورة موسعة داخل أركان الدولة خصوصا السلطانة نوربانو زوجة السلطان وأم ولي العهد، التي أصبحت صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة داخل السلطنة.

رغم ذلك فقد حققت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم عدة انتصارات من

أهمها فتح جزيرة قبرص، ففي عام ٩٧٨ / ١٥٧٠ م عين السلطان سليم الثاني مصطفى باشا لا له سرداراً على قبرص بناء على التماس الصدر الأعظم، وكان معه خمسون ألفاً من العساكر رماة البنادق والطوبجية و اللغمجية ، ومائة و خمسون سفينة بقيادة "بيالة باشا" و"على باشا أولوج"، فذهب و حاصر جزيرة قبرص فرست السفن أمام مدينة ليمازون في أول أغسطس وفتحت في ٩ سبتمبر ١٥٧٠، ثم وضع الحصار أمام مدينة "فماجوست" ولاقتراب فصل الشتاء أمهل فتحها إلى أوائل الربيع و ابتدأت أعمال الحصار ثانياً في ابريل سنة ١٥٧١م، ولمتانة الحصون و الاستحكامات و القلاع مكث ستة أشهر و أخيرا أطلق المدافع بشدة على مدينة "ماغوسة" فأضطر الأهالي إلى التسليم و رغبوا نقلهم إلى جزيرة كريت،وفتحت في ٢ أغسطس ١٥٧١م، وبذلك تم فتح جزيرة قبرص و صارت من ذلك العهد تابعة للدولة العثمانية إلى أن أحتلها الانكليز بكيفية غريبة ١٨٧١م.

وأما صاحب قبرص المدعو "براغازينو"، فإنه قتل جميع أسرى المسلمين ثم ارتدى ملابس الونديكين الحمراء وأراد الهرب ودخل وسط الجيش العثماني ، فلما بلغ ذلك "مصطفى لا له باشا" أمر بقتل أسرى الفرنج وقبض على "براغازينو" وقتله، لقد هلك في فتح جزيرة قبرص نحو الخمسين ألفا من المسلمين، ويقال إن سبب هلاك هذا العدد هو جهل "مصطفى لا له باشا" بالتكتيكات الحربية، فلم يكن هناك ما يميز هذا الشخص إلا أنه شارك بدور أساسي في المؤامرة التي أدت إلى مقتل الأمير بايزيد بن السلطان سليمان القانوني المنافس الأبرز لسليم على ولاية عرش السلطنة.

عقب فتح قبرص التابعة للبنادقة و غزو البحرية العثمانية جزر كريت وغيرها بدون أن تحتلها واحتلت مدينتين على ساحل البحر الأدرياتيكي، فتوجس أهل البندقية الخوف على أراض إيطاليا ونفوذ البندقية فعقد البابا حلفا مقدسا بين إسبانيا والبندقية وجنوى ورهبان جزيرة مالطة وعرض على فرنسا الاشتراك فيها ولكن الملك شارل التاسع عارض الدخول في الحلف بسبب وجود معاهدات قائمة بينه و بين الدولة العثمانية، ولقد تم عقد معاهدة بين المشتركين في الحلف وأوجبت المعاهدة على المشتركون بها دفع تكاليف الحروب التي تقع بينهم و بين الأعداء بنسبة النصف على

ملك اسبانيا، و الثلث على جمهورية البندقية، و السدس على البابا وعلى البابا أيضا أن يقدم ١٢ سفينة شراعية حربية و ٣,٠٠٠ جندي من الشاة و ٢٧٠ رأساً من الجياد كما فرضت المعاهدة على البنادقة إقراض البابا ١٢ سفينة شراعية حربية لتجهيزها.

على الجانب العثماني، اختلف الباشوات العثمانيين في الآراء فمنهم على باشا أولوج الذي قال: إن قوتنا البحرية ناقصة وضروري استكمالها لأول ربيع القادم. ولرغبة محمد باشا الصدر الأعظم في كسر نفوذ برتو باشا القائد الأعلى للأسطول لم يستمع لرأى الآخرين وأيد رأى على باشا المؤذن في استعداد الدونانمة العثمانية في الدخول في حرب حالاً، كما ظهر اختلاف الرأي أيضاً في أن على باشا أولوج اقترح عدم التوغل في عرض البحر ونادى بذلك بأعلى صوته مراراً فلم يقبل رأيه لكي لا تظهر القوات العثمانية بأنها خائفة فقال على باشا المؤذن: "إني لا أظهر شبه فرار حتى يقول الأعداء: فرت الدونانمة العثمانية بل نسرع بالهجوم"، فغضب على باشا أولوج وناداه قائلاً إن: "الهوى ضد مراكبنا وصالح لمراكب الأعداء"، فلم يصغ أحد لقوله.

عندما اقترب الأسطول الصليبي من ميناء إينبختي الذي يرسو فيه الأسطول العثماني اجتمع برتو باشا مع كبار قادة البحر لبحث الموقف، وانفض هذا الاجتماع دون أن يتوصل القادة إلى خطة لمواجهة المعركة القادمة التي لا يفصل بينها وبينهم إلا وقت قصير، وكانت المؤشرات تؤكد أن هناك ميلاً لما يطرحه برتو باشا ومؤذن باشا لمواجهة الموقف المتأزم على اعتبار أنهما المسئولين أمام الدولة في إستانبول، وكان رأي القادة البحريين في الأسطول هو عدم الدخول في هذه المعركة -غير المتكافئة- إلا بعد أن تقصف مدافع القلاع العثمانية سفن العدو وتتلفها، وهو ما يعطي فرصة كبيرة لسفن الأسطول العثماني لتتبع ومطاردة الأسطول الصليبي، أو بمعنى آخر إنهاك الأسطول الصليبي قبل بدء المعركة ثم الانقضاض عليه بعد ذلك، ولكن برتو باشا ومؤذن باشا أعلنا أنهما تسلما أمرا بالهجوم على الأسطول الصليبي.

ولما رأى قادة البحر في الأسطول العثماني ذلك نصحوهما بأن يخرجا إلى القتال

في البحار المفتوحة؛ لأن ذلك يعطي الفرصة للسفن العثمانية بأن تقوم بالمناورة وأن تستخدم مدفعيتها القوية بكفاءة عالية ضد الأسطول الصليبي، إلا أن برتو وغيره من القادة لم يستمعوا إلى هذه النصائح من أهل الخبرة في القتال البحري، وأعلن أنه سيقاتل بالقرب من الساحل، وقال أي كلب هو ذلك الكافر حتى نخافه؟ ثم قال: إنني لا أخشى على منصبي ولا على رأسي، إن الأوامر الواردة تشير بالهجوم، لا ضير من نقص خمسة أو عشرة أشخاص من كل سفينة، ألا توجد غيرة على الإسلام؟ ألا يُصان شرف الباد شاه؟!.

وكانت هذه المقولة تعبر عن الجهل بالحقائق ولا تعبر عن شجاعة أو حماسة دينية ، إذ إنه من غير المعقول أن تدار حرب بحرية على الساحل، ومن ثم فقد كانت النتيجة في تلك المعركة محسومة لصالح الأسطول الصليبي قبل أن تبدأ، و شكل التحالف الصليبي المقدس أسطولا من ٢٣١ سفينة هاجمت العثمانيين الذين قابلوا هذا الحلف بـ٣٠٠ سفينة، اصطف الأسطولان الإسلامي والمسيحي متقابلين بصورة حسبما تقتضيه القواعد البحرية، فالجناح الأيسر المسيحي بقيادة "بربريغو" كان يقابله الجناح الأيمن الإسلامي الذي يقوده "محمد شولاق"، ومن الجهة الأخرى كانت سفن "أولوج على" مقابلة لسفن "دوريا" أما في الوسط فكانت سفن "دون جوان" في مواجهة سفن القبودان على باشا المؤذن، وعلى الرغم من مشورة القادة العثمانيين بالتحصن في خليج إحدى الجزر إلا أن القائد الأعلى مؤذن-زاده علي باشا صمم على ملاقاة عدوه في مياه البحر بقرب الساحل، وعند الظهيرة من ذلك اليوم بدأ القتال بإطلاق المدافع من قبل المسلمين فرد عليها الجانب المسيحي ولقد تفوق المسلمون في الجانب الأيمن على المسيحيون فسقط "بربريغو"، ولكن محمد شولاق المعروف بـ"سيروكو الإسكندرية" لاقى حتفه. ولقد تقاتل دون جوان عن طريق فك الأسرى لمساعدتهم في القتال وفعل المسلمون المثل ولكن للأسف انضم الأسرى لدون جوان ضد المسلمون وبالتالي مالت كفة النصر للتحالف الصليبي.

وقتل مؤذن-زاده علي باشا في صراع بين سفينته وسفينة دون جون قائد القوى المتحالفة وغنمت رايته العثمانية المطرزة بالذهب وقتل وأسر العديد من نخبة البحارة

المسلمين بالإضافة إلى استيلائهم على ٣٠٠ مدفع عثماني، وخطب بابا الفاتيكان بهذه المناسبة وشكر دون جون على نصره، وكان هذا النصر نقطة تحول وتفاؤل لدى الأوروبيين حيث حظيت البحرية العثمانية بصيت أنها لا تهزم.

أما في الجانب العثماني فقد تمكن قائد الميسرة أولوج علي باشا (بكلربيك الجزائر) من الاستيلاء على راية سفن رهبان مالطا والحفاظ على عدد كبير من السفن التي كانت معه، وعند عودته إلى إسطنبول لقبه السلطان سليم الثاني بالسيف ورقاه إلى منصب قائد القوات البحرية (قبودان باشا)، أما محمد باشا الصقلي فدأب يعيد بناء الأسطول البحري بكل ما أوتي من قوة وهمة مستغلا صعوبة الإبحار في فصل الشتاء، وتبرع سليم الثاني بجزء من قصره لتحويله إلى مكان تبنى فيه السفن وأنفق بسخاء من ماله الخاص ولم يقم بجمع أية أموال إضافية من مواطني الدولة التي كانت تنعم برخاء عجيب في تلك الفترة، وفي أقل من سنة تم تشييد ٢٥٠ سفينة جديدة، فارتعدت البندقية من الخبر مما جعلها توافق على دفع غرامة حربية للخلافة العثمانية قدرها ٣٠٠ ألف دوكا بالإضافة إلى التنازل عن جزيرة قبرص لاسيما بسبب الخلافات التي دبت بين قادة الحلفاء بعد نصرهم مما أدى تفرقهم، ولم تتجرأ أية أمة غربية على منازلة البحرية العثمانية في تلك السنة، كان من نتائج معركة ليبانتو تخلي العثمانيين عن مشروع استعادة الأندلس كما يجدر بالذكر أن تأثير هذه الموقعة البحرية الهامة في التاريخ كان بخسارة العثمانيين لعدد كبير من خبرائهم البحريين مما صعب عليهم تعويضه فيما بعد، وظهر ذلك جليا على البحرية العثمانية لاحقا.

كانت نتائج معركة ليبانتو التي اتسمت بالدموية والعنف، فاستشهد قائد القوة البحرية على باشا مؤذن من سفينة إسبانية وابنه مات محترقاً مع بداية المعركة كما أسر ابنه الثاني، وغرقت سفينة القيادة في الأسطول العثماني التي فيها برتو باشا وتم سحبها إلى الشاطئ بتضحيات كبيرة.

أما القائد البحري العثماني أولوج فإنه أظهر من الشجاعة والمهارة في تفريق وإغراق سفن الأعداء ما يحير الأفكار وهو الذي كان يقود الجناح الأيمن فإنه لم يخسر أيا من سفنه البالغة ٤٢ سفينة واستطاع أن يقضي على الأسطول المالطي بالكامل

الذي يتكون من ست سفن واغتنم رايته، وعندما رأى أن الهزيمة تقع بالأسطول العثماني وأن تدخله لإنقاذه هو انتحار مؤكد، رأى أن من الحكمة الابتعاد عن الميدان حفاظا على بقية الأسطول والاستعداد لمعركة قادمة، كانت هذه هي الهزيمة الأولى للأسطول العثماني منذ مائة سنة تقريبًا، فوقع دوي الهزيمة في أوروبا كلها وعمت الأفراح وأقيمت الصلوات ودقت أجراس الكنائس في كل مكان من أوروبا، وخطب البابا بيوس الخامس في كنيسة بطرس، المقر البابوي، قائلا:إن "الإنجيل قد عنى "دون جوان" نفسه حيث بشر بمجيء رجل من الله اسمه حنا"، وقد كان بيوس الخامس رافضًا في البداية تولي دون جوان للقيادة بدعوى أنه ولد زنا لشارلكان ملك إسبانيا وقد أنجبته خليلة شارلكان أثناء زواجه من أم فليب الثاني.

كانت الخسائر في تلك المعركة ضخمة للغاية لكلا الطرفين، لقد مات أكثر من ثلاثين ألفا من المسلمين خلاف من أسر من العساكر و الذوات فقطعوا رؤوسهم وعلقوهم على صواري السفن المأسورة، علقوا أيضا الرايات والأسلحة منكسين احتقارا وانتقاما و تشفياً، فقد خسر العثمانيون ١٤٢ سفينة بين غارقة وجانحة وأسر الصليبيون ٦٠ سفينة عثمانية، واستولوا كذلك على ١١٧ مدفعا كبيرا، و٢٥٦ مدفعا صغيرا، كما تم تخليص ٣٠ ألف جداف مسيحي كانوا في الأسر، وسقط من العثمانيين حوالي ٢٠ ألف قتيل وأسير، من بينهم ٣٤٦٠ أسيرا، ومن بين الأسرى ٣ برتبة لواء بحري،وحاز الصليبيون راية مؤذن باشا الحريرية المطرزة بالذهب، وقد أعادها بابا روما إلى تركيا سنة (١٣٨٥هـ= ١٩٦٥م) كتعبير عن الصداقة بين الجانبين، وقتل من الصليبيين حوالي ٨ آلاف وسقط ٢٠ ألف جريح، وأصيبت غالبية السفن المسيحية، وكان من بين الأسرى المسيحيين "ميغال دي سرفانتس" الذي فقد ذراعه الأيسر وعاش أسيرا في الجزائر وألف روايته المشهورة دون كيشوت. والواقع أن خسائر العثمانيين المعنوية كانت أشد فداحة من خسائرهم المادية، حيث كانت تلك المعركة الكبيرة ذات مردود سلبي في علاقة الدولة العثمانية بالأوربيين فزال من نفوس الأوربيين أن الدولة العثمانية دولة لا تقهر، وهو ما شجع التحالفات الأوربية ضدها بعد ذلك، وظهرت المراهنات على هزيمتها.

كما أعقب هذا الانكسار أن الاسبانيين استأصلوا بقايا المسلمين بالأندلس بقتلهم إلا من هرب إلى أفريقيا حتى صارت أوربا من جهة الأندلس خالية من كل ومسلم، عندما وصل خبر هزيمة الأسطول العثماني للقسطنطينية هاج المسلمين على المسيحيين وهموا بقتل الرسل الكاثوليك لولا تدارك الوزير "محمد باشا صقللي" فقد حماهم من الأهالي حتى تعود السكينة إلى ربوع القسطنطينية، ولكن أخرجهم من القسطنطينية بناء على إلحاح سفير فرنسا.

من جهته، أرسل البابا رسالة بتاريخ ١٦ ديسمبر ١٥٧١ م لحاكم جمهورية البندقية كتاباً يقول فيه "نحن لا شك بأن عدونا هذا بالرغم مما أصابه من ضعف لن يبقى مكتوف الأيدي ، فعلى المسيحيين أن يعملوا دائما على التمسك باتحاد و سيق لدفع الخطر المداهم و الوقوف بوجهه أكثر من أيّ وقت"، كما بعث البابا بيوس الخامس بكتاب إلى طهماسب شاه إيران، في ١٦ نوفمبر ١٥٧١م، يقول فيه: "ليكن بعلمك أن القدر يدعوك بواسطتنا للاشتراك في تقبل النصر بدلا من إتعاب الحرب لأنك لن تجد فرصة مناسبة أو أوقاتا أفضل من هذا الوقت الذي ستكون قوى العثمانيين مهاجمة من كل ناحية". ورغم هذا الانتصار الباهر للأوربيين في معركة ليبانتو البحرية فإن الأوربيين لم يستطيعوا استغلال هذا الانتصار الكبير من الناحية الاستراتيجية، فقد استطاع العثمانيون بعد أقل من عام واحد على هذه الهزيمة بناء أسطول جديد كان أكثر قوة وعددا من الأسطول الذي تحطم في تلك المعركة، وهو ما أثبت أن الدولة العثمانية ما زالت تحتفظ بقوتها وأنها تستطيع في الوقت القليل تعويض الفاقد من قوتها وخسائرها نظرا لما تتمتع به الدولة من موارد وطاقات ضخمة، وبوفاة البابا بيوس الخامس انهار التحالف الصليبي بسبب وجود خلاف حدث بين البندقية وإسبانيا، وسعت جمهورية البندقية بعد فترة في طلب الصلح من الدولة العثمانية وتم الصلح في (٧مارس ١٥٧٣م) وتنص على أن تتنازل جمهورية البندقية للدولة عن جزيرة قبرص، وأن تدفع جمهورية البندقية ٣٠٠,٠٠٠دوكا، ولقد زار معتمد البندقية قبل التوقيع على تلك المعاهدة مقام الصدارة العظمى ليجس نبضها من جهة الصلح وذلك بواسطة و تأييد من سفير فرنسا في الأستانة ففاجأه صوقللى باشا بقوله: "أأتيت

تتفقد شعورنا و شجاعتنا بعد تلك الفاجعة ؟ فأعلم أننا دونكم خسارة فيها، لأننا باستيلاءنا على قبرص قطعنا احد سواعدكم، أما أنتم فلم تجزوا لنا بتدميركم عمارتنا إلا لحية، وأن الساعد المبتور لا ينبت على حين اللحية إذا ما قصت تعود أكثر كثافة وعلى أثر توقيع تلك المعاهدة رفض البابا غريغورس الثالث عشر مقابلة سفراء البندقية لمدة طويلة".

أما محمد باشا الصقلي فدأب يعيد بناء الأسطول البحري بكل ما أوتي من قوة وهمة مستغلا صعوبة الإبحار في فصل الشتاء، وتبرع سليم الثاني بجزء من قصره لتحويله إلى مكان تبنى فيه السفن وأنفق بسخاء من ماله الخاص ولم يقم بجمع أية أموال إضافية من مواطني الدولة التي كانت تنعم برخاء عجيب في تلك الفترة، وفي أقل من سنة تم تشييد ٢٥٠ سفينة جديدة، فارتعدت البندقية من الخبر مما جعلها توافق على دفع غرامة حربية للخلافة العثمانية قدرها ٣٠٠ ألف دوكا بالإضافة إلى التنازل عن جزيرة قبرص لاسيما بسبب الخلافات التي دبت بين قادة الحلفاء بعد نصرهم مما أدى تفرقهم، ولم تتجرأ أية أمة غربية على منازلة البحرية العثمانية في تلك السنة.

ولما توفى السلطان سليم تولى ابنه وولي عهده مراد الثالث، الذي كان ألعوبة في يد أمه السلطانة نوربانو، وزوجته السلطانة صفية على التوالي، فأحكمتا قبضتهما على شؤون الحكم، ودخلت السلطانة نوربانو في صراع مكشوف مع الصدر الأعظم القوي محمد صوقللو، انتهى بمقتل الأخير، ويقول الأستاذ محمد فريد: وفي غضون ذلك قتل الصدر الأعظم محمد باشا صوقللي الذي حافظ على نفوذ الدولة بعد موت السلطان سليمان، وتمكن بسياسته ودهائه من إبرام الصلح مع دول أوروبا المعادية لها، وأنشأ عمارة بحرية بعد واقعة ليبنته، وفتحت جزيرة قبرص بتعليماته وإرشاداته، وكوفئ على خدماته الجليلة بالقتل لا لذنب جناه أو جناية ارتكبها، بل هي دسائس حاشية السلطان خصوصا زوجة السلطان قضت عليه بالموت غدرا تبعا لدسائس الأجانب الذين لا يروق في أعينهم وجود مثل هذا الوزير يدير دولاب الأعمال على محور الاستقامة، فدسوا إليه من قتله تخلصا من صادق خدمته للدولة، فكان موته ضربة شديدة ومحنة عظيمة.

وبمقتل الوزير صوقللي انتفت عن الدولة العثمانية مقولة: الدولة التي لا يهزم جيشها، حيث كان النصر والتقدم ملازم لها، وانتقلت إلى طور جديد يمكن أن نسميه بطور المد والجزر، أي تتقدم فيها الدولة تارة وتتأخر تارة، يكون لها النصر جولة وعليها جولة أخرى، وكان ذلك مرتبط بشخصية السلطان وشخصية الصدر الأعظم، فإذا ما كان السلطان أو صدره يمتلك القدرة على السيطرة على الجند كانت الجولة والنصر للدولة العثمانية؛ لأن الهزائم التي كانت تلحق بها في تلك الفترة لم تكن بسبب تفوق عدوها وإنما لاضطراب جيشها.

ساعد على ذلك ضعف شخصية السلطان مراد الثالث، الذي عاش حياة منزوية و منعزلة في قصره طوال ٢١ سنة ، فضلا عن تفرغه لمعاشرة الجواري حتى قيل أنه تزوج أربعين جارية، وبسبب هذا استطاعت والدته الوالدة السلطانة نور بانو و زوجته صافية سلطان و الجارية جان فدا التدخل في شئون الدولة وأمورها، خصوصا السلطانة صفية ذات الأصول الإيطالية التي ترجع إلى مدينة البندقية، وقيل إن تلك السلطانة وجهت السياسية العثمانية لصالح البندقية ومصالحها حتى ولو على مصالح الدولة العثمانية ذاتها.

على كل حال، ظلت الدولة العثمانية تسير بقوة الدفع الذاتي المتراكم من قبل السلطان سليمان القانوني، وتكشف الضعف العثماني بعد وفاة الصدر الأعظم محمد باشا صاقوللي، فالذين جاءوا بعده وتولوا مهمة الصدر الأعظم فشلوا في قمع قوات الإنكشارية التي بدأت تتدخل في قرارات الدولة الذي جاء بعده شمسي باشا بعد أن حقق الانتصارات على الدولة الصفوية وطمعت في الصلح في مقابل أن تتنازل للدولة العثمانية عن إقليم الكرج وشيروان ولورستان وجزء من أذربيجان ومدينة تبريز - وكان هذا بمثابة مكسب كبير للعثمانيين - ثارت عليه الانكشارية الذين كانوا يفضلون استمرار الحروب ضد الدولة الفارسية للنهب والسلب وارتكاب ما لا خير فيه، وعجز الوزير والسلطان عن السيطرة عليهم.

ثم ثاروا مرة أخرى بالقسطنطينية، وطلبوا تسليم الدفترادار ناظر المالية ومحمد باشا بكلر بك الروملي لقتلهما بدعوى أنهما أرادا أن يصرفا إليهم نقودا ناقصة العيار،

وحاصروهما في منزلهما إلى أن قتلوهما شر قتلة، ولم يقو السلطان على منعهم، وتمردوا مرة أخرى سنة ١٥٩٣م في الأستانة، وأخرى في مدينة بود، وقتلوا واليها، وفي القاهرة، وفي تبريز.

ولما أراد الوزير سنان باشا الذي تولى الصدارة أن يشغلهم بحروب المجر والنمسا لم يصلح معهم ذلك، بل وتسبب في فقد الدولة العثمانية لعدة قلاع، مما اضطر سنان باشا لأن يخرج بنفسه على رأس الجيش لاسترجاع تلك القلاع، ولكن الهزيمة الأولى قد جرأت ملوك الفلاخ والبغدان وترنسلفانيا على العصيان، والتحالف مع رودلف الثاني ملك النمسا وإمبراطور ألمانيا على محاربة الدولة والحصول على الاستقلال، فسار إليهم الصدر الأعظم سنان باشا في سنة ١٥٩٥ ودخل مدينة بوخارست عاصمة الفلاخ عنوة، ولكن ميخائيل أمير الفلاخ سرعان ما انتصر عليهم بسبب تراخي الجند وعصيانهم له، ودخل مدينة ترجوفتس وقتل حاميتها ورئيسها، فأخذ العثمانيون في الانسحاب والتقهقر خلف نهر الدانوب يتبعهم مخائيل الفلاخي، وانتصر عليهم مرة ثانية بالقرب من مدينة جورجيا.

ولما جاء السلطان محمد الثالث، استها حكمه بتلك المذبحة البشعة التي ارتكبتها السلطانة الأم صفية بالتخلص من جميع أخوة السلطان محمد ليخلو له عرش السلطنة، ولعبت دورا كبيرا في توجيه سياسات الدولة العثمانية بما يحقق مصالحها الشخصية.

على كل حال، حاول السلطان محمد الثالث أن يفرض سيطرته على الانكشارية، وصار يخرج معهم في غزواتهم، وبالتالي لم يجدوا فرصة للتمرد، بل دبت الحمية الدينية والغيرة في قلوبهم العسكرية، ونجح في فتح قلعة ارلو الحصينة التي عجز السلطان سليمان عن فتحها في سنة ١٥٥٦ م، ودمر جيوش المجر والنمسا تدميرا في سهل كرزت بالقرب من هذه القلعة في ٢٦ أكتوبر سنة ١٥٩٦ م حتى شبهت هذه الموقعة بواقعة موهاكز التي انتصر فيها السلطان سليمان سنة ١٥٢٦ م.

ولكن السلطان محمد الثالث لم يعمر كثيرا، ومات في ١٢ رجب سنة ١٠١٢هـ ١٦ ديسمبر سنة ١٦٠٣ وعمره ٣٧ سنة، وخلفه ابنه أحمد الأول، وعمره لم يتجاوز الرابعة عشر، وهو عمر لا يسمح له بالسيطرة على الجند الذين ألفوا عدم الخضوع إلا

لسلطان قوي، فازداد التمرد عليه في الداخل، وصادف ذلك اعتلاء عرش الصفويين العدو التقليدي للعثمانيين ملك قوي وهو الشاه عباس الأول، فاستغل ضعف السلطان الصبي في اقتناص ما يمكن اقتناصه من الجزء الشرقي من الدولة العثمانية، فقابله أحمد الأول بحشد قواته على الحدود الشرقية، وخشية من أن تنقلب عليه الأوضاع على الحدود الغربية أثناء الانشغال بقتاله وقع مع ملك النمسا معاهدة "زتفانوروك"، وهي أول معاهدة تنازل الأتراك المزهوون بتوقيعها خارج القسطنطينية، ودفعت النمسا للسلطان مائتي ألف دوكات، ولكنها أعفيت من أية جزية للدولة العثمانية.

ودخل السلطان أحمد الأول مع الشاه عباس حاكم إيران الصفوي، الذي يعد أعظم ملوك الدولة الصفوية على الإطلاق، في معرك طاحنة أسقطت هيبة الدولة العثمانية الحربية إلى الحضيض، فقد انتهز الشاه عباس الصفوي فرصة اضطراب الدولة العثمانية، وباشر في تخليص عراق العجم، واحتل تبريز ووان وغيرهما، واستطاع أن يحتل بغداد والأماكن المقدسة الشيعية في النجف وكربلاء والكوفة، وقد زارها وسط مظاهر الإجلال والتقديس، وقد أورد بعض المؤرخين أنه مضى عشرة أيام في زيارته للنجف؛ حيث قام بنفسه بخدمة الحجاج في ذلك المكان، كما يذكرون أيضًا أنه إمعانًا في إعلان تمسكه بالمذهب الشيعي وولائه للرفض، وعلى الرغم من تعصبه الشديد للمذهب الشيعي، إلا أنه رفع أيدي رجال الدين عن التدخل في شئون الحكم والسياسة، ومارس نوعًا من السلطة المطلقة في حكم البلاد.

وقد أنزل الشاه عباس الصفوي أقسى أنواع العقاب بأعداء الدولة من السنة؛ فإما أن يقتلوا أو تسمل عيونهم، ولم يكن يتسامح مع أي منهم إلا إذا تخلى عن مذهبه السني، وأعلن ولائه للمذهب الشيعي، واضطرت الدولة العثمانية أن تترك للدولة الصفوية الرافضية الشيعية جميع الأقاليم والبلدان والقلاع والحصون التي فتحها العثمانيون في عهد السلطان الغازي سليمان الأول بما فيها مدينة بغداد، وهذه أول معاهدة تركت فيها الدولة بعض فتوحاتها، وكانت فاتحة الانحطاط والضعف، وأول المعاهدات التي دلت على ضعف الدولة العثمانية.

لقد بالغ الشاه عباس الصفوي في عداءه للمذهب السني، واتصل بملوك المسيحيين، وإمعانا في ضرب الدولة العثمانية حامية المذهب السني؛ فقد عقد اتفاقات تعاون مشترك معهم من أجل تقويض أركان الدولة العثمانية السنية، ولم يكن يعبأ حتى إذا قدم العديد من التنازلات للدول الأوروبية تأكيدًا لتعاونه معهم انطلاقًا من عدائه للدولة العثمانية، وعامل الشاه عباس الصفوي المسيحيين في إيران معاملة حسنة على عكس معاملته للسنة، وقد كان لمعاملته المتميزة للمسيحيين أن نشطت الحركة التنصيرية المسيحية في إيران، كما شجع التجار الأوروبيين في عقد صفقات تجارية كبيرة مع التجار في إيران، وأصبحت إيران سوقًا رائجًا للتجارة الأوروبية.

ولقد توج تسامحه مع المسيحيين بأن أعلن في عام ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م أوامره بعدم التعرض لهم، والسماح لهم بحرية التجول في ربوع الدولة الصفوية، وجاء بالمرسوم الذي أصدره شاه الدولة الصفوية ما يلي: "من اليوم يسمح لمواطني الدولة المسيحية، ومن يدينون بدينهم بالحضور إلى أي بقعة من وطننا، ولا يسمح لأي شخص بأي حال من الأحوال إهانتهم، ونظرًا لما بيننا وبين الملوك المسيحيين من علاقات ود ومحبة، فيسمح للتجار المسيحيين بالتجول في جميع أنحاء إيران، ومزاولة نشاطهم التجاري في أي بقعة من الوطن، دون أن يتعرض لهم بالإيذاء من أي شخص، سواء كان حاكمًا أو أميرًا أو خانًا أو موظفًا أو تابعًا للدولة. كما تعفى جميع أموال تجارتهم التي يحضرونها معهم من ضرائب المال، وليس لأي شخص مهما يحضرونها معهم من ضرائب المال، وليس لأي شخص مهما بلغت مكانته أن يزاحمهم أو يكلفهم المشاق، وليس من حق رجال الدين مهما كانت طوائفهم التجرؤ على الإضرار بهم أو التحدث معهم بخصوص العقائد المذهبية".

وهيمن الجند الانكشارية على مقاليد الأمور في حياة السلطان أحمد ومن بعده، فانشغلت الدولة بهم مما جرأ النمسا لأن تسعى لاقتطاع المجر وضمها إلى مملكتها، ولكن المجريين رفضوا نير النمسا المسيحية، وآثروا سماحة وعدل الإسلام، ولم يخلعوا طاعة السلطان، كما امتنع أهالي إقليم ترنسلفانيا عن الدخول ضمن أملاك الإمبراطورية النمساوية أيضا لما عرض عليهم ذلك، مفضلين البقاء تحت حماية

الدولة العثمانية الإسلامية التي لم تتعرض لهم، لا في دينهم ولا في عوائدهم؛ اكتفاء بالجزية السنوية.

وكانت قمة المأساة عندما حاول السلطان عثمان الثاني الوقوف في وجه هيمنة الحرملك والانكشارية، ففي حرب الدولة العثمانية ضد مملكة بولونيا طلبت الانكشارية الكف عن الحرب و طلب البولونيين الصلح لفقد قائدهم وأيضا نظراً لهبوط الحالة النفسية و المعنوية لدى جنود الانكشارية ، واستشهاد أمير الأمراء "بودن" فلم يتم النصر في هذه الحرب وتبادلت بينهما المخابرات وتم الصلح و أمضى من الطرفين في ٦ أكتوبر ١٦٢١م، فحنق السلطان على الانكشارية من طلبهم للراحة و خلودهم إلى الكسل و إلزامه على الصلح مع بولونيا بدون ضم الأفلاك وبغدان لأملاك الدولة العثمانية، كما ظهرت كراهية الجيش للسلطان عثمان الثاني بسبب تصديقه أقوال المخصيين السود، مما سيرتب عليه نتائج وخيمة سيحصدها السلطان بنفسه

لقد كان السلطان عثمان الثاني عقب إصرار الانكشارية على الصلح ينوى القيام ببعض الإصلاحات وفى مقدمتها إصلاح مؤسسة "قابو قولو" التي بدأ الفساد يدب فيها حتى أرسل تعليمات سرية إلى ولاة حلب و الشام و مصر طلب فيها القيام بتهيئة جيش جديد مخلص للسلطان وبدأ العمل في هذا الأمر بشكل سرى فقد أمر بحشد جيوش جديدة في تلك الولايات السابق ذكرها وتنظيمها و تدريبها على القتال حتى أذا اكتملت عدة و عتاد استعان بهم للتخلص من الانكشارية. عندما رأى السلطان تخاذل الانكشارية عندما عاد شدد بمنع شرب الدخان الذي وجد من منذ خمسة عشر سنة ، وكان ممنوعاً من مدة سلفه ، كما شدد بمنع المسكرات فصار يخرج في أغلب الليالي مختفياً بتغيير الزى وكلما وجد من المحركين مخالفة بتعاطي ما نهى عنه أدبهم تأديباً صارماً حتى كسر نفوذ بعض الوزراء فأغتاظ الكثير منه، وقد علم هو بذلك علم اليقين.

لقد أراد السلطان عثمان الثاني القيام برحلة حج للأراضي المقدسة بسبب رؤيته للرسول في المنام في حالة شبه عتاب له ، فعبره له معلمه "عمر أفندي" بضرورة القيام بزيارة للأراضي المقدسة للقيام بفريضة الحج، نتيجة إقناع معلمه عمر أفندي

ومسئول الحريم سليمان أغا، ولكن الجيش ووالد زوجته شيخ الإسلام أسعد أفندي والمتصوف المعروف عزيز محمود خدابى، كانوا يعارضون هذا بشدة، ثم تدخل جنود قابو قولو في الأمر وطالبوا برأس عمر أفندي و برأس سليمان أغا اللذين كانا يرغبان في إرسال السلطان إلى الحج ووسطوا بعض العلماء في هذا الأمر وعلى رأسهم قاضى عسكر روم إيلى.

وعندما لم يتم ما طلبوه ثار الجنود و تسلقوا سراى القصر و دخلوا للسلطان وانتهكوا حرمته فسلم لهم الصدر الأعظم دولار باشا وسليمان أغا فقطعوهم إرباً ، وتفرقت في جهات متعددة، فقال لهم العلماء : أيها الرفقاء ، إن السلطان أعطى لكم ما طلبتموه و إن السلطان مصطفى مسلوب العقل لا تجوز مبايعته، فلم يتم كلامهم إلا وقد هجموا عليهم و أكرهوهم على المبايعة، ثم اقتحموا الحرملك بحثا عن السلطان عثمان، فقبضوا عليه من بين جواريه و زوجاته وقادوه قهراً و بعد إجبارهم له على أتمام البيعة للسلطان مصطفى بالقوة.

وأحضر عثمان الثاني إلى جامع "أورطة" مع سبه و شتمه وحاولوا خنقه بالحبل تنفيذاً لأوامر الصدر الأعظم داوود باشا المعروف بلقب "قارا" أي الأسود، ولم يوفقوا في شنقه في الجامع فاقتادوا السلطان إلى القلعة المعروفة بذات السبع قلل حيث تم خنقه تحت إشراف داود باشا في شهر جماد الآخر ١٠٣١ / مايو ١٦٢٢م، وكانت خلف هذه المؤامرة السلطانة الأم كوسم ماه بيكر، التي كانت وبحق المتحكم الأول في شؤون الدولة العثمانية آنذاك.

وفي عصر مراد الرابع عاث بعض رؤساء الانكشارية فسادا في الأرض، وقتلوا الصدر العظم على مرأى من مراد الرابع، فعزم على أن يشتد عليهم، وأظهر عزما شديدا قويا في مجازاة رءوسهم، وبذلك داخلهم الرعب، ووقعت مهابته في قلوبهم، وخشيه الصغير والكبير والأمير والحقير، وسار كل في طريقه مكبا على عمله، وأمن الناس على أموالهم وأعراضهم من التعدي، وسادت السكينة في القسطنطينية وضواحيها وجميع أنحاء المملكة.

ثم سعى لأن يعيد للدولة ما فقدته من النفوذ بسبب إهمال بعض أسلافه، فسار

بنفسه إلى بلاد العجم لاسترجاع فتوحات السلطان الغازي سليمان الأول ففتح مدينة اريوان في ٢٥ صفر سنة ١٠٤٥هـ ١٠ أغسطس سنة ١٦٣٥م، وبعد ذلك قصد السلطان مدينة تبريز ففتحها عنوة في ٢٨ ربيع الأول سنة ١٠٤٥ هـ ١٠ سبتمبر سنة ١٦٣٥ م، وملك بغداد مرة أخرى في صبيحة ١٨ شعبان سنة ١٠٤٨ هـ ٢٥ ديسمبر سنة ١٦٣٨ حيث بقيت في حوزة العثمانيين حتى انفصلت عنها مع تتابع الثورات العربية على الخلافة.

ومات مراد الرابع ولم يتجاوز عمره ٣١ عاما فجاء بعده إبراهيم الأول فاستغل فترة النشوة التي تمر بها البلاد بعد الانتصارات السابقة، وعمل على المحافظة على قوتها، ولم يتراخ في معاقبة من يمسها بسوء أو يتعدى حدودها، فأرسل جيوشه إلى بلاد القرم لمحاربة القوزاق الذين احتلوا مدينة آزاق من قبل، فحققت جيوشه النصر، واستردوا المدينة منهم بعد أن أحرقوها، وذلك سنة ١٦٤٢ م، كما أرسل الجيوش بعد ذلك لفتح جزيرة " كريد " ولكن الانكشارية سرعان ما خرجوا عليه وقتلوه خنقا، واستخلفوا بعده محمد الرابع، وكان صبيا صغيرا فوقعت البلاد في الفوضى، وصارت الجنود لا ترحم صغيرا، ولا توقر كبيرا، وسعوا في الأرض فسادا، وكان لذلك أثره على هيبة الدولة في الخارج فتقهقرت قواتها التي كانت من قبل محاصرة لكنديا، كما انهزمت الدونانمه العثمانية أمام دونانمة العدو أمام مدينة فوقيه سنة ١٦٤٩م، ولولا ولاء المجر وتفضيلهم الحكومة العثمانية على حكومة النمسا لثاروا طلبا للاستقلال.

ترى ما الذي هوى بقوة العثمانيين من أوجهاً أيام سليمان القانوني؟ ليس كالنجاح شيء يتعرض للسقوط. لقد كانت فرص المتعة التي أتى بها النصر والثورة شديدة الإغراء، فبدد السلاطين في الحريم ما كانوا في حاجة إليه من طاقة وهمة لضبط الجيش والموظفين والوزراء. واتسعت دولتهم اتساعاً حال دون إدارتها إدارة فعالة، ودون سرعة توصيل الأوامر ونقل الجنود، وكان يحكم الولايات باشوات جعلهم بعد الشقة بينهم وبين الآستانة مستقلين تقريباً عن السلاطين. ولم يعد الجوع يحفز الترك، ولا الأعداء يهددونهم، فتردوا في مهاوي الكسل والفساد، وأفسدت الرشوة الحكم وأشاع غش العملة فوضى في الاقتصاد والجيش. وتمرد الانكشارية المرة بعد المرة

على رواتبهم المدفوعة بعملة هبطت قيمتها، واكتشفوا سطوتهم، فاستغلوها كلما تعاظمت. وظفروا بحق الزواج، وحصلوا لأبنائهم وغيرهم على الإذن بالانخراط في سلاحهم الذي كان من قبل وقفاً على النخبة المنتقاة، وتنكروا للتدريب والنظام الصارمين اللذين جعلا الانكشارية صفوة المقاتلين في أوربا. أما قوادهم الذين أصبحوا خبراء في لذات الجنس، فقد فشلوا في ملاحقة العلوم والأسلحة الحربية. وبينما كان الغرب المسيحي يصنع مدافع أفضل، ويطور إستراتيجية وتكتيكاً أرقى، في صراع الحياة والموت الذي دار على ساحات حرب الثلاثين، وجد الأتراك، الذين كانوا تحت إمرة محمد الفاتح يملكون أفضل مدفعية في العالم-وجدوا أنفسهم-كما حدث في ليبانتو- متخلفين في قوة النيران والإستراتيجية. وأرهقت الحرب، التي قوت من قبل الدولة العثمانية يوم كان السلاطين يقودون جيوشهم بأنفسهم-هذه الحرب أرهقت الدولة حين آثروا انتصارات الحريم السعلة على مشاق المعركة. وكان لسيطرة الإيمان القدري، غير التقدمي، على الحياة والفكر أثرها في خنق العلوم الإسلامية التي كان لها القدح المعلي في العصور الوسطى، وازدادت المعرفة في الغرب وتخلفت في الشرق. وحسن المسيحيون بناء سفنهم وأصلحوا مدفعيتهم وامتدت تجارتهم إلى جميع القارات، تشق لها طرقاً جديدة في العباب، بينما كانت معظم التجارة العثمانية تزحف في قوافل على اليابس. وترك الحكام الكسالى السقايات والقنوات تبلى، بينما الفلاحون الذين قبلت الحرب حياتهم ينتظرون المطر في ذل ومسكنة. واتخذ مسار الإمبراطورية طريقه غرباً، إلى أن وجد نفسه ثانية في الشرق يوماً وهو لا يزال يتحرك غرباً.

أثّر توقف التوسع العثماني على تطور الدولة ككل، خصوصاً وأن الدولة العثمانية كانت قد ازدهرت في الغزو ضد أعداء الدين في أوروبا، وإلى حد ما في فارس. ظهر ضعف الدولة أولا في شخصيات السلاطين أنفسهم، فانسحبوا بالتدريج من المساهمة الفعلية في قيادة الجيش والإدارة، وانقطعوا إلى حياة القصر. وباستثناء السلطان مراد الرابع، الذي أظهر مقدرة كبرى إزاء الأخطار المهددة للدولة من الداخل والخارج، وبخاصة على الجبهة الصفوية، لم يظهر أي سلطان قوي في الفترة بين وفاة السلطان سليمان القانوني (١٥٦٦) وحكم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-

١٨٠٧)، وهو الذي قام بأول محاولات الإصلاح. ونظراً لانقطاع السلاطين إلى حياة القصر، ازداد شأن موظفي القصر، وعلى رأسهم القزلار آغا، المسئول عن الحريم، فأخذ ينافس الصدر الأعظم على النفوذ. وكان لهذا الصراع أثره على حكام الولايات الذين اعتمدوا على الواحد أو الآخر من هذين الموظفين الكبيرين.

من مظاهر ضعف الدولة العثمانية أيضاً انحطاط الجيش فيها، ففي أعقاب توقف الفتوحات وتناقص سلطة السلاطين الفعلية فُقد نظام الجيش، وتضعضعت الإنكشارية، فطمع المسلمون الأحرار بالتجند في صفوفهم للتمتع بامتيازاتهم. وازداد تمرد الإنكشارية وأخذوا يُرهبون السلاطين. وكان أول ضحاياهم البارزين السلطان عثمان الثاني الذي عزلوه ثم قتلوه (١٦٢٢).

وكان قد نتج عن اعتماد الدولة اعتماداً كبيراً على الإنكشارية، منذ القرن الخامس عشر، أن أهمل الجند من أصحاب الإقطاع، وهم السباهية الفرسان، واستمر هذا الإهمال فيما بعد. وأدى انحطاط هؤلاء الجنود إلى انحطاط نظام الإقطاع بشكل عام، مما أتاح المجال لظهور عناصر مدنية مقربة من السلطات الحاكمة، استطاعت أن تسيطر على الريف وتستثمره لصالحها. وكانت تتصرف بالأرض إما بأخذها كإقطاع أو بالتزام ضرائبها. ورافق ذلك كثير من التلاعب بأموال الدولة، وظهرت قوى محلية تستمد سلطتها من التزام الضرائب، واشتهر في فترة ضعف الدولة العثمانية الجنود المرتزقة بسبب توفر العناصر البشرية، وبخاصة الريفية، التي لا عمل لها فأخذت تبيع خدماتها. وعمد زعماء محليون ثائرون إلى استئجار هذه العناصر لدعم سلطتهم ضد السلطنة العثمانية وضد بعضهم بعضا.

ونتج عن توقف الفتوحات، وبالتالي انقطاع مواردها، أن ازداد ارتباك الاقتصاد العثماني. وجاء ذلك مع ازدياد عدد الجنود الإنكشاريين والموظفين أصحاب المرتبات. فيما تناقصت واردات الدولة بسبب فساد نظام الالتزام. وتأثر الاقتصاد العثماني أيضا، لأن الواردات الجمركية على بضائع الشرق الأقصى المارة في الأراضي العثمانية انخفضت، بعد أن نقل جزء كبير من هذه البضائع رأسا إلى أوروبا عبر رأس الرجاء الصالح. ولم تستطع موارد الدولة من المعادن الثمينة تلبية الحاجة المتزايدة للنقد.

وجاء تدفق الفضة الرخيصة إلى بلاد حوض البحر المتوسط من العالم الجديد – أمريكا – ليزيد في إرباك النقد العثماني وانهيار قيمة وحدته الفضية. ولهذا أصدرت الدولة العثمانية في عام ١٦٢٠ وحدة نقد فضية جديدة، هي البارة، لتحل محل الأقجة. ولكن حتى هذه انهارت قيمتها بدورها فأصدرت الدولة عملة جديدة هي القرش، وذلك في الربع الأخير من القرن السابع عشر، ولم يُجدِ ذلك نفعا، فلجأ الموظفون إلى الرشوة، ولجأ أصحاب الرواتب من العساكر إلى فرض ضرائب إضافية، ولم يبق أمام السلطات العثمانية إلا اللجوء إلى الإصلاحات لتحسين أوضاع الدولة، وبدأ ذلك بشكل واضح منذ أواخر القرن الثامن عشر، وبلغ الغاية في القرن التاسع عشر.

انهيار سلطنة الحريم صعود آل كوبريلي

استمر الحرملك في إطار عصر "سلطنة الحريم" يمارس دوره في إدارة أمور البلاد من خلف الستار لمدة تقارب القرن تقريبا، وصلت فيه السلطانات إلى مراكز صنع القرار بصورة غير مسبوقة وهو ما تم ترجمته فعليا في منصب نائبة السلطان الذي تولته كل من كوسم سلطان ثم خديجة تارخان، لكن سيطرة الحرملك وبروز قوة السلطانات تزامنت مع عدد من المتغيرات الدولية التي ألقت بظلالها على مستقبل الدولة العثمانية ونالت من قوتها، في حين دبت الفوضى داخل أركان الدولة العثمانية بقسوة وعنف من قبل جنود الإنكشارية وانتشار الفساد في جهاز الدولة خصوصا الرشوة، بعد استشعار الجميع ضعف قوة السلاطين وانعدام هيبتهم، وهو ما وجدنا أثره في هزائم القوات العثمانية في الميادين الأوروبية المرة تلو الأخرى.

لذلك كانت الدولة العثمانية تبحث عن بطل ينقذها من مسلسل الانهيار السريع التي دخلت فيه الدولة مبكرا، خصوصا مع مقتل السلطان "إبراهيم بن أحمد الأول" في (١٠٨٥هـ = ١٦٤٨م) بعد ثورة عارمة هزت أرجاء إستانبول، قام بها الجنود الإنكشارية، وكثيرا ما كانوا يقومون بمثل هذه الأعمال حين يغضبون على وزير أو سلطان، ولم تكن هيبة السلاطين تردعهم بعد أن تولى على عرش الدولة العثمانية عدد من السلاطين من ذوي القدرات المحدودة والمواهب القليلة والعزائم الخائرة.

وأُجلس على عرش الدولة "محمد الرابع" الابن الأكبر للسلطان إبراهيم، وكان حدثا صغيرا لا يتجاوز السابعة من عمره فتولت جدته "كوسم مهبيكر" نيابةً السلطنة، وأصبح بيدها مقاليد أمور الدولة، وقد استمرت فترة نيابتها ثلاث سنوات، ساءت فيها أحوال الدولة، وسيطر أَغَوَات الإنكشارية على شئون الدولة، متجاوزين مؤسسات الدولة، غايتهم جمع المال والثروة دون نظر إلى مصالح الدولة العليا.

وبعد وفاة السلطانة الجدة في سنة (١٠٦٢هـ = ١٦٥١م) لم يكن عمر السلطان الصغير يسمح له بأن يتولى أمور الحكم، فقامت أمه "خديجة تارخان" بنيابة السلطنة، وكانت امرأة شابة راجحة العقل، ذات رأي وتدبير، شغلت نفسها بالبحث عن الأَكْفَاء من الرجال ممن ينهضون بالدولة التي بدأ الضعف يدب في أوصالها، بعد أن تناوشتها

الفتن والمؤامرات، وأحدقت بها الأخطار من كل جانب.

وجدت السلطانة الأم ضالتها المنشودة في محمد باشا كوبريلي، وهو ألباني الأصل قوي الشكيمة وصاحب شخصية قوية، وقبْل أن يتولى المنصب اشترط أن يكون مطلق اليد في الضرب على أيدي أصحاب مراكز القوى في الدولة، وسحق المؤامرات التي قد يدبرها بعض أهل النفوذ، وقبلت نائبة السلطنة هذه الشروط، وكانت هذه أول مرة في التاريخ العثماني التي يضع فيها وزيرا شروطًا لقبوله منصب الصدارة.

وانتهت نيابة السلطانة الوالدة التي استمرت خمس سنوات، وتولى ابنها محمد الرابع شئون الحكم، وهو في الخامسة عشرة من عمره، وتوارت هي إلى الظل وهي في التاسعة والعشرين من عمرها، ولم تتدخل في أمور الدولة والشئون السياسية وتفرغت لتربية ولديها سليمان وأحمد، وانصرفت إلى أعمال الخير، وأنهت بذلك دور الحرملك البارز في توجيه السياسة العثمانية بشكل بارز، وفتحت بذلك لعائلة كوبريلي أن تقوم بدورها التاريخي الذي استمر سبعا وعشرين سنة، فأعادت هذه العائلة للدولة هيبتها كما كانت في عهد سليمان القانوني.

كان محمد باشا كوبريلي على كبر سنه قوي الشخصية والإرادة، عظيم الهمة، يميل إلى الشدة والترهيب فيما يتصل بأمن الدولة وسلطانها، فانتظمت أمور الدولة الداخلية، وضرب على أيدي الإنكشارية وأعادهم إلى احترام النظام والانشغال بعملهم، ومنعهم من التدخل فيما لا يعينهم من شئون السياسة.

وعندما عين السلطان محمد الرابع محمد كوبريلي صدراً أعظم (١٦٥٦)، استهل وهو في السبعين من عمره نصف قرن من الحكم تربعت فيه أسرته الألبانية على دست الوزارة، ولم يدم استيزاره أكثر من خمس سنوات، ولكن في هذه الوزارة الخماسية أعدم بأمره ٣٦,٠٠٠ شخص لجرائم تتفاوت من السرقة إلى خيانة الدولة، وكان كبير جلاديه يشنق ثلاثة كل يوم في المتوسط. وأكره الخوف من العقاب المفسدين في الإدارة ودساسي الساسة في الحريم على الاعتدال، وأعيد النظام إلى الجيش، وخفف باشوات الولايات من استقلالهم واختلاساتهم، وضرب على أيدي قادة

الانكشارية وأعادهم إلى صوابهم وأفهمهم بأنَّهم جنود للدولة يدافعون عنها وليس لهم التدخُّل في شؤونها السياسية، فعاد الأمن والهدوء إلى الدولة بذلك والحمد لله، وكان لسياسته الحازمة وميله إلى الشدة والترهيب فيما يتصل بأمور الدولة أثره في انتظام أمور الدولة واستتب أمنها.

فلما تمرد جورج راكوكزي الثاني، أمير ترانسلفانيا، على السيادة العثمانية، اكتسح كوبريلي حركة التمرد بجيش يقوده بنفسه، وخلع راكوكزي، وفرض على البلاد تعويضاً باهظاً، وزاد الجزية التي تدفعها ترانسلقانيا للسلطان سنوياً من خمسة عشر ألف فلورين إلى خمسين ألفاً.

وفي الوقت نفسه حقق للدولة بعض الانتصارات الخارجية، فهزم البنادقة وأخذ منهم جزيرة "لمنوس" وجزرا أخرى. وكان البنادقة قد استولوا على هذه الجزر واحتلوا مدخل مضيق الدردنيل، وفرضوا حصارًا بحريًا على عاصمة الدولة العثمانية، ومنعوا دخول المؤن والغذاء إلى إستانبول، ولولا نجاح كوبريلي في فك هذا الحصار لتعرضت الدولة إلى خطر فادح.

وكانت الحرب قد استعرت بين الأسطول العثماني وأسطول البندقية في مياه بحر الادرياتيك حول السيطرة على منافذ التجارة، وكان الأسطول العثماني في عهد السلطان إبراهيم الأول قد نجح في افتتاح جزيرة كريت، وكانت تابعة لجمهورية البندقية، حيث أمر السلطان المذكور بتجهيز عمارة بحرية قوية؛ لفتح تلك الجزيرة؛ لأهمية موقعها الجغرافي الحربي عند مدخل بحر أرخبيل اليونان، ولتوسطها في الطريق بين الآستانة وولاية الغرب، ورَسَت العِمارة الحربية العثمانية أمام مدينة خانية، أهم ثغور الجزيرة في ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٠٥٥ هـ، ٢٤ يونيه سنة ١٦٤٥ م،وافتتحتها بدون حرب تقريبًا؛ لعدم وصول العِمارة الحربية البندقية إليها في الوقت المناسب، فانتقم البَنادِقة بحَرْق ثُغور بتراس، وكورون، ومودون من بلاد موره باليونان.

إلا أن أسطول البندقية استطاع أن يستعيد نشاطه مستغلا الضعف الذي ألم بالدولة العثمانية، فهزم أسطول البندقية الأسطول العثماني عند مدخل مضيق الدردنيل

واحتلت البندقية تنيدوس، وجزيرة لمنوس، وغيرهما، ومنعت بذلك المراكب الحاملة للقمح، وأصناف المأكولات عن الوصول إلى القسطنطينية من هذا الطريق، حتى غَلَت جميع الأصناف، ولكن الوزير محمد باشا الشهير بكوبريلي، أرسل المراكب في أواسط يوليه سنة ١٦٥٧م؛ لمحاربة سفن البنادقة المحاصرة لمدخل الدردنيل، وانتصرت عليها بعد موت القائد البحري البندقي الشهير موشنجو، واستردت منهم ما احتلوه من الثغور، والجزائر.

وكانت فرنسا قد حاولت أن تستفيد من الاضطرابات السابقة للكيد من الدولة العثمانية ولية الإنعام عليها فساعدت البنادقة سرا على الدفاع عن جزيرة كريت، وأمدتها بالسلاح؛ حتى ضبطت عدة مراسلات رمزية كانت مرسلة إلى المسيو دي لاهي مع شخص فرنساوي موظف في بحرية البندقية، وهو سلمها بنفسه إلى الوزير كوبريلي سنة ١٦٥٩م طمعا في المال، ولما لم يمكنه حل رموزها أرسل إلى الأستانة يستدعي السفير الفرنساوي فتظاهر بالمرض، وأرسل ولده إلى أدرنه مكانه، فلما مثل بين يدي الصدر الأعظم، وسأله عن معنى هذه الرموز لم يراع في جوابه آداب المخاطبة التي تليق بالصدر الأعظم، فأمر الصدر على الفور بسجنه في الحال، ولما بلغ خبر سجنه إلى والده سافر إلى أدرنه خوفا على حياة ولده، وقابل الوزير كوبريلي، فأمره كوبريلي أن يرشده إلى معنى الجوابات المرموزة فرفض، فقابل ذلك كوبريلي بالإبقاء على ابنه سجينا.

ويبدو أن فرنسا كانت تستعد للتنمر على الدولة العلية فأرسل ملك فرنسا سفيرا اسمه المسيو دي بلندل إلى السلطان يطلب فيه الاعتذار عن سجن ابن السفير، ثم عزل الصدر العظم (وهي اللغة التي اعتادت أن تخاطب بها العثمانيين بعد ضعفهم، ولكن من سوء حظهم أن زمنها لم يكن قد حل بعد) فرفض السلطان أن يقابله أو يدخل عليه في قصره، وأحاله إلى الصدر الأعظم إمعانا في إذلاله، فذهب إلى الصدر الأعظم فقابله بكل تعاظم وكبرياء، فأعلن ملك فرنسا مساعدة جزيرة كريت جهارا، وأرسل إليها أربعة آلاف جندي، وأجازت إلى البندقية جمع عساكر متطوعة من فرنسا، وأمدت النمسا بالمال طمعا في إشغال الدولة وانتقاما منها، إلا أن مسعاه فشل بعد

انتصار القوات العثمانية وسيطرتها على معظم كريت.

ولما وصل هذا الجواب إلى ملك فرنسا أراد إعلان الحرب على الدولة، ولولا نصائح الوزير كولبر لركبت فرنسا هذا المركب الخشن، وجلبت لنفسها ضررا فادحا بقفل أبواب الشرق أمام مراكبها، بل تمكن كولبر بحكمته وسياسته ومعاملة الدولة العلية باللين والخضوع من تجديد المعاهدات القديمة في سنة ١٦٧٣ م، وفوض ثانيا إلى فرنسا حق حماية بيت المقدس كما كان لها ذلك من أيام السلطان سليمان، وبذلك عادت العلاقات إلى سابق صفائها بين الدولتين.

وقبل وفاة محمد باشا كوبريلي زاره السلطان محمد الرابع ليعوده، وفي هذه الزيارة زود السياسي المحنك السلطان الشاب بوصايا غالية، فنصحه بإبعاد نساء القصر عن التدخل في سياسة الدولة، وقد شاهد بنفسه ما حدث لأبيه من قبل من جراء تلك السياسة، وأوصاه باختيار صدر أعظم يملك القدرة والكفاءة على تصريف أمور الدولة وقيادة الجيوش وإدارة شئون الحرب، وما كان من السلطان إلا أن طلب منه ترشيح من يراه جديرًا بهذا المنصب الجليل؛ فأشار عليه بابنه "أحمد باشا كوبريلي"؛ ثقة منه في كفاءته وموهبته.

أحمد كوبريلي:

ولد أحمد باشا كوبريلي في العاصمة إستانبول سنة (١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م) وعُني أبوه بتربيته وتعليمه، فأحسن تربيته وتعليمه، فقد أنشأه على الإسلام، وعلمه أمور السياسة والقيادة، وأعده ليكون أهلاً للمناصب الرفيعة، ولم يخيّب الولد رجاء أبيه وأمله، فكان ذكيًا موهوبًا، تخرّج في القسم العالي لمدرسة إستانبول، واشتغل بالتدريس فترة، ثم انصرف إلى السياسة والإدارة، ترشحه مواهبه وإمكاناته العالية؛ فتولى إدارة "أرض روم" في جنوب شرق تركيا، فأحسن إدارتها وضبط أمورها، ثم انتقل في سنة (١٠٧١هـ = ١٦٦٠م) واليًا على الشام، فأصلح أحوالها المختلة ونهض بمرافقها، وأحل الأمن والهدوء بها، ولم يمكث هناك طويلا فقد استلزم مرض أبيه الصدر الأعظم أن يكون بجواره، وأن يقوم عنه ببعض المهام، وكان الوالد يثق في ابنه وكفاءته فقد أعده لمثل هذا اليوم، وهيأه لجلائل الأعمال وعظائم الأمور؛ ولذلك لم يكن

عجيبًا أن يأخذ السلطان محمد الرابع بنصيحة صدره الأعظم، وهو يرى ابنه الشاب يحل مكان أبيه المريض في إدارة شئون الدولة بكفاءة ومهارة عالية.

وكان أحمد باشا كوبريلي أصغر من تولى الصدارة العظمى في تاريخ الدولة العثمانية، فلم يتجاوز عمره السادسة والعشرين، لكن هذا العمر الصغير كان مليئًا بالموهبة والنضج الذي يتجاوز السنين الطويلة ويعوض تجارب الأيام، فاتجه إلى الميدان الخارجي ورآه في حاجة إلى جهوده حتى يعيد للدولة هيبتها التي اهتزت بعد سليمان القانوني، وترك متابعة الأمور الداخلية إلى "قرة مصطفى باشا" يتولى أمرها وتدبير شئونها. وأحسن سياسة الدولة ورعاية أحوال العباد، واستطاع في وقت قصير أن يعيد أمجاد الدولة العثمانية التي دبَّ في أوصالها الضعف، ورفع راية الجهاد، واستطاع أن يفتح أعظم قلاع النمسا، وكان ذلك من أثر تربية والده له.

وبدأ صدارته بإعلان الدولة العثمانية الحرب على النمسا، وكانت الدولة الغربية ترصد الدولة العثمانية لتنتهز الفرصة لتنقض عليها، وجرّأها على ذلك ضعف الخلفاء العثمانيين وضعف قادتهم، وقد انتهزت فرصة سوء الأحوال التي مرت بالعثمانيين، فنقضت معاهدة "سيتفا توروك" المبرمة بين الدولتين، وبنت قلعة حربية على الحدود بينهما، على الرغم من إخطار الدولة العثمانية لها بمخالفة ذلك لبنود المعاهدة.

رفع الصدر الأعظم أحمد كوبريلي راية الجهاد، ورفض الصلح مع النمسا والبندقية، وجهز جيشًا كبيرًا من المسلمين ليعيد إلى الأذهان أمجاد الدولة العثمانية المجاهدة، تحرك كوبريلي من أدرنة، وبلغ المجر على رأس جيش كبير يبلغ نحو مائة وعشرين ألف جندي، مزودا بالمدافع والذخائر والمؤن المحملة على ستين ألف جمل وعشرة آلاف بغل، ودخل سلوفاكيا ضاربًا كل الاستحكامات العسكرية التي كانت في طريقه حتى وصل إلى قلعة "نوهزل" الشهيرة، وهي تقع شمال غرب "بودابست" على الشرق من "فيينا" بنحو ١١٠ كم، ومن "براتسلافيا" بنحو ٨٠ كم، وهذه القلعة بالغة التحصين فائقة الاستحكامات حتى عُدّت أقوى قلاع أوروبا، بدأ الجيش العثماني في حصار القلعة في (١٣ من المحرم ١٠٧٤هـ / ١٧ من أغسطس ١٦٦٣م)، ودام الحصار سبعة وثلاثين يومًا، وهو ما اضطر قائد الحامية إلى طلب الاستسلام فوافق

الصدر الأعظم، واشترط خروج الحامية دون سلاح أو ذخائر، فأخلوها في (٢٥ من صفر1074 هـ / ٢٨ من سبتمبر ١٦٦٣م)، وكان لسقوط القلعة المحصنة دوي هائل في أوروبا، وبعدها استسلمت حوالي ثلاثين قلعة نمساوية. وألقى الله الرعب في قلب الأوربيين بعد فتح هذه القلعة، فقد كان في اعتبارهم أن الدولة العثمانية دولة ضعيفة لا تستطيع دفع الهجوم عنها من أي دولة أوربية، فضلاً عن أن تهاجم وتفتح قلاعًا، لكن ما قام به أحمد كوبريلي من إصلاحات أعادت أمجاد الدولة العثمانية من جديد.

فلما نشبت ثورة أخرى في ترانسلفانيا بقيادة يوحنا كيمينيي، عززها ليوبولد بعشرة آلاف مقاتل يقودهم قائد فذ من قواد ذلك العصر هو الكونت الإيطالي ريموندو دي مونتيكوكولي. ورد أحمد كوبريلي بالزحف بجيش عدته ١٢٠,٠٠٠ مقاتل تحت قيادته حاول به استكمال فتح المجر. وطلب ليوبولد ملك النمسا المعونة، واستجابت الولايات الألمانية، البروتستنتية والكاثوليكية على السواء، بالمال والرجال، وأسهم لويس الرابع عشر بأربعة آلاف جندي بعد أن تخلى عن تحالفه مع العثمانيين. ولكن المقاومة بدت أمراً ميئوساً منه حتى بعد هذا كله، وتوقعت أوربا سقوط فيينا، واستعد ليوبولد للرحيل عن عاصمته. وكانت قوات مونتيكوكولي أقل كثيراً من قوات العدو ولكنها أفضل تزوداً بالمدافع. ولم يجرؤ على لقاء الترك في أرض مكشوفة تعطي ميزة للكثرة العددية، فناورهم ليحاولوا عبور نهر رابا عند زنتجوتهارد، على نحو ثمانين ميلاً جنوبي فيينا، وهاجم كل كتيبة تركية بمجرد وصولها إلى ضفة النهر اليسرى. وكتب النصر لإستراتيجيته، وللبطولة الفذة التي قاتل بها أفراد الفرقة الفرنسية (أول أغسطس ١٦٦٤)، في معركة أنقذت أوربا مرة أخرى من أن يغرقها طوفان المسلمين.

ولكن، كما ترك انتصار ليبانتو قبل قرن من الزمان (١٥٧١) العثمانيين محتفظين بقوتهم مفيقين بسرعة من كبوتهم، فكذلك اضطر الإمبراطور، بسبب قدرتهم على تعويض خسائرهم، وجيشهم الذي ما زال محتفظاً بضخامته، وعدم ثقة ليوبولد بحلفائه التواقين إلى العودة لأوطانهم-اضطر إلى أن يبرم مع السلطان هدنة تمتد عشرين عاماً

(١٠ أغسطس ١٦٦٤)، واتفق الفريقان إلى احترام بنود معاهدة "سيتفا توروك"، ترك بمقتضاها معظم المجر تحت حكم الترك، واعترف فيها ليوبولد بالسيادة التركية على ترانسلفانيا، وأن تبقى كافة القلاع بما في ذلك القلعة التي كانت موضع النزاع تحت سيادة العثمانيين، ودفع للسلطان "غرامة" بلغت ٢٠٠,٠٠٠ سكة ذهبية، أما أحمد كوبريلي، الذي خسر المعركة وكسب الحرب، تلك الحرب التي دامت سنة وأربعة أشهر ، فقد عاد إلى القسطنطينية مكللاً بالغار.

وبعد أن رأت فرنسا قوة المسلمين حاولت فرنسا التقرب من الدولة العثمانية، وتجديد الامتيازات، غير أن الصدر الأعظم رفض ذلك، ثم حاولت فرنسا التهديد حيث أرسل "لويس الرابع عشر" ملك فرنسا السفير الفرنسي مع أسطول حربي، وهذا ما زاد الصدر الأعظم إلا ثباتًا، وقال: (إن الامتيازات كانت منحة، وليست معاهدة واجبة التنفيذ)، لقد تراجعت فرنسا أمام تلك الإرادة الحديدية، واستعملت سياسة اللين والخضوع للدولة العثمانية.

قضى كوبريلي الشتاء في بلجراد، ثم تحرّك في الربيع في ١١ من شوال ١٠٧٤هـ / ٧ من مايو ١٦٦٤م، مستكملاً فتوحاته التي ألقت الفزع في قلوب ملوك أوربا، ونجح في الاستيلاء على قلعة "ينى" في "سرنوار "التي تقع في الجنوب الشرقي من فيينا، وهذه القلعة هي التي تسببت في المشكلة واشتعال الحرب بين الدولتين.

وكان قد مضى على فتح العثمانيين لجزيرة كريت واحد وعشرون سنة، وبقيت قلعة "كاندية" وعدة قلاع تقاوم العثمانيين؛ بسبب المساعدات التي كانت تتلقاها تلك القلاع من أوروبا، التي اعتبرت مسألة سقوط كريت أمر يخص الكرامة الأوروبية، فوقفت بكل ثقلها خلف تلك الجيوب التي تدافع عن الجزيرة.

وتحرك كوبريلي وخرج السلطان في وداعه، وتحرك بأسطول بحري مكون من ١٦٧ قطعة بحرية، وشرع في حصار "كاندية" في صباح ٢٩ من رمضان ١٠٧٧هـ / ٦٢ من مارس ١٦٦٧م، ودام الحصار نحو سبعة أشهر، ولم تسقط القلعة، وبذل العثمانيون في حصارها ثمانية آلاف جندي، واستهلكوا ٢٠٠ ألف قنطار من البارود،

لكن القلعة بقيت صامدة، واضطر كوبريلي إلى رفع الحصار، ريثما ينقضي فصل الشتاء، وعسكر بجيشه في خندق تحت الأرض أمام القلعة المحصنة.

وبعد انقضاء الشتاء عاود القائد الماهر حصاره مرة أخرى في ٨ من المحرم ١٠٧٩هـ / ١٨ من يونيو ١٦٦٨م، وطالت مدة الحصار حتى تجاوزت العامين كانت خلالها لا تنقطع الإمدادات العسكرية عن المدينة المحاصرة، لكن ذلك لم ينجح في دفع العثمانيين وإجبارهم على رفع الحصار، ودارت مفاوضات على تسليم المدينة، وفي أثناء ذلك جمعت الأساطيل الفرنسية والبابوية والمالطية جنودها والجرحى وغادرت المدينة، وعقد الطرفان معاهدة في ٨ من ربيع الآخر ١٠٨٠هـ/ ٥ من سبتمبر ١٦٦٩م تنص على تتنازل البندقية عن "كاندية" بما فيها من مدافع وأسلحة للدولة العثمانية، وأصبحت بذلك جزيرة كريت تابعة للدولة العثمانية باستثناء ثلاث قلاع تُركت للبندقية لاستعمالها في الأغراض التجارية.

وقضى كوبريلي بعد إتمام الفتح وقته في إصلاح القلاع والأسوار والأبنية وتجديد المنشآت التي تأثرت بقذائف المدفعية، ثم غادر الجزيرة في ١٤ من ذي الحجة ١٠٨٠هـ /٥ من مايو ١٦٧٠م بعد أن ظل بها ثلاث سنوات ونصف السنة.

وفي أثناء تولي كوبريلي الصدارة العظمى دخلت بلاد القوقاز جنوبي روسيا في حماية الدولة العثمانية، فلما حاولت بولونيا الاعتداء على بلاد القوقاز استنجدت هذه البلاد بدولة الخلافة العثمانية التي سارعت إلى نجدتها، وخرج على رأس الجيش السلطان محمد الرابع وفتح عددًا من هذه البلاد، واضطر ملك بولونيا إلى طلب الصلح فأجابه السلطان، ووُقِّعت اتفاقية بينهما في ٢٥ من جمادى الأولى ١٠٨٣هـ / ١٨ من سبتمبر ١٦٧٢م، عُرفت باسم معاهدة "بوزاكسي" غير أن هذه المعاهدة رفضها أمراء بولونيا فاشتعلت الحرب من جديدة دون نصر حاسم، واضطر البولنيون إلى العودة إلى المعاهدة السابقة، وكانت هذه الحرب هي آخر أعمال الصدر الأعظم أحمد كوبريلي.

لقي أحمد كوبريلي ربه في ٢٤ من رمضان ١٠٨٧هـ/٣٠ من أكتوبر ١٦٧٦م عن عمر يناهز واحدا وأربعين عاما حفلت بجلائل الأعمال وقضى معظمها مجاهدًا

على الثغور، وكان سياسيًّا بارعًا وقائدًا فذًّا، استطاع أن يعيد للدولة العثمانية مجدها وهيبتها بين الدول بعد أن كادت تطيح بها، ومنح الدولة العثمانية نصف قرن آخر بعده تستمتع بقوتها ومكانتها الدولية المرموقة، والأهم أنه قضى على نفوذ الحرملك طوال فترة ولايته للصدارة العظمى، ومنع سلطانات الحريم من لعب أيّ دور سياسي رافضا الاستماع لمطالبهن بتحقيق نفوذ أدبي على السلطان.

ويعد أحمد باشا كوبريلي واحدًا من أكبر الشخصيات التي تولّت منصب الصدارة العظمى في التاريخ العثماني، ودامت له خمسة عشر عاما متصلة، نجح في أثنائها في إعادة المجد القديم للدولة بفضل ذكائه وكفاءته على الرغم من صغر سنه حين تولى المنصب الكبير.

وكان كوبريلي عالما في الفقه والكلام والتاريخ وهذا ما يميزه عن والده، وإن ورث منه عزمه ودهاءه، وكان واضح التفكير وسريع البديهة ينفر من المرائين والثرثارين، يُؤثر العمل على الكلام، ويدع الأعمال تتكلم عن نفسها، وكان غنيا، وقد خصص معظم ثروته للأعمال الخيرية، وفي أخريات أيامه كان يحب مجالسة أصدقائه في أدرنة، يتبادلون الحديث عن الأدب والشعر والتاريخ، وتكونت لديه مكتبة ضخمة ضمَّت روائع الكتب وأندرها وأنفسها، وعيّن لها أربعة حفاظ أمناء.

وكانت مكتبة كوبريلي من أعظم المكتبات التركية التي أنشأها أحمد باشا "أحد وزراء الدولة العثمانية، بل أوحدهم، الذي عزت به السلطنة، وافتخرت به الدولة وكان في وقته من مفاخره السامية وأفراده المتعالية وبه ظهر رونق الزمن وعلا قدر الفضل، وكان عصره إلى أواسط مدته أحسن العصور ووقته أنظر الأوقات ولم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين، وقانون الشريعة مثله، صعباً شديداً في أمور الشرع سهلاً في أمور الدنيا، وكان حازماً مدبراً للملك قائماً بضبطه، وملك من نفائس الكتب وعجائب الذخائر ما لا يدخل تحت الحصر ولا الضبط بالإحصاء".

وكان الرجل الجامع لهذه النفائس من المخطوطات على نحو كبير من العلم والمعرفة بأصول الشرع الحنيف، ومعرفة تامة بما تحتويه هذه المخطوطات، وأسماء مؤلفيها وما تحتويه من مواضيع.

وهذه المكتبة كما يقول الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي، مدير عام مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باسطنبول سابقاً الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي الآن: إن مكتبة كوبريلي التي تقدم اليوم فهرسها للباحثين تضم مخطوطات نادرة، وهي على الرغم من قلة عدد المجلدات المحفوظة بها إلا أنها تُعدُّ واحدة من أهم مكتبات العالم التي تضم مخطوطات إسلامية قيمة ، وقد أنشأها كوبريلي فاضل أحمد باشا وهي تتكون من ثلاثة مجاميع أوقفها كوبريلي فاضل أحمد باشا ورجلان جاءا بعده من هذه الأسرة ، هما : كوبريلي حاجي أحمد باشا وكوبريلي محمد عاصم بك، والمجموع الذي أوقف فاضل أحمد باشا يحمل قيمة عظيمة وخاصة في مخطوطاته.

وقبل وفاته رحمه الله سنة خمس وأربعين وألف، وقف كتبه ووضعها في خزانة بتربته ورتب لها أربع حفاظ، وفيها من نفائس الكتب ما لا يوجد في مكان، وقد قدرت قيمة تلك الكتب من حيث قيمة الورق وتجليدها فقط بأربعين ألف قرش ما يوازي أربعين مليون دولار أميركي حاليا.

وبعد وفاة أحمد كوبريلي في ١٦٧٦ وقد أنهك قواه وهو بعد في الحادية والأربعين في مد الأملاك التركية إلى أوسع مداها الأوربي. وخلع السلطان محمد الرابع منصب الوزارة على صهره قرة مصطفى، الذي أبهج لويس الرابع عشر بوعده بتجديد الحرب على عدوته اللدود النمسا، وشج قرة نشوب ثورة (١٦٧٨) قام بها الوطنيون المجريون بزعامة أمري توكولي، الذي ساءه قمع النمسا العنيف للروح القومية وللبروتستنتية في المجر النمساوية، حتى حمله هذا على عرض الاعتراف بالسيادة التركية على جميع أرجاء المجر إذا دعم الأتراك ثورته. أما ليوبولد فقد أقلع بعد فوات الوقت، عن سياسة القمع وأعلن التسامح الديني في المجر. وأرسل لويس الرابع عشر المدد المالي إلى توكولي، ووعد سوبيسكي بالاستيلاء على سيليسيا والمجر إذا ربط بيو بولندة وفرنسا في حلف ضد الإمبراطور. أما ليوبولد فلم يكن في وسعه أن يعد سوبيسكي بأكثر من أرشيدوقة عروساً لابنه، وبتعهد بتأييد جهود سوبيسكي لجعل العرش البولندي في فرعه من الأسرة المالكة. ولسنا نعرف على

التحقيق دوافع الملك إلى المبادرة بمساعد النمسا على العثمانيين، وكل ما نستطيعه أن نقول إنها كانت من أعجب وأخطر الأحداث في التاريخ الحديث.

وأحس قرة مصطفى أن الخصومات بين الهابسبورج والبوربون، وبين الكاثوليكية والبروتستنتية، تتيح له فرصة الاستيلاء على فيينا، وربما على أوربا بأسرها. وكان الترك يفاخرون بأنهم حولوا القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية قلعة إسلامية في القرن الخامس عشر، وحولوا كنيسة القديسة صوفيا جامعاً، فكذلك أعلنوا الآن أنهم لن يقفوا حتى يفتحوا روما ويربطوا خيلهم في صحن كنيسة القديس بطرس، وفي ١٦٨٢ حشد قرة مصطفى في أدرنة قواته ومؤنه التي أتته من الجزيرة العربية والشام والقوقاز وآسيا الصغرى وتركية أوربا، وتظاهر أنه يخطط للهجوم على بولندة. وفي ٣١ مارس ١٦٨٣ وبدأ السلطان والصدر الأعظم زحفهما الطويل على فيينا. وكان الجيش كلما تقدم يضم إليه الإمداد من كل ولاية تركية في طريقه، فانضمت إليه فرق من الأفلاق، وملدافيا، وترانسلقانيا، حتى إذا بلغ أوسييك (اسزيك) على الدرافا كان يعد ٢٥٠,٠٠٠ مقاتل، ويحوي بين صفوفه الإبل والفيلة والمؤذنين والأغوات والحريم. هناك أذاع توكولي إعلاناً دعا فيه المسيحيين المحيطين بالمنطقة إلى عدم الهجوم على النمسا، وأمنهم على حياتهم وأملاكهم، ووعدهم بحرية العبادة في حمى السلطان، ففتح الكثير من المدن أبوابه للغزاة.

وعاد ليوبولد يستغيث بالإمارات الألمانية ولكنها تباطأت. ووضع جنوده البالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ تحت إمرة شارل الخامس دوق اللورين، الذي وصفه فولتير بأنه أنبل أمير في العالم المسيحي، وترك شارل حامية من ١٣,٠٠٠ رجل في فيينا، ثم تقهقر إلى تولن، حيث انتظر وصول البولنديين. وفر ليوبولد إلى باساو، ولامه شعبه لأنه لم يعد عاصمة ملكه للحصار المرتقب منذ زمن طويل. فلقد كانت حصونها مهدمة، وحاميتها لا تبلغ عشر العدد الزاحف. وفي ١٤ يوليو ظهر الأتراك أمام المدينة. وبعث ليوبولد إلى سوبيسكي يرجوه أن يأتي فوراً قبل أن تصل مشاته البطيئة الحركة قائلاً "إن اسمك وحده، الذي يرهبه العدو كثيراً، كفيل بالنصر". وأقبل سوبيسكي بثلاثة آلاف فارس. وفي ٥ سبتمبر وصلت مشاته وعدتهم ٢٣,٠٠٠ مقاتل.

وبعد يومين وصل ١٨,٠٠٠ مقاتل من الولايات الألمانية، فأصبح عدد جيش المسيحيين الآن ٦٠,٠٠٠. ولكن فيينا كانت آنذاك تتضور جوعاً، وقلاعها تتهاوى تحت نيران المدفعية التركية، فما هو إلا أسبوع آخر من الحصار حتى تسقط المدينة.

وفي صباح ١٢ سبتمبر الباكر، هاجم المسيحيون-الذين كانوا الآن تحت قيادة سوبيسكي العليا-الأتراك المحاصرين. ولم يكن قرة مصطفى يصدق أن البولنديين آتون، ولأن القوات المسيحية ستهجم أولاً، فلقد رتب كل شيء للحصار لا للمعركة، وزين ضباطه خنادقهم، بقطع النسيج المرسوم والقرميد، أما هو فزود خيمته بالحمامات، والنافورات، والحدائق، والمحظيات. وأخذ خيرة جنده على غرة في خنادقهم، فمزقوا إرباً إرباً. وشاعت الفوضى في جيشه المخلط الذي جمعه من ولايات لا يثير حماستها ولاء السلطان البعيد، أمام المسيحيين الذين ألهمهم الشعور بأنهم ينقذون أوربا والمسيحية. وبعد ثماني ساعات قطع الظلام القتال. فلما بزغ الفجر الجديد وجد المسيحيون الذين ما زالوا غير واثقين من النصر-لشدة فرحهم أن الأتراك قد لاذوا بالفرار مخلفين وراءهم ١٠,٠٠٠ قتيل ومعظم معدات الجيش في المعسكر. أما المسيحيون ففقدوا ٣,٠٠٠ رجل.

وأراد سوبيسكي أن يطارد الترك، ولكن الجنود البولنديين رجوه أن يسمح لهم بالعودة إلى وطنهم بعد أن أدوا مهمتهم. ودخل الملك الظافر فيينا وكتدرائيتها ليقدم الشكر لله، وفي طريقه هتف له الشعب العارف بصنيعه منقذاً من السماء، وناضل أفراده ليلمسوا ثوبه ويقبلوا قدميه، وأحسوا أنه ما من شيء في سجل الفروسية يفوق مأثرته تلك. فلما عاد ليوبولد إلى عاصمته (١٥ سبتمبر) لم يلق غير استقبال فاتر من أهلها. وسأل معاونيه هل حدث أن استقبل إمبراطور مجرد ملك منتخب، وما المراسم التي يجب إتباعها في هذه الحالة، وتباطأ في لقاء سوبيسكي، وأخيراً حياه شاكراً له صنيعه شكراً متواضعاً، وقد توجس ما أن يكون الدافع للبطل في رغبته في مطاردة الترك خطة لاقتطاع مزيد من الملك لنفسه ولأسرته، فلم تبدأ المطاردة إلا في ١٧ سبتمبر، ولم يلتحم الجيش بالترك المتقهقرين إلا بعد ذلك بعشرة أيام. وعند باركاني، قرب الدانوب، أحرز سوبيسكي وشارل انتصاراً حاسماً آخر.

ثم قاد الملك جيشه عوداً إلى بولندة بعد أن أنهكه السير والقتال والدوزنتاريا، فدخل كركاو في ليلة ميلاد ١٦٨٣، وفي اليوم التالي أعدم السلطان قرة مصطفى، وألفت النمسا وبولندة والبندقية، بإلحاح البابا إنوسنت الحادي عشر، عصبة مقدسة لمواصلة الحرب ضد الترك (١٦٨٤). وفتح فرانشسكو موروزيني المورة (البلوبونيز) للبندقية، وفي ١٦٨٦ حاصر أثينا واستولى عليها في ٢٨ سبتمبر، وأثناء هذا الحصار دمرت مدفعيته البروبيلايا والبارتينون، اللذين استعملهما الأتراك مخزناً لبارودهم، وقد استعاد الترك أثينا وأتيكا في ١٦٨٨، والمورة في ١٧١٥.

وفي غضون هذا هزم شارل اللوريني الترك في جران (ازترجوم) في ١٦٨٥، وفي السنة نفسها، وبعد عشر أيام من الحصار، استولى على بودا -عاصمة المجر القديمة- التي كانت في قبضة الأتراك منذ ١٥٤١. وفي ١٦٧٨ قاد شارل القوات النمساوية إلى النصر في هاركاني، قرب موهاكس، حيث استهل انتصار سليمان القانوني عام ١٥٢٦ عصر التفوق العثماني. وأنهت معركة "موهاكس الثانية" هذه سلطة الأتراك في المجر، التي أصبحت الآن ملكاً للملكية النمساوية. واعترفت ترانسلفانيا بسيادة الإمبراطور الهابسبورجي، وأدمجت (١٦٩٠) في الإمبراطورية النمساوية-المجرية. وفي ١٦٨٨ استولى ماكس ايمانويل البافاري على بلغراد. وأعلن ليوبولد أن الطريق أصبح الآن مفتوحاً إلى القسطنطينية، وأنه قد آن الأوان وواتت الفرصة لطرد الأتراك من أوربا.

ولكن لويس الرابع عشر خف لنجدتهم، ذلك أن حرب البوربون مع الهابسبورج كانت في نظر ذلك "الملك المسيحي جداً" أهم من الصراع بين المسيحية والإسلام، وكان يرقب في غيرة متزايدة انتصارات العصبة المقدسة واتساع ملك الهابسبورج وعلو مكانتهم. وفي ١٦٨٨، استأنف حربه مع الإمبراطور، ضارباً صفحاً عن إبرامه هدنة عشرين عاماً معه قبل ذلك بأربع سنين فقط، وأرسل جيشاً إلى البالاتينات. فأرسل ليوبولد شارل وماكس ايمانويل لملاقاة الهجوم على الراين، وتوقف الزحف على الترك، وتجدد الهجوم التركي.

واستوزر السلطان الجديد، سليمان الثاني، بعد خلع السلطان محمد الرابع، رجلاً

آخر من أسرة كوبريلي هو مصطفى أخو أحمد باشا كوبريلي، وهدأ مصطفى خواطر المسيحيين في تركية بتوسيعه حرية العبادة، ونظم جيشاً جديداً، واستولى على بلغراد من جديد (١٦٩٠). ولكنه قتل بعد سنة، ودحر الأتراك عند سلانكامين.

وتولى السلطان مصطفى الثاني قيادة الجيش بشخصه، ولكن المسيحيين هزموه في سنة (١٦٩٧) وكان يقودهم أوجين أمير سافوي، وطلب مصطفى الصلح، وأبرم ليوبولد معاهدة كارلوفتز (١٦٩٩) مع تركيا وبولند والبندقية، مغتبطاً لأن يده أطلقت في محاربة لويس، ونزلت تركيا عن كل دعاواها في ترانسلفانيا والمجر ونزلت عن غربي أوكرانيا لبولندة، وسلمت المورة ودلماشيا الشمالية للبندقية، واحتفظت بالبلقان كله دلماشيا الجنوبية، والبوسنة، والصرب، وبلغاريا، ورومانيا، ومعظم اليونان، ولكن المعاهدة عينت نهاية الخطر التركي على أوروبا.

وكانت الأجواء تسير من سيء إلى أسوء، رغم قيام الصدر الأعظم محمد كوبريلي، وهو الثالث من تلك الأسرة الذي يلي هذا المنصب، بعدد من الإصلاحات وتحقيقه عدد من الانتصارات في الجبهات الأوروبية، لكن عوامل الضعف عادت لتتسرب إلى جسم الدولة العثمانية من جديد، خصوصا مع صعود نجم روسيا القيصرية والنمسا ما شكل اختلال في ميزان القوى لصالح القوى الأوروبية على حساب الدولة العثمانية التي أخذت طريقها نحو نهايتها وفقدت أيّ مبادرة حربية واعتنقت سياسة دفاعية بحتة، ما أفقدها نفوذها الدولي سريعا وعرفت في أوساط السياسة الأوروبية برجل أوروبا المريض وبحث مصير الدولة العثمانية في العواصم الأوروبية تحت ملف المسألة الشرقية طوال القرن التاسع عشر الميلادي.

اكتست العلاقات العثمانية الأوربية منذ أواخر القرن الثامن عشر طابع التأزم نتيجة لضعف العثمانيين اقتصاديا و عجزهم عسكريا على مواجهة الدول الأوربية، ففي الوقت الذي حققت فيه أوربا تراكما وفيرا في رأس المال وفي تسيير الاقتصاد سمح لها بإدماج الدولة العثمانية في الدورة الاقتصادية الأوربية، كان العثمانيون يعانون من نشاط الانكشارية و من اضطراب أمور الإدارة و تحول الجماعات المتنفذة من خدمة الدولة إلى تحقيق مصالحها الخاصة، هذا في الوقت الذي كانت فيه أقاليم

الدولة العثمانية تعرف تراجعا ديمغرافيا وجمودًا اقتصاديا زاد من خطورته تحكم الجماعات اليونانية و الأرمينية و الأقليات الأوربية في مقاليد هذا الاقتصاد و مساعدتهم على ربط الدولة العثمانية بنظام الاقتصاد الرأسمالي الأوربي المركنتيلي، الأمر الذي أدى إلى القضاء على توازن الاقتصاد المحلي و حول الامتيازات الأوربية إلى مكاسب ثابتة و جعل مقدرات الدولة العثمانية في يد الدوائر المالية الأوربية.

ترتب عن هذا الواقع تغير في موقف الأوربيين و تحول في سياساتهم إزاء الباب العالي و بين بعضهم البعض، و هذا ما اصطلح على تسميته "بالمسألة الشرقية"، و أصبح هذا الاصطلاح متداولا في اجتماعات الساسة الأوربيين منذ مؤتمر فيرونا ١٨٢٢ م، و يعبر عن الواقع السياسي الذي نتج عن ضعف الدولة العثمانية و تكالب الدول الأوربية على اقتطاع أجزاء منها و فرض نفوذها عليها و بسط حمايتها على طوائف من رعاياها. على أن رغبة الأوربيين في طرد الأتراك من قارتهم و تصفية الدولة العثمانية لم تحل دون تباين مواقفهم من تحديد الوقت الملائم و الكيفية التي يتم بها ذلك، و هذا ما جعل المسألة الشرقية قضية سياسية محورية تحدد سياسات الدول الأوربية و تقرر مصير الدولة العثمانية.

فقد تميزت سياسة كل من النمسا و روسيا في إطار المسألة الشرقية بالتوسع العسكري على حساب ممتلكات الدولة العثمانية بالبلقان و مناطق البحر المتوسط و القوقاز، فتحول آل هابسبورغ من القيام بدور الخط الدفاعي عن أوربا ضد الخطر التركي الذي هدد عاصمتهم فيينا مرتين (١٥٢٩ م و ١٦٨٣ م)، إلى قوة ضاغطة لإبعاد التهديد العثماني عن المجر و إضعافه في أقاليم البوسنة والهرسك و الصرب عن طريق شن الحروب و عقد المعاهدات، و هذا ما مكن النمساويين من اقتطاع إقليم البوسنة و الهرسك من الدولة العثمانية. بعدها غلب على موقف النمسا من الدولة العثمانية المصالح الاقتصادية و أثرت فيه متطلبات المؤتمرات الدولية، فحاول حكام فيينا جاهدين إبعاد التحرشات الروسية بالبلقان عن منطقتين كانوا يعتبرونهما حيويتين بالنسبة لهم، و هما مصاب نهر الدانوب على البحر الأسود حيث تنتهي خطوط الملاحة النهرية لوسط أوربا، و ميناء سالونيك المنفذ البحري الرئيسي لمنتجات النمسا

نحو الشرق.

أما روسيا فقد تحولت نتيجة السياسة التوسعية لبطرس الأكبر (١٦٨٢-١٧٢٥ م) ثم كاترين الثانية (١٧٦٢-١٧٩٦ م) إلى عدو تاريخي للعثمانيين منذ القرن السابع عشر، فاعتبر القياصرة الروس أنفسهم ورثة شرعيين للدولة البيزنطية و مخولين باسترجاع القسطنطينية مقر الكنيسة الأرثوذكسية من الأتراك ومؤهلين للدفاع عن حقوق الأرثوذكس من رعايا الدولة العثمانية.

تحول هذا الموقف الروسي من الدولة العثمانية، و الذي يقوم على خلفية تاريخية، إلى إستراتيجية بعيدة المدى التزم بها قياصرة سان بترسبورغ، و تحولت إلى مشروع يمكن تحقيقه بفعل المكاسب التي حققتها الجيوش الروسية في الحروب الثلاث مع الدولة العثمانية. فقد تمكن الروس من الاستيلاء على مناطق القوقاز و كوبان وشبه جزيرة القرم، و حصلوا على حق إبحار سفنهم عبر المضايق، و خول لهم حق الحماية الروحية لأرثوذكس الدولة العثمانية، إثر الحرب الأولى (١٧٦٨-١٧٧٤ م) بفعل معاهدة كوتشوك كينارجي (٢٢ جويلية ١٧٧٤ م)، و في الحرب الثانية (١٧٨٨-١٧٩٢ م) التي انتهت بمعاهدة ياسي، بسطت روسيا سيادتها على سواحل البحر الأسود و تخلى لها العثمانيون عن حقوقهم التاريخية بشبه جزيرة القرم و سمحوا بتأسيس كنيسة روسية في القسطنطينية، الأمر الذي اعتبره الروس فيما بعد بمثابة التسليم بمطالبهم في حماية الرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية، أما الحرب الثالثة (١٨٢٧-١٨٢٩ م) التي وضعت حدا لها معاهدة أدرنه (١٤ سبتمبر ١٨٢٩ م)، فقد أحرزت فيها كاترين الثانية على حق الملاحة لسفنها الحربية عبر المضايق و أصبحت لها حقوق تاريخية معترف بها في مصاب الدانوب و دواخل إقليم القوقاز و بلاد اليونان. و لم تعد روسيا، العدو التاريخي للدولة العثمانية، حريصة على التقيد بمبادئ المؤتمرات الأوربية (١٨١٥-١٨٢٠ م) القائمة على احترام الشرعية الدولية و الداعية إلى المحافظة على حقوق الممالك و الدول في بسط سياساتها على رعاياها، ما دامت هذه المقررات في نظر قياصرة روسيا تحد من أطماعهم التوسعية في الدولة العثمانية، و تتعارض و سياستهم المناصرة للمطالب القومية للشعوب البلقانية التي تشترك مع

روسيا في الجامعة السلافية.

وقد عمل الروس على تنسيق سياساتهم و تحقيق المكاسب على حساب الدولة العثمانية حسب ظروف التوازن الأوربي، فعقد قيصر روسيا مع نابليون بونابرت معاهدة تلسيت (١٨٠٧ م)، و دخل طرفا مؤثرا في سياسة الوفاق الأوربي و عضوا فاعلا في الحلف المقدس (١٨١٤م). هذا في الوقت الذي كان فيه الساسة الروس يشجعون الميول القومية للعناصر السلافية بالبلقان ويحاولون الترويج لها تحت غطاء الجامعة السلافية الذي يتماشى مع مخططاتهم، فأصبحوا طرفا مؤثرا في ثورة الصرب على الدولة العثمانية بقيادة جورج قارة (١٨٠٤-١٨١٥ م)، و في الحرب التي كان يشنها اليونانيون من أجل الحصول على الاستقلال عن العثمانيين و التي بدأت بحركة عصيان محلية (١٨١٢ م) لتصبح ثورة عامة وجدت كل العون و المساعدة من الدول و الشعوب الأوربية في فترة لاحقة (١٨٢١-١٨٢٧ م).

ولقد أكسبت التنظيمات السرية اليونانية وفي مقدمتها جمعية هيتيريا (تأسست سنة ١٨١٢م) و اتحاد أصدقاء اليونان (١٨١٤م) التي جمعت الأنصار واستطاعت تكوين عصابات مناهضة للحكم العثماني، وقد وجدت في تمرد علي باشا حاكم يانينيا (Janina) (١٨٢٠م) على الدولة العثمانية فرصة ملائمة للقيام بالثورة، فأعلن القديس باتراس رفضه سلطة الباب العالي (٢٥ مارس ١٨٢١ م) و اكتسح الثوار اليونانيون شبه جزيرة المورة وأعلنوا استقلال بلاد اليونان بمدرج إبيدور (جانفي ١٨٢٢ م)، فاضطر السلطان إلى الاستعانة بقوات محمد علي والي مصر و إلى طلب إمدادات بحرية من إيالات شمال إفريقيا، فحققت القوات المصرية و العثمانية نجاحات كادت أن تخمد التمرد لولا تدخل الأوربيين و تقديمهم العون و المساندة للثورة وإلحاقهم الهزيمة في نافارين بالقوات المصرية العثمانية في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ م، وهكذا حقق اليونانيون استقلالهم بعد تحطيم الأسطولين العثماني و المصري.

أما سياسة إنكلترا و فرنسا إزاء الدولة العثمانية في إطار ما عرف بالمسألة الشرقية فإنه لم يكن يعتمد على الضغط العسكري المباشر و إنما كان يقوم على سياسة فرض المعاهدات و التوسع في الامتيازات و تحقيق مكاسب اقتصادية خاصة ما

يتصل منها بمجال المبادلات التجارية، و قد كان الإنكليز و الفرنسيون متأثرين في ذلك بالتقاليد العريقة. ففرنسا التي ظلت تتحكم فيها تقاليد سياسية عريقة تستند إلى وضع مميز في الدولة العثمانية نتج عن امتيازات خاصة بها تعود إلى تعاون فرانسوا الأول و سليمان القانوني ضد عدوهما المشترك شارلكان (١٥٣٥ م)، و التي تحولت مع الزمن إلى مشروع طموح بفعل خطط نابليون بونابرت و سياسته المتعاطفة مع محمد علي و موقفه المؤيد لشعوب البلقان و المعادي للإيالات العثمانية بشمال إفريقيا، و قد ناصرت هذه السياسة أغلبية الرأي العام الفرنسي وفاء للتراث الحضاري الإغريقي القديم و نظرا لموقف الأدباء و الشعراء المناصرين لثورة اليونان أمثال شاتوبريان و الشاعر فكتور هوجو و الرسام دولاكروا و الجنرال فيفر و غيرهم. أما إنكلترا فقد استفادت من توسيع العثمانيين للامتيازات التي منحوها لفرنسا، فحازوا على ما يماثل هذه الامتيازات لشركة الليفانت الإنكليزية على عهد الملكة إليزابيث الأولى سنة ١٥٨٠ م، ثم وسعوها سنة ١٦١٢ م إلى الهولنديين الذين استقلوا حديثا عن الحكم الاسباني، ثم تحولت إنكلترا من سياستها القائمة على الامتيازات إلى وضع الدولة المتميزة في التعامل مع الباب العالي و المهادنة للدولة العثمانية مع مجاراة موقف الدول الأوربية الأخرى فيما يتعلق بمطالب الشعوب، و هذا ما تؤكده مشاركة إنكلترا الفعالة في معركة نافارين (١٨٢٧ م) و في مؤتمر برلين (١٨٧٨ م).

لقد أدى ضعف الدولة العثمانية و تزايد النفوذ الخارجي إلى تحول الامتيازات التقليدية الممنوحة للدول الأوربية من مفهوم الصداقة و التعاون إلى نوع من الحقوق التاريخية المكتسبة التي لا يمكن التنازل عنها. و أدت تداعيات الأوضاع في البلقان و توسع روسيا على حساب الدولة العثمانية بالفرنسيين و الإنكليز إلى تغيير أسلوب سياستهم مع الدولة العثمانية، و العمل على الحصول على المزيد من المكاسب، و استغلال كل فرصة تتاح لهم في إطار العمل السياسي و حتى الحربي للحد من توسع النمسا في البلقان و الوقوف في وجه الأطماع الروسية في الدولة العثمانية.

ولقد كانت معركة نافارين امتحانا للدول الأوربية ذات المصالح الحيوية في الدولة العثمانية (روسيا، فرنسا، إنكلترا) لإظهار نياتها و تغيير أساليبها و محاولة التوفيق

بين مصالحها المتعارضة وأهدافها المتباينة، فجمعت قطعها الحربية عملا بالتوجه الذي أخذت به في اجتماعها بلندن (٦ جويلية ١٨٢٧ م) و الذي سمح بتشكيل حلف ثلاثي إنكليزي-فرنسي-روسي، جعل نفسه طرفا في المسألة اليونانية، و ألزم نفسه بإرغام السلطان العثماني على وضع حد لنشاطه الحربي ببلاد الإغريق و ضمان استقلال فعلي لشعبها الذي تربطه بأوربا أواصر التراث الحضاري المشترك ؛ و تطبيقا لنصوص بروتوكول لندن (٧ أكتوبر ١٨٢٧ م) أسندت قيادة السفن الحليفة البالغ عددها ٣٧ سفينة حربية مجهزة ب ١٢٩٨ مدفعا للأميرال الإنكليزي كوردنغتون، وبعد استعدادات حثيثة في الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر، التحمت السفن الأوربية بالسفن الإسلامية، و هي في أغلبها عثمانية و مصرية، و البالغ عددها ٦٢ سفينة مجهزة ب ٢١٠٢، و أسفر الالتحام الحربي الذي دام حوالي أربع ساعات في يوم ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ م عن تدمير أغلب السفن الإسلامية و هلاك ستة آلاف جندي كانوا على متنها، في الوقت الذي خسرت فيه القوات الحليفة حوالي ألف جندي و بعض السفن.

من أهم النتائج التي أسفرت عنها معركة نافارين أنها أوجدت وضعا دوليا سمح بإطلاق أيدي روسيا في الدولة العثمانية لتحقيق مشروعها التوسعي على حسابها، و الذي تحددت أهدافه و اتضحت أبعاده في معاهدة أدرنه (١٨٢٩ م)، كما ساعدت على استفحال المد القومي بالبلقان و انتقال عدوى المطالبة بالاستقلال إلى القوميات الأخرى و في مقدمتها القومية الصربية المندفعة بفعل ذكريات الماضي التاريخي و توجهات الكنيسة الأرثوذكسية و تشجيعها الساسة الروس، كما أن هذه المعركة أكدت دور محمد علي في شؤون الدولة العثمانية، و أظهرت مدى قدرته على التأثير في مجريات الأحداث بها، كما سوف نتعرض له فيما بعد، هذا فضلا على أن معركة نافارين وضعت نهاية فعلية "للحلف المقدس" الذي أسفر عنه مؤتمر فيينا (١٨١٥ م) و أصبح أساس السياسة الأوربية و محور نظام ميترنيخ في العلاقات الدولية، و بذلك لم تعد للشرعية الدولية أسبقية على الأماني القومية، و لم تعد مصالح الدول فوق الطموحات الوطنية للشعوب، و هذا ما سوف يساعد على تغيير الأوضاع السياسية في

أوربا، خاصة بعد انتفاضات سنتي ١٨٣٠ و ١٨٤٨ م.

بفعل هذه التطورات في مواقف الدول الأوربية، أصبحت المسألة الشرقية ذات طابع دولي يتجاوز التعامل الثنائي بين الدولة العثمانية و كل دولة أوربية على حدة، بعد أن أصبح التوسع النمساوي في البلقان محل قلق إنكلترا و فرنسا، و غدت السياسة الروسية المعادية للباب العالي مثار مخاوف الدول الأوربية و في مقدمتها إنكلترا. فكان الخلاف حول التعامل مع الدولة العثمانية التي أصبحت تعرف بالرجل المريض الاسم الذي أطلقه عليها القيصر الروسي نيقولا الأول في حديث جرى بينه و بين أبردين رئيس وزراء إنكلترا، و لم يتردد هذا القيصر أن يصرح علنا (١٨٣٣ م) بأنه ليس في استطاعته أن يبعث الحياة في الموتى و أن الدولة العثمانية دولة ميتة، مؤكدا أنه ليس لديه ثقة في أن يستمر هذا الجسم العجوز محافظا على الحياة لأنه في حالة انحلال في جميع النواحي.

وقد تحول هذا التباين في المواقف مع نهاية القرن الثامن عشر إلى تضارب في المصالح بين كل من إنكلترا و فرنسا و روسيا و النمسا؛ فقد تخوف الساسة الإنكليز والفرنسيون من النيات الروسية لأنها تقوم على التوسع العسكري و تهدف إلى الوصول إلى المضايق و النفاذ إلى البحار الدافئة، مما قد يهدد طرق التبادل التجاري و خطوط المواصلات الدولية بين أوربا و بين الهند وبلاد الشرق الأقصى، و يجعل من شرق أوربا و خاصة شبه جزيرة البلقان منه منطقة وصاية روسية في إطار رابطة الشعوب السلافية، وهذا ما يخل بمبدأ التوازن الأوربي. و قد أصبحت هذه الأوضاع تتطلب التدخل من طرف الدولتين إثر تراجع العثمانيين أمام الروس سنة ١٨٠٦ م و حصول قيصر روسيا على مكاسب إستراتيجية جعلت المضايق تحت رحمته عملا ببنود معاهدتي بوخاريست سنة ١٨١٢ م و أدرنه سنة ١٨٩٢ م.

و بالفعل أدى هذا الموقف المعادي للأطماع الروسية إلى مواجهة عسكرية في حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦ م)، فبعد أن اشتد الخطر الروسي على المضايق، و تزايدت أطماع القياصرة الروس في الدولة العثمانية نتيجة الانتصارات التي حققوها في حروبهم معها، و بعد أن تمكنوا من فرض شروط مجحفة على الباب العالي في

معاهدة سان ستيفانو، تدخل الإنكليز و الفرنسيون بكل حزم بعد أن رفض القيصر نيقولا التنازل عن مطالبه في الدولة العثمانية و التخلي عن خططه و عن حماية الرعايا الأرثوذكس العثمانيين البالغ عددهم آنذاك حوالي عشرة ملايين نسمة، و أصر على الوقوف إلى جانب القساوسة الأرثوذكس في مسألة الأماكن المقدسة بفلسطين. فتوترت الأوضاع بسرعة وسارعت القطع البحرية الإنكليزية و الفرنسية بالتحرك نحو المضايق لمساعدة السلطان العثماني عبد المجيد على رفض الشروط الروسية التي كان القيصر يحاول إجباره على القبول بها، و بعد فشل الوساطة النمساوية اندلعت الحرب في مارس ١٨٤٥ م، و تمكنت القوات الحليفة (الفرنسية، الإنكليزية، العثمانية) من النزول في شبه جزيرة القرم و تحقيق انتصارات على الجيوش الروسية في معركة سيباستوبول التي عانت فيها الجيوش المتحاربة قساوة الطبيعة و تفشي الكوليرا، و اضطر قيصر روسيا إلى الرضوخ للأمر الواقع و التخلي عن مطالبه في معاهدة باريس (٣٠ مارس ١٨٥٦ م) التي أبعدت الخطر الروسي عن الدولة العثمانية، وأكدت استقلالها، و جعلت الملاحة في نهر الدانوب مفتوحة أمام الجميع، و جعلت من البحر الأسود مجالا محايدا، و أقرت مبدأ التحكيم في الخلافات و مبدأ رعاية السلطان العثماني للمسيحيين الخاضعين له.

الحرملك ومجتمع النساء في القرن التاسع عشر

بعد أن أبعد الحرملك عن لعب أيّ دور في الحياة السياسية، مع وصول آل كوبريلي إلى السلطة، لم يختف الحرملك من الوجود بل ظل في أداء وظيفته الطبيعية، بصفته مؤسسة من مؤسسات الدولة العثمانية، إلا أن تطورات جرت عليه كما جرت على مختلف الدولة العثمانية، فمع هبوب رياح التغيير الآتية من أوروبا تحمل التحديث ومنتجات عصر التصنيع حصلت عدة تغيرات في المجتمع العثماني الذي فتح أبوابه أمام التحديث الأوروبي منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي وبدأت نساء السلطان في لعب دور جديد يتناسب مع التطورات الاجتماعية الطارئة من أوروبا، فمنذ عام ١٧٠٣م حين اضطر السلطان أحمد الثالث إلى التعهد بأنه من الآن فصاعدا سوف يعيش في إسطنبول، بدأت بناته، وفيما بعد أيضا السلالة النسائية لباقي السلاطين، في لعب دور هام في تكوين الصورة العامة للأسرة الحاكمة، وقد انعكس ذلك في الفيلات الأنيقة على شواطئ البوسفور التي وهبت لهؤلاء الأميرات في كثير من الأحيان بعد ميلادهن بوقت قصير، أو على الأقل حين كان يتم تزويجهن للوزراء في سن صغيرة، حيث أن أزواج هؤلاء الأميرات كانوا في كثير من الأحوال يرسلون إلى الأقاليم، على حين لم يتركن هن العاصمة، وبالتالي أصبحت تلك الفيلات مرتبطة بساكناتها الدائمات، وقد انعكس هذا الأمر في الهندسة المعمارية، فكثيرا ما كان قسم الحريم أكثر أناقة من ذاك المخصص للوزير وزواره من الرجال، والأرجح أن ذلك الرقي المعماري اعتبر أمرا ضروريا حيث كثيرا ما كان السلاطين يزورون بناتهم أو أخواتهم على شواطئ البوسفور، كذلك فإن بعض الأميرات اهتممن كثيرا بإعادة بناء فيلاتهن، لذلك قامت هاتيس سلطان، شقيقة السلطان سليم الثالث، بتكليف المهندس الفرنسي أنطوان إيغناس ميلينغ ببناء أولى مباني إسطنبول على الطراز الكلاسيكي الجديد والمراسلات التي دارت بين هذه الأميرة وفنان بلاطها المصمم متعدد المواهب ميلينغ مازالت موجودة حتى يومنا هذا، حيث يحتمل أن زوجة الأخير كانت تقوم بدور الوسيط، وتم توفير هذه المعلومات بواسطة طولاي أرتان.

وفي حالة وفاة أية أميرة لم تكن فيلاتها تنتقل إلى ورثتها وإنما كانت تعطى كمحل

إقامة رسمي لأميرة أخرى، وعلى العكس من رفيقات السلطان اللاتي كن يعشن في القصر وكانت لهن صلات قليلة بالعالم الخارجي، فإن بعض بنات وأخوات سلاطين القرن الثامن عشر المتزوجات كن قادرات على خلق شخصية عامة لأنفسهن، وقد شمل ذلك ظهورهن في الاحتفالات المنظمة بواسطة ومن أجل نساء النخبة وكان منهن راعيات للفنون، لذلك فقد أهدى الشاعر المولوي الشيخ غالب بعضا من أعماله إلى بيهان سلطان وهي من أخوات السلطان سليم الثالث التي شاركت أخاها اهتمامه بالموسيقى.

وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، أصبح فريق غناء الغلمان التابع للسلطان، والمعروف جيدا في سجلات القرن السابع عشر، نظير ممثلا في فريق من النساء افتخرت عضواته بمهاراتهن، فقد تم إعطاء الدروس الموسيقية للواعدات من فتيات الحريم، بعد تخصيص رفقة ملائمة لهن، وذلك على أيدي أفضل المدرسين البارزين الموجودين، وكانت تلك الدروس تتناول الموسيقى التركية والأوروبية، وقد ظل التدريب الموسيقي حتى نهاية تلك الأسرة الحاكمة أمرا هاما بالنسبة لأقارب السلاطين من النساء اللاتي كان يتم تصويرهن جنبا إلى جنب مع أدواتهن الموسيقية على سبيل المثال، ومازال الخليفة الأخير عبد المجيد الثاني آخر سلاطين بني عثمان الذي درس فن الرسم تبعا للأسلوب الأوروبي حاضرا في الذاكرة بسبب عزفه لموسيقى بيتهوفن في حفل أقيم في فناء القصر العثماني.

أسست بعض النساء الأسرة الحاكمة مؤسسات دينية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فعلى سبيل المثال قامت زيفكي قادين، واحدة من نزيلات حريم السلطان عثمان الثالث في عام ١٧٥٥ م بتأسيس مدرسة مزينة بنافورة ضخمة في فنديكلي على الطريق من غلاطا إلى بيشيكتاش، كذلك قامت زينب سلطان المتوفاة عام ١٧٧٤م ببناء مجمع إسلامي ومسجد ما زال موجودا حتى الآن أمام آيا صوفيا، على حين أوقفت شيبصافا قادين المتوفاة عام ١٨٠٥م، مجمعا مكونا من مسجد ومدرسة ابتدائية تم تجهيزها لاستقبال التلميذات. وفي القرن التاسع عشر اشتهرت والدة السلطان "بيزم عالم" باهتمامها بالمدارس، وعلى سبيل إبداء دعمه لمبادرة والدته قام

السلطان نفسه بضم اثنين من أبنائه في المؤسسة التي أنشأتها، وما زالت تلك المؤسسة عاملة حتى يومنا هذا، وكذلك مستشفى" الغرباء المحتاجون "التي أسستها نفس الشخصية. ولم يكن الأمر قاصرا على نساء الحريم السلطاني فإن أحدى بنات باشا مصر الشهير محمد علي، التي تعرف باسم زينب كامل، نسبة إلى زوجها، وقد قامت هي أيضا مثل سيدات أسرة السلطان بتأسيس مستشفى ضخم ما زال يعمل حتى الآن، وإن كان انتقل إلى مبنى جديد.

أما آخر أمهات السلاطين، والتي تركت اسمها على خريطة المدينة من خلال المؤسسات الخيرية الضخمة، فهي بيرتيفنيال والدة السلطان عبد العزيز الذي جاء بعد السلطان عبد المجيد، فقد قامت بتأسيس المسجد ذي الطراز الانتقائي الذي ما زال موجودا حتى الآن في حي أكسراي بإسطنبول، إضافة إلى المدرسة المجاورة له والتي ما زالت قائمة وتحمل اسم والدة السلطان، كذلك قامت بيرتيفنيال بتبني تقاليد بعض أمهات السلاطين من القرن السابع عشر بإنشاء مؤسسة ذات أغراض عسكرية، حيث قامت بإنشاء قسم جديد في ميناء إسطنبول بهدف بناء السفن البحرية ومع عزل السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٩٠٩ م، تم حل مؤسسة الحريم السلطاني العتيقة، وقامت بعض أسر خادمات الحريم باستعادة بناتهن بينما تم تزويج أخريات، لكن عددا لا بأس به منهن اضطررن إلى مواجهة الحياة بأنفسهن على قدر المستطاع.

وقد تطلبت أعمال الرعاية والدعم وجود موارد مالية، وقد كانت الكثيرات من أميرات القرن الثامن عشر بالغات الثراء نتيجة لحقهن في الاستفادة من عائد الضرائب طوال حياتهن، وبالتالي فقد كان وكلاؤهن في الأقاليم شخصيات ذات نفوذ بل وفي بعض الأحيان كانوا مصدرا للمتاعب لدافعي الضرائب، ويشهد على ذلك بشكل جيد حالة "حاجي علي أغا" الذي كان يدير إقطاعية الضرائب الخاصة بالأميرة أسما سلطان، ورغم أن هؤلاء الأميرات يدرن منازلهن ببذخ شديد، فقد توفي معظمهن وهن مديونات بشدة، بسبب الإنفاق الضخم على الكماليات الجديدة القادمة من أوروبا.

أن الميزانية الضخمة الخاصة بالكماليات، والتي كان ينظر إليها كثيرا على أنها مواكبة للاهتمام المتزايد من قبل نساء الإمبراطورية العثمانية بالسلع الاستهلاكية

الأوروبية منذ منتصف القرن التاسع عشر فصاعدا، كانت في الواقع تعود إلى زمن سابق على ذلك بكثير، فقد ركزت الدراسات الحديثة عن الاستهلاك في الإمبراطورية العثمانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على الدور المتنامي للنساء من أسر النخبة بغرض تأكيد وضعهن الاجتماعي إضافة إلى وضع أزواجهن وأبنائهن وآبائهن، ويميل المؤرخون والمؤرخات إلى اعتبار أن القرن الثامن عشر كان فترة لعبت فيها نساء إسطنبول الميسورات ماليا دورا أكثر فاعلية في الاستهلاك، حيث تعتبر الأوامر السلطانية المتعددة بقمع صيحات "الموضة" مؤشرات على هذا التغير، إضافة إلى شكوى الكتاب من الرجال إزاء ما استشعروه من الإصرار الملموس والمطالب المادية من قبل نسائهم، يجب علينا توخي الحذر، فمؤلفو أواخر القرن التاسع عشر من أمثال أحمد مدحت كانوا يميلون إلى اعتبار أن الشباب من الرجال، وليس النساء، هم أكثر المستهلكين تبذيرا.

لقد ركزت العديد من الدراسات على دخول الصيحات أوروبية الطراز إلى الدوائر الخاصة للميسورات من النساء، وقد عرف هذا النمط من الحياة باسم "كوشك حياتي" وبداية من ثمانينات القرن التاسع عشر كانت هؤلاء النساء، والأميرات أيضا، يرتدين ملابس مستلهمة من الطراز الفرنسي في المنزل وفي الحفلات الخاصة، مع تغطية تلك الملابس بالمعاطف والحجاب عند الظهور في مكان عام، فقد كانت تلك السنوات هي التي شهدت تبني بعض النساء لأول مرة ارتداء "الشرشف" الأسود الذي يحيط بكل شيء والذي لم يكن يوما جزءا من اللباس العثماني التقليدي، بل إن واقع الأمر هو أن السلطان عبد الحميد كان قد منع ارتداء هذا اللباس على مقربة من القصر لأنه كان يرى فيه خطرا أمنيا.

ومن المثير للاهتمام بشكل خاص هو أنه لم يحدث تبنّ كامل للصيحات الأجنبية، بل تم المزج بينها وبين عناصر من أنماط المبلس القديم، وبالتالي فقد نجد ثوبا عثمانيا مزخرفا بتفاصيل مأخوذة عن الموديلات الفرنسية، أو قد يكون القماش محليا ويتم تفصيله باستلهام أجنبي، إن هذا النوع من المواءمة، بالإضافة إلى الفوارق في خطوط الموضة بين جيل وآخر، يمكن استقراؤه من الصور التي التقطت في ستوديوهات

التصوير التي انتشرت بين العائلات المسلمة في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين .وتتفق تلك الملاحظات مع ما سبقها من أن صناعة النسيج العثمانية لم تنهار مع دخول المنتجات الأجنبية المصنعة آليا إلى سوق الشرق الأوسط، بل إن الكثير من المنتجين تمكنوا من الاستمرار بسبب قدرتهم على الاستجابة للأذواق المحلية.

وهناك نوع آخر من الاستهلاك لم يقدر عليه سوى الأثرياء ألا وهو امتلاك العبيد، والذي كان؛ باستثناء بعض الخصيان، أنثويا وكانت نساء العبيد من الأفارقة عادة ما يتم تشغيلهن كخادمات على حين كان الملاك من الذكور يفضلون النساء القوقازيات كمحظيات، وحيث أن ذلك التفضيل كان يسري أيضا على حريم السلطان، فقد حدث تعاون سري مع الأسر الشركسية المقيمة في الأناضول التي كانت تخرق القانون الديني الإسلامي من خلال بيع بناتها في سوق العبودية، حيث كان استعباد مواطنين أيّ حاكم مسلم، بغض النظر عن عقيدته، ممنوعا بحكم الشريعة، ورغم منع التجارة، وفي العبيد السود عام ١٨٥٧ م، إلا أنها استمرت بشكل غير رسمي خلال القرن التاسع عشر، وإن كان العدد قد انخفض بدرجة كبيرة .ومن بين المثقفين، ساهم الكتاب العثمانيون بداية من سبعينات القرن التاسع عشر في تجريم تلك الممارسة من خلال إصرارهم على أن كل ارتباط بين الرجال والنساء يجب أن يكون طوعيا، وفيما يخص العبودية في إقليم أنقرة ما بين حوالي عام ١٧٨٥ وعام ١٨٧٠ م كان المعتاد بين الموسرين، بما في ذلك القلة من العثمانيين المسيحيين أو حتى المقيمين من الأجانب، أن يحصلوا على العبيد، رجالا ونساء، عن طريق تجار عبيد معترف بهم، ورغم أنه يبدو أن غالبية مالكي العبيد كانوا من الذكور إلا أنه من الموثق به أن بعض النساء أيضا كن يملكن العبيد، وكان الكثير من هؤلاء يوصف بأنه آت من "عرب وآسم"، وهو مصطلح يفترض أنه يشير إلى السود العرب وسكان القوقاز والذين كانوا أحيانا يوصفون بقدر أكبر من الدقة بأنهم جورجيون.

وأظهرت الدراسات التي أجريت على الأقاليم العربية في الخلافة العثمانية أن الصلات كانت تعقد فيما بين داخل مجموعات النخبة من خلال الزيجات، وحين كانت

تدور المفاوضات بشأن تلك الصلات كان سن العرائس الصغير يحول بينهن وبين أن يكون لهن أي رأي في الأمر، لكن من بين هؤلاء كانت هناك بعض النساء اللاتي تمكن في مرحلة لاحقة من حياتهن من الدفاع عن ميراث أسرهن، ومن ثم تبوأن مواقع ذات سلطة في تلك الأسر، أما بالنسبة للبقان والأناضول فما نعرفه عن المرأة هناك قليل، لكن بناء على قصة واحدة نستطيع أن نتخيل وضع المرأة هناك، فأسرة بيناكي من شبه جزيرة بيلوبونيز (المورة)، والتي انضم رب الأسرة إلى انتفاضة شبه الجزيرة بعد نزول فيلق روسي في عام ١٧٧٠ م، واضطر نتيجة لذلك إلى الفرار حرصا على حياته فقد كان لهذا الشخص إحدى القريبات التي بقيت في المنطقة العثمانية وتمكنت في النهاية من استعادة جزء لا بأس به من ميراث الأسرة، وهناك أيضا نساء أخريات عرف عنهن أنهن ساهمن في مؤسسات عائلية، الأمر الذي يفترض درجة من التحكم في ممتلكاتهن الخاصة بل وأيضا في مصيرهن.

ونجد في بعض طرق الدراويش أنه يمكن لزوجة شيخ ذي سلطة كبيرة أن تتبوأ هي الأخرى وضعا ذا نفوذ، وبالتالي فإن مثل تلك الشخصية بين أعيان إسطنبول كان يمكن أن تتحمل بعض المسؤولية فيما يخص النزلاء والضيوف، ومن ثم تصبح معروفة بـ"أم الدراويش"، أما النساء الأخريات من سلالة شيوخ الدراويش فقد يرثن مناصب كمديرات للمؤسسات، وإن كان يكاد أن يكون من المستحيل أن نحدد حجم السلطة الحقيقية التي تتيحها تلك المناصب لشاغليها. وفيما يخص النساء اللاتي تمتعن بقدر من الثراء أو المكانة الاجتماعية، من المسلمات وغير المسلمات، فقد أثارت الظروف التي تمكنّ فيها من تمثيل مصالح الأسرة في مواجهة السلطات العثمانية اهتماما كبيرا.

وكان يمكن لهذا التمثيل أن يحدث في الحالات التي يكون فيها الأزواج عاجزين بسبب مشاركتهم في الحرب أو بسبب المرض أو السن المتقدمة، وإن كانت الحالتان الأخيرتان غير واضحتين تماما في المصادر، هذا وقد تم التوثيق بشأن النساء اللاتي كن يمثلن مصالح أسرهن بالأساس حين كن يلجأن إلى الإدارة المركزية للشكوى من أشكال الظلم التي وقعت على أقاربهن من الرجال، أو بدرجة أقل أقاربهن من النساء،

وذلك من الأعداء المحليين الذين نكاد لا نملك بشأنهم أية معلومات موثقة، ممن يتهمون بالابتزاز والتخويف، وفي أحيان حتى بالقتل. ومن الجدير بالذكر أنه في القرن الثامن عشر على الأقل لم يكن باقي الأقارب من الرجال يتدخلون تلقائيا للدفاع عن مصالح الأسر التي كانت تحرم من عائلها حرمانا مؤقتا أو دائما.

من الصعب الحصول على معلومات حول دورة حياة المرأة العثمانية في القرن الثامن عشر، وبالتالي لا يمكن وضع تصور كامل بدرجة ما للسير الحياتية إلا في بعض الحالات القليلة جدا، ونظرا لأنه لم يكن من المعتاد أن يذكر سن الوفاة على شواهد قبور المسلمين أو في قوائم ما بعد الوفاة، فإننا في أغلب الأحوال محدودين بقوائم ورثة المتوفى التي يظهر بشكل متكرر ومنتظم في وثائق القرن التاسع عشر، في المدن الأكبر كانت قوائم ما بعد الوفاة تحفظ في سجلات منفصلة، وتصنف جنبا إلى جنب مع "سجلات القاضي"، وكان الأكثر شيوعا هو ضم تلك القوائم إلى "سجلات القاضي" العادية، وكانت تلك القوائم ترصد فقط أفراد الأسرة الباقين على قيد الحياة وقت وفاة الشخص، ومن ثم فهي غير مفيدة في توضيح العدد الإجمالي للأولاد المولودين في إطار زيجة بعينها، كذلك فإن هذه المصادر توضح أن عدد الأبناء الذين كانوا يعيشون أطول من أمهاتهم أو آبائهم كان ضئيلا، ولا يمكن أن نحدد ما إذا كان ذلك بسبب ارتفاع معدل وفيات الأطفال أو على الأقل جزئيا بسبب التحديد الواعي لعدد أفراد لأسرة.

وبما أن الزوجات كن يرثن دائما فإن تلك القوائم كانت تشير إلى تعدد الزوجات من عدمه، فالزيجات الوحيدة التي كانت تضم أكثر من زوجة وكانت تستبعد من ذلك النوع من السجلات كانت تلك التي تتوفى فيها واحدة من الزوجات قبل زوجها وقد استنتج من تلك السجلات أن تعدد الزوجات لم يكن شائعا في مدن الأقاليم العثمانية المركزية، وهناك أدلة على أن مدينة إسطنبول، فمنذ ثمانينات القرن التاسع عشر وحتى العقد الأول من القرن العشرين تشير سجلات الزواج إلى أن تعدد الزوجات لم يتجاوز ٢ % من كل زيجات المسلمين، وكذلك فإن هذا النوع من الزواج.

كان مقصورا على مجموعات اجتماعية بعينها مثل علماء الدين والقانون وبعض

أصحاب المقام الرفيع في البلاط، الذين يفترض أنهم قاموا بتقليد عادات الأسرة الحاكمة .أما التجار والحرفيون فكان يحدث أن يطلقوا زوجاتهم، لكنهم لم يتزوجوا بأكثر من زوجة واحدة في نفس الوقت، وإن هذا التوافق في الملاحظات بين بورصة وسالونيك وإسطنبول يشير إلى أنه ربما تكون المدن الإقليمية الكبيرة قد تبنت نهج العاصمة في ذلك الأمر كما في أمور أخرى.

وفي أواخر القرن التاسع عشر في اسطنبول كان سن العرائس يتراوح ما بين ١٩ و٢٠ عاما، وكان السن عند الزواج الأول يميل إلى مزيد من الارتفاع، من ثم فإن زواج المراهقة لم يكن معتادا في العاصمة في ذلك الوقت، ومع غياب التوثيق لا يمكننا أن نقرر ما إذا كان ذلك أيضا صحيحا بالنسبة للفترات السابقة أو أنه يرجع في البداية إلى وجود صعوبات اقتصادية أدت إلى تأخير تأسيس الأسر الجديدة، وبسبب الانتشار التدريجي لتعليم الإناث بعد عام ١٩٠٨م، إن المعلومات القيمة حول التاريخ الديموغرافي لفلاحي البلقان في القرن التاسع عشر تنبع من بعض القرى البلغارية الكاثوليكية التي تدرب قساوستها في روما ومن ثم احتفظوا بسجلات للتعميد والزيجات والجنازات تبعا لتقاليد كنيسة الروم الكاثوليك، على حين لم يحتفظ الأرثوذكس بمثل تلك السجلات الموثقة، ونظرا إلى أن القرويين المعنيين عاشوا في ظل نفس الظروف العامة مثل جيرانهم غير الكاثوليكيين، فيمكننا أن نفترض أن الأنماط الديموغرافية الملحوظة في تلك الأماكن الموثقة هي بشكل أو بآخر ممثلة لاتجاهات أوسع.

فمن الواضح أن البلغاريين في القرن التاسع عشر كانوا يعيشون مرحلة، الانتقال الديموغرافي من مجتمع ذي معدل مواليد ووفيات عال إلى نوع آخر من المجتمعات ينخفض فيه معدل الوفيات على حين، لم تتخذ المواليد نفس المنحى قبل منتصف العشرينات من القرن العشرين، أي بعد فترة طويلة من انتهاء الحقبة التي نحن بصددها، كان بمقدور نساء القرى البلغاريات إذا أن يتوقعن أنهن سوف يتزوجن في سن صغيرة وينجبن عددا كبيرا من الأطفال، والأرجح أنهن سوف يفقدن بعضا منهم خاصة بسبب مرض الجدري، كذلك كان من المحتمل أن يتوفين هن ذاتهن أثناء الولادة أو بعدها بفترة قصيرة، لكن النساء اللاتي نجين من تلك المرحلة المليئة

بالمخاطر كن على الأرجح يعشن حياة أطول من أزواجهم، وإذا أخذنا في الاعتبار الفرق في العمر بين الأزواج، فقد أدى هذه الوضع إلى وجود عدد كبير من الأرامل.

التعليم الرسمي للمرأة العثمانية

قبل عام ١٧٠٠ م بوقت طويل حاولت الدولة العثمانية من حين إلى آخر تنظيم الأسلوب الذي تظهر به النساء في الأماكن العامة وذلك من خلال القرارات التي تصدر عن السلطان، والتي تحدد على سبيل المثال أنواعا معينة من القماش للمسلمات أو لغير المسلمات، وفي بدايات ومنتصف القرن الثامن عشر اشتدت تلك المحاولات لتحكم الدولة في سلوك النساء، خاصة في الثياب المخيطة، على الأقل هذا هو ما كان عليه الأمر لو صحت المراجع الواردة في المصادر الأولية، وقد ارتبط ذلك بمحاولة الإدارة أن تكسب لنفسها الشرعية من خلال إبداء الاهتمام بالنظام العام، وربما أيضا بسبب ملاحظة أن نساء إسطنبول الأكثر ثراء بدأن في إظهار درجة أعلى من توكيد الذات، خاصة في مجال الاستهلاك، لكن خلال حكم سليم الثالث بدأت الدولة العثمانية في التدخل من أجل منع وتجريم الإجهاض. لم يكن هناك أي تناول لهذا الأمر في أي من الفرمانات السلطانية قبل ذلك، حيث أن المذهب الحنفي في القانون الإسلامي يسمح بالإجهاض خلال الأربعة شهور الأولى من الحمل بشرط موافقة الزوج، كذلك تم منع الإجهاض في المرسوم الصادر في عام ١٨٣٩م، وذلك بالتزامن مع الجهود الأولى لإعادة هيكلة الدولة والمعروفة باسم" التنظيمات ."ولم تتم إضافة هذا المنع إلى أول قانون جزائي عثماني الصادر عام ١٨٤٠م وعام ١٨٥١م، وربما يرجع ذلك إلى السعي إلى تجنب الجدل الذي قد يثيره تجريم أمر مسموح به تبعا للقانون الإسلامي، والأرجح كذلك أنه ولنفس السبب لم تتوجه القوانين التي تلته إلى النساء اللاتي قمن بالإجهاض ولا إلى أزواجهم الذين لابد وأنهم حرضوهن على ذلك في كثير من الحالات، والواقع هو أن انتباه المشرع توجه إلى الأطباء والصيادلة والقابلات الذين كانوا غالبا من يمتلكون المعرفة الفنية بتلك العملية، وكتبرير لذلك، أكدت بعض النصوص المكتوبة من قبل رسميين من مستوى رفيع أن التعداد الكبير للسكان هو أمر ضروري للدولة القوية، ومن منطلق ديني ثانوي أكدوا على أن عدم قبول وليد جاء هبة من الله هو خطيئة.

ونجد في المسودات الأولى لهذا التشريع الذي صدر لاحقا، أن الأسر الفقيرة قد

تلقت وعدا بالحصول على دعم من الدولة في حالة إنجاب عدد كبير من الأطفال، ومع ذلك فلم يتم إدراج هذا البند في الصيغة النهائية للقانون، ومن ثم فقد تم ترك الأمهات والآباء والقابلات للتعامل مع مشكلات الفقر المدقع والحمل غير المرغوب فيه بقدر ما في وسعهم، وطوال القرن الثامن عشر والتاسع عشر كانت بعض النساء المتعلمات يحضرن المدارس القرآنية قبل البلوغ، والجزء لأعظم من تعليمهن كان يتم في المنزل، وحتى في القصر لا يبدو أن التعليم الأساسي للقراءة والكتابة باللغة العثمانية قد أدى إلى مستويات منسجمة من معرفة القراءة والكتابة بين النساء المتعلمات في تلك المؤسسة، وبالطبع كان مما صعب الأمر هو أن الكثيرات من نساء الحريم كن يأتين من خارج المجال العثماني ومن ثم كان عليهن أن يتعلمن التركية كلغة أجنبية، ويبدو أن تعليم الفتيات الصغار في حريم السلطان كان يركز على احترام التراتبية والأناقة والمهارات الموسيقية أكثر من تركيزه على الموضوعات الأكاديمية، وبداية من أواخر القرن التاسع عشر بدأت فتيات الصفوة في تعلم الفرنسية من المربيات الأوروبيات أو في مدارس داخلية خاصة وإن هذا النوع من تعليم الطبقات العليا هو موضوع يحتاج إلى مزيد من التدقيق.

في عام ١٨٥٨م افتتحت الدولة العثمانية أول مدرسة متقدمة "رشدية" للفتيات، وبعدها بقليل تم نشر مقال في الجريدة الرسمية يصرح بأن النساء المتعلمات سوف يكن قادرات على توفير قدر أكبر من الراحة لأزواجهن على حين أن المعرفة بالدين والشؤون الحياتية سوف تجعل من الأسهل عليهن الحفاظ على عفتهن، وفي الفترة ما بين عام ١٨٦٩ وعام ١٨٧٠م افتتح في إسطنبول أول معهد عال لإعداد المدرسات للعمل في مدارس الفتيات، وبحلول ثمانينات القرن التاسع عشر بدأ الإداريون المحليون في الأقاليم المقتدرة في إنشاء مدارس ابتدائية للفتيات بشكل منتظم.

لكن ومع اعتبار أن تعليم الفتيان المسلمين لم يكن كافيا في أغلب الأقاليم، فإن تعليم الفتيات كان أقل جودة، ومع ذلك فإن غالبية النساء اللاتي حصلن على تعليم رسمي في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، حصلن عليه إما في المدارس التي تديرها مجتمعات الأقليات المختلفة أو في مؤسسات تبشيرية، ففي إسطنبول نجد

أن مدرسة الأمريكية للبنات، ومدرسة نوتردام دي سيون والتي كانت تعد خريجاتها للعمل بالتدريس في المستقبل، نجحتا في إثبات وجودهما كمدرستين ثانويتين مفضلتين لدى مجتمع الصفوة المسلمة، وقد كان ذلك صحيحا رغم أن حكومة عبد الحميد الثاني لم تكن راضية تماما عن التحاق الأطفال المسلمين بالمدارس التبشيرية، التي سوف تخرجهم على الأرجح بدون أساس كاف في الأخلاق الإسلامي وبتعاطف غير مرغوب فيه مع الثقافة الأجنبية بل إن الالتحاق بها كان ممنوعا في أواخر التسعينات من القرن التاسع عشر.

بل إن الالتحاق بها كان ممنوعا في أواخر التسعينات من القرن التاسع عشر، ومع ذلك، وحيث أن تلك المدارس التبشيرية المفضلة من قبل الصفوة كانت في العادة تتخلى عن أية محاولات للتبشير العلني، وحيث أن المدارس الثانوية المدعومة من الدولة كانت غير متاحة للنساء، فقد التحقت بنات الصفوة في إسطنبول بتلك المدارس بعد عام ١٩٠٨م بأعداد كبيرة، وهو الوضع الذي استمر لفترة في الحقبة الجمهورية.

إن مشاكل الحصول على التعليم الرسمي تفسر لنا لماذا كانت النساء اللاتي تميزن بكونهن كاتبات أو موسيقيات ينتسبن في العادة إلى أسر حصل أفرادها من الذكور على تعليم مكثف في مدارس العقيدة والقانون الديني، أو في المدارس الحديثة التي افتتحت في إسطنبول بعد أواخر القرن الثامن عشر، أو ممن درسوا في الخارج بالتالي فإن أكثر الشاعرات العثمانيات شهرة في القرن الثامن عشر هي "فتنت" واسمها الأصلي زبيدة، المتوفاة عام ١٧٨٠م والتي كانت تربطها صلة قرابة وثيقة باثنين من شيوخ الإسلام: والدها أسعد أفندي، وأخوها شريف أفندي، وكان الاثنان معروفين باهتماماتهما الأدبية، والأرجح أن موقعها الاجتماعي قد سمح لها أن تمارس موهبتها في شعر المعارضة، الأمر الذي أدى إلى شهرتها، كذلك فإن ليلى هانم المتوفاة عام ١٨٤٨م، التي تركت مجموعة من الأشعار تصف مباهج طبقات إسطنبول العليا على شواطئ البوسفور وفي أماكن أخرى، كانت ابنة رجل وصل، باعتباره قاضي عسكر، إلى ثاني أعلى المراتب في الإدارة الدينية والقانونية، كما أنها تلقت أيضا تدريبا على يد أحد أقاربها الذي كان هو نفسه كاتبا مرموقا.

وكان من الشائع اصطفاء الشعراء وكاتبي الرواية النشطين في سياق ما بعد خمسينات القرن التاسع عشر، ومن الشاعرات المشهورات نيغار هانم بنت عثمان، وهي ابنة ضابط مجري فر إلى الإمبراطورية العثمانية، حيث تحول إلى الإسلام وقام بالتدريس في كلية الموظفين العموميين، وكانت والدتها من أسرة ميسورة في إسطنبول، حصلت على تعليم أدبي، وشجعت نيغار على السير على دربها، ومن ثم اكتسبت نيغار معرفة مذهلة باللغات الأجنبية في هذه الأثناء، كما عرفت فيما بعد بصالونها الأدبي، كذلك هناك ليلى هانم التي أصبح اسمها "ليلى ساز" فيما بعد، وكانت ابنة واحد من أطباء السلطان عبد الحميد وقد اتخذ فيما بعد مسارا إداريا وأصبح وزيرا للتجارة، ونشأت ليلى هانم التي كانت عازفة موسيقية متميزة منذ سن صغيرة جدا، نشأت في القصر كرفيقة لإحدى الأميرات.

أما فاطمة علي التي امتد مستقبلها - الصغيرات، ثم واصلت نشاطها ككاتبة ومؤلفة موسيقى طوال فترة حياتها ككاتبة خلال العقود الأخيرة من الإمبراطورية العثمانية، فكانت ابنة كبير الوزراء والمؤرخ أحمد جودت باشا، وعلى حين كان أحمد باشا، وهو العدو اللدود للدستوري مدحت باشا، معروفا باتجاهاته السياسية المحافظة إلا أن تعليم الأطفال كان له شأن آخر، فحين فطن إلى أن فاطمة موهوبة جدا تم تعليمها تعليما دقيقا وتشجيعها على تطوير مهاراتها في الكتابة. هذا وتعكس رواياتها حياة الطبقات العليا في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين في إسطنبول، أما النساء اللاتي كتبن في الصحافة النسائية في اسطنبول فكانت أصولهن أكثر اتساعا وإن كانت أيضا بدرجة كبيرة من بين المستويات العليا للمجتمع، إن المجلة الأسبوعية الترقي التي صدرت في عام ١٨٦٨م، كانت تنشر شكاوى يفترض أنها مرسلة من سيدات إسطنبول بشأن أمور مثل سوء أحوال أقسام النساء في المراكب البخارية التي كانت بدأت تمثل الجزء الأكبر من المواصلات المحلية في إسطنبول، وقد وصل مزيد من تلك الشكاوى إلى الرأي العام بعد ذلك بعام في المجلة النسائية التابعة لنفس الجريدة وعنوانها ترقي المخدرات أي (ترقي نساء الخدور)، والتي ظهرت في السوق لأول مرة في عام ١٨٦٩م، صدر منها ٤٨ عددا، وقد كانت

تلك الرسائل توقع إما بالحروف الأولى من اسم كاتبتها أو بوصف للكاتبة مثل "من سكان أوسكودار".

وعلى حين أنه من المستحيل تحديد أي من تلك الرسائل تم استقبالها فعليا وأي منها أعيد كتابته أو حتى تم تأليفه تماما من قبل المحررين، إلا أنها رغم ذلك مثيرة للاهتمام حيث أنها تعبر عن الموضوعات التي لابد وأن الناشر كان يعتقد أنها سوف تجذب اهتمام القراء من النساء، وكانت بعض تلك الرسائل تناقش مشكلات الكاتبات اللاتي كن يرغبن في التعريف بأعمالهن.

ومن ثم، وبتوقيع من "فتاة متعلمة" نشرت دورية ا لإنسانية رسالة تطالب المجلات النسائية بأن تولي الأولوية إلى الأعمال المكتوبة بأقلام النساء، حيث أن غالبية الكاتبات اللاتي يردن لكتاباتهن أن تصل إلى الرأي العام يجدن أنفسهن مضطربات إلى استخدام أسماء مستعارة ذكورية، وفي عام ١٨٨٦م نجد أن مجلة شوكوفيزار "ورقة الزهر" وهي أول مجلة كان كل من يكتب فيها من النساء، حاولت أن تجد لها جمهورا، وقد كانت صاحبة المجلة أيضا امرأة، وللأسف فإن ندرة المعلومات عن النساء في قواميس السير والتراجم السائدة عن تلك الفترة تجعل من المحال أن نجد الكثير لنقوله عن الصحفيات مثل منيرة، وفاطمة نوبار، وفاطمة نيغار.

إن "مخصوص غازيت" الجريدة المخصوصة للهوانم، والتي صدرت فيما بين عام ١٨٩٥ وعام ١٩٠٨م، كانت تستكتب الرجال والنساء، وكان من بينهم فاطمة علي، وقد أبرزت الأخيرة في مقال معروف لها، أنه في كل مكان في العالم وصل الرجال إلى أعلى المستويات الثقافية قبل النساء، ومن ثم فهم لا يتقبلون الآن المنافسة من النساء المتعلمات، كذلك ساهمت كاتبات أخريات من عائلات الصفوة في الكتابة في الجريدة، بما في ذلك الشاعرتان نيغار هانم وليلى ساز .كما أن واحدة على الأقل من الصحفيات كان لديها التزام سياسي قوي، وذلك بالتزامها تجاه لجنة الوحدة والتقدم، وهي غوليستان عصمت، التي تخرجت من المدرسة الأمريكية للفتيات في عام ١٨٩٢م، وكانت عضوة سرية في لجنة الوحدة والتقدم، وكثيرا ما ترجمت البيانات الصحفية الصادرة عن اللجنة إلى اللغة الإنجليزية.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت هناك مجموعة من النساء

الأرمينيات يمثلن في كل من المسرح الناطق والمسرح الموسيقى، وفي ذلك الوقت كان رجال الأدب مثل إبراهيم شيناسي ونامك كمال، بمساعدة مدير الفرقة غوللو أغوب، والذي أصبح اسمه غوللو يعقوب أفندي بعد اعتناقه الإسلام، يعملون بجدية من أجل وضع قواعد المحادثة المثقفة الحديثة بواسطة مسرح يستخدم اللغة التركية، ومع ذلك فما كان لخططهم أن تؤتي ولو قدرا من ثمارها بدون ممثلات مثل أزنيف هراتشيا، التي كانت تتحدث أحيانا باللغتين العثمانية والأرمينية، والتي تدربت في الفصول المرتبطة بمسرح غوللو أغوب وقامت مدام هراتشيا بنشر مذكراتها وكانت بذلك الأولى من بين كثير من الممثلين الذين كتبوا مثل تلك الكتب التي ظهرت في تركيا في فترة الجمهورية.

نساء بين الفقر والثراء

عندما تتوفر الإمكانيات الاقتصادية للنساء في الدولة العثمانية كن يلعبن دورا في الحياة العامة، بغض النظر عن خلفياتهن العرقية فلدينا أسرة داديان الأرمينية، فقدت لعبت نساء تلك الأسرة أدوارا في عقد أواصر الصلات الاجتماعية بين السر الأكثر ثراء في العاصمة العثمانية إسطنبول، عقدوا صلات مع أوروبيين أثرياء يتمتعون بمراكز اجتماعية بارزة، وكانت العلاقات الأسرية في كثير من الأحيان تستخدم لخدمة علاقات الأعمال ولذلك فإن الحفاظ على تلك العلاقات كان أمرا ضروريا، حتى ولو كانت بين الأقارب البعيدين، كما كانت تلك العلاقات تحترم التراتبية في داخل المجموعة الواحدة بدرجة حازمة.

وقبل منتصف القرن التاسع عشر كانت الفتيات يزوجن في منتصف أو حتى في بدايات سنوات المراهقة، مما كان يقلل من الفرصة في التعليم، لكن بداية من عشرينات القرن التاسع عشر اعتبرت معرفة اللغة الفرنسية واللغات الأجنبية الأخرى أمرا مرغوبا فيه، ومن ثم فإننا نجد نساء من أسرة داديان يعملن كمترجمات حين كانت نساء الأسر الأوروبية المالكة تقوم بزيارة الحريم السلطاني.

هناك بعض السجلات اليونانية الأرثوذكسية التي تتمثل قيمتها بوجه خاص في أنها ولأول مرة تلقي بعض الضوء على النساء الفقيرات جدا، ومن هنا فإن أرشيف كنيسة باناغيا في إسطنبول - بيوغلو، والتي كان رعاياها يتكونون بالأساس من المهاجرين، يرجع إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر كما يتناول أيضا مستشفى للقطاء ملحقة بالكنيسة، وتتضمن هذه المادة معلومات خاصة عن الأمهات اللاتي أجبرن على هجر أطفالهن من الذكور والإناث بسبب الفقر، كما تقدم بعض المؤشرات الخاصة بنسب الحياة بين الأطفال وأعداد المرضعات، وكذلك المعايير التي كانت إدارة الملجأ تستخدمها في محاولة لتحديد النساء اللاتي من المنتظر عودتهن للمطالبة بأبنائهن في حال تحسن ظروفهن، واللقطاء الذين لا يتوقع أن يطالب أحد بهم وبالتالي يجب البحث عمن يرغب في تبنيهم.

وهناك كذلك معلومات موثقة عن مجموعة أخرى من النساء الفقيرات، في

أغلبهن من خلفية يونانية وأرمينية، ممن ارتبطن بالمصانع العثمانية الأولى، وخاصة منشآت مدينة بورصة حيث كان يتم لف الحرير قبل تصديره، وفي العادة كان يتم تأجير البنات من قبل أسرهن لكي يتمكنّ من توفير المال اللازم لمهورهن وجهازهن، وقد كان أصحاب المصانع يفضلون هؤلاء الفتيات نظرا للأجور المنخفضة جدا التي كن يحصلن عليها مقابل عمل يستمر لمدة ١٦ ساعة في اليوم في ظروف بالغة السوء، وكانت العاملات يبتن في عنابر داخلية يشرف عليها حراس في ظروف تسمح بكل أشكال سوء المعاملة، وعلى الرغم من مظاهر الاحتجاج إلا أن تلك الظروف لم تتحسن بأية درجة ملحوظة حتى توقفت الصناعة أثناء الحرب العالمية الأولى.

كان الوضع مشابها بدرجة ما بين الشابات اليهوديات العاملات في سالونيك في نفس الفترة من أجل توفير المال الضروري للزواج، وقد كانت عائلات اليهود السفرديم بشكل عام ترفض دخول النساء ضمن قوة العمل، ونتيجة لذلك فإن مناهج التعليم في المدارس، الممولة من قبل الرابطة الإسرائيلية العالمية، والتي تتضمن سجلاتها قدار كبيرا من المعلومات عن التعليم اليهودي في القرن التاسع عشر، لم يكن لديها الكثير من الإرشادات لتقدمها لنساء السفرديم، لذلك كان التدريب الحرفي للنساء نادرا، وتشير إحصائيات العشرين عاما الأخيرة من القرن التاسع عشر إلى بعض النساء اليهوديات الشابات في سالونيك اللاتي تدربن كصانعات للضفائر الصناعية، بالإضافة إلى عدد قليل من الفتيات اللاتي تعلمن أصول الحياكة والتطريز.

لكن الكثيرات، إن لم يكن جميع هؤلاء النساء الشابات، كن يعملن كعاملات غير مدربات، في البداية كانت الخدمة في المنازل تمثل مصدرا هاما للتشغيل، لكنها استبدلت سريعا بالعمل في صناعة الدخان والأرجح أن غياب العاملات اليهوديات من التوثيق الخاص بنشأة الطبقة العاملة العثمانية ثم الطبقة العاملة فيما بعد الإمبراطورية العثمانية كان نتيجة لاعتبار عملهن أمرا هامشيا، وذلك رغم الدور المحوري الذي لعبته مدينة سالونيك في ذلك الشأن.

أوقاف السلطانات الخيرية

أُسست الأوقاف في التاريخ الإسلامي، من أجل تقديم الخدمات المختلفة إلى الإنسان والأحياء الأخرى من الحيوانات. وكانت مؤسسات الأوقاف -بلا شك- واحدةً من العناصر المؤثرة التي استطاعت الارتقاء بأنماط العيش وتأمين الحاجات الاجتماعية للناس الذين يعيشون في ظل الدولة العثمانية حتى في مناطقها النائية.

وإذا ما تأملنا في مفهوم الوَقْفِ لدى الدولة العثمانية، نجد أنه مزيج من الشرقي الممتد من حضارة الأيغور إلى السلاجقة، والغربي الممتد من الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية البيزنطية. فقد ورثت الدولة العثمانية هذا الميراث الممتزج الديناميكي، وطورته وصبغته بقيمها وثقافتها الدينية.

لقد لعبت هذه المؤسسات القانونية، دورًا هامًّا في تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدى الدولة العثمانية والبلدان الإسلامية كافة. يقوم النظام الوَقْفي على فعالياتٍ مؤسساتيّة قانونية، للرعاية الاجتماعية التي تضمن استمرارية المجتمع. وبهذا المعنى، فإن فعاليات الأوقاف التي نشطت في الدولة السلجوقية والعثمانية، نمت نموًّا كبيرًا بتأثير الحقوق والأحكام الإسلامية.

ويعتبر "أورخان غازي" ثاني سلاطين الدولة العثمانية، هو أول مَن أسس نظام الأوقاف التي نمت بشكل منسجم بالنمو الاقتصادي والسياسي للدولة. وعندما أمر أورخان غازي ببناء أول مدرسة عثمانية في إزنيك، أوقف لها من الأموال غير المنقولة (العقارات) لتسد حاجاتها من المصاريف والنفقات. واقتدت بها أوقافٌ أخرى قامت لأغراض مختلفة، كتقديم الأموال لليتامى، وللأرامل، وللغارمين المدينين، وكتوزيع الخضار والفاكهة للمواطنين، وكرعاية الكبار العاجزين كقوّاد القوارب والحمّالين، وكتأمين إرضاع الأطفال، وتجهيز البنات للزواج، وتأمين بَدَلَ الأواني والصحاف التي يكسرها الخدَم لكي لا يتعرضوا للعقاب من أسيادهم، وكإطعام الطيور، وشراء الألعاب للأطفال، وتأمين حاجيات المسافرين، والإنفاق على طلبة العلم وتأمين الإقامة لهم، وتأمين العمل للعاطلين، وكذلك التدريب المهني، ومؤازرة المفلسين والمدينين، وتزويج الشباب، وحماية الحيوانات، وتأمين نظافة الطرقات...

بالإضافة إلى تأسيس أوقاف تمويلية لشق قنوات المياه، وإنشاء القناطر، وبناء سبُل المياه، وحفر الآبار، وبناء المدارس والخانات والحمامات والجوامع والطرق والأرصفة والجسور... وبتمويلٍ من الأوقاف قامت المشافي بتقديم خدماتها للمحتاجين، وتقاضى الأطباء أجورهم منها، ويجري في هذه المشافي علاج المرضى من غير تمييزٍ في لون أو عرق أو دين، ويجري كذلك تأمين الأطباء، كما يتم تقديم الدواء مجانًا إن لزم الأمر، وتقديم وجبة أو وجبتين من الطعام يوميًّا في العمارات لأبناء السبيل والمسافرين والفقراء والمساكين.

مؤسسة الأوقاف والاقتصاد العثماني

النظام الاقتصادي في الدولة العثمانية -إلى جانب الإقطاع الذي ورثته من الدول الإسلامية المتلاحقة- كان يقوم على مؤسسات الفتوة والآخية التي تعتمد على العدالة في أساسها. كان الاقتصاد العثماني يعتمد بنسبة كبيرة على الزراعة، الأمر الذي أكسب أنظمة الأراضي مكانة متميزة ضمن البنى الاقتصادية العثمانية. ونظام الأراضي هذا، كان يتمثل بنظام التيمار؛ وهو نظام يتم من خلاله استخدام الأراضي من قبل الرعايا مقابل الوفاء ببعض الالتزامات كتوريد عُشْر المحصول لصاحب التيمار، ودفع الضرائب المقررة. كما كان أصحاب التيمار بالمقابل، ملزمين بتقديم الجنود إلى الجيش أثناء الحرب، وذلك بما يتناسب مع حجم محصول تيمارهم. ظل التيمار قائمًا كوسيلة اقتصادية للقوة العسكرية العثمانية، إذ لم تقم الدولة بجمع الموارد الزراعية في مركز واحد، إنما أعطتها لسباهية التيمار (الفرسان) لتتمكن من تأمين جنودها أثناء الحرب من جانب، ومن تأمين مواردها الزراعية أثناء السِّلم من جانب آخر، وهذا وفّر لها نظامًا ديناميكيًّا حركيًّا بلا شك.

في القرن السادس عشر، كانت نسبة ٢٠% من الأراضي تدخل ضمن نظام الأوقاف لدى الدولة العثمانية، وكان حوالي ١٥% من موارد الدخل للأوقاف تتكون من الأسهم المقبوضة من واردات الدولة. ففي هذه الحقبة، كانت واردات الأوقاف تشكل ١٢% من بين الواردات العامة. وقد ازدادت هذه النسبة فيما بعد لتبلغ ٢٠%، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن واردات أراضي الأوقاف فقط هي الداخلة في حسابات النسب السابقة. هذا وقد وصلت نسبة رجال الدولة الذين قاموا بتأسيس الأوقاف في القرن التاسع عشر إلى ٤٢%، ونسبة ١٦% من العلماء، و٩% من أصحاب الطرق الصوفية، و٢% من أصحاب الحرف والصناعات، و١١% من أصحاب مختلفي المهن، و١٨% من النساء.

ونظام التمويل الذي تقوم عليه الأوقاف آنذاك، يملك دورًا مهمًّا في خدمات الثقافة والتعليم والصحة والبنية التحتية وأشغال المرافق العامة والخدمات الدينية والاجتماعية، علاوةً على المساهمة في تأمين التمويل والبنية التحتية اللازمة للضمان

الاجتماعي، والعمل الخيري في مختلف الميادين. ففي تركيا اليوم -مثلاً- يبلغ الإنفاق الإجمالي على الصحة، والتعليم، والضمان الاجتماعي، والفعاليات الدينية، والخدمات العامة، (١٠٠) مليار ليرة تركية! وهذا الرقم الذي يعدّ عبئًا ثقيلاً على ميزانية الدولة في عصرنا، كانت الأوقاف تقوم بحمله لوحدها في العهد العثماني.

الأوقاف والخدمات العامة

كانت الأوقاف تلعب دورًا مهمًّا في الإعمار والإسكان إبان العهد العثماني. فالخدمات العامة التي تتلقاها المدن، ومؤسسات الرعاية الاجتماعية، والخدمات التعليمية، والدينية، وكل الحاجات الاجتماعية، كانت تلبى من قبل مؤسسات الأوقاف.

لقد تم دعم الأوقاف عن طريق مصدرين أساسيين: الأول هو المؤسسات الوَقْفِيّة القائمة على مصادر الدولة، وهي على الأغلب أوقاف يقوم بتأسيسها رجال الدولة وعلى رأسهم السلطان وأبناء آل عثمان. والميزة الأساسية لهذه الأوقاف، تكمن في تحويل جزء من الأموال المخصصة للبيروقراطيين من قبل الدولة، واستخدامها في الأنشطة الوَقْفيَّة الخاصة. ونرى أن تشكيل المؤسسات الوقفية التي تستمر في عطاءاتها حول سد الاحتياجات الدينية والعلمية والصحية والثقافية للمدن، أصبحت تقليدًا متّبعًا بين رجالات الدولة. والمصدر الثاني لنظام الأوقاف، يشمل أوقاف المواطنين العثمانيين الأخيار، الذين يبتغون مرضاة الله، ويسعون وراء الأعمال الصالحة التي تفيد الشعب والمجتمع. وهذه الأوقاف وإن كانت صغيرة الحجم من حيث التمويل، فإنها لعبت دورًا كبيرًا لصالح الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

وعليه فإن هذا النوع من نظام الأوقاف الخيرية، الذي أبدى تطورًا مستمرًّا في العهد العثماني، شكّل عنصرًا مهمًّا في تمويل الخدمات، وساهم في نمو المدن العثمانية وازدهارها. ومن ثم أدت هذه الأوقاف مهمّة كبيرة في ارتفاع مستوى المعيشة ومن ثم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في كافة أرجاء الأراضي العثمانية.

إذن، تمتعت الأوقاف بمكانة رفيعة مرموقة لدى الدولة العثمانية، وأصبحت جزءًا أساسيًّا من حضارتها. إذ أقامت الخانات التجارية الوقفية، والأسواق لكافة الأمتعة والسلع؛ من أقمشة ومجوهرات وأسلحة... وشيدت القصور الوقفية العديدة على الطرق

بين المدن والمناطق لتحط القوافل التجارية وقوافل المسافرين رحالها، وتستريح وتأمن شرَّ الأشقياء وقطاع الطرق... علاوةً على أن هذه الأوقاف، ساهمت في تطور الفنون الجميلة كالخط والتذهيب والزخرفة والأبرو (فن الرسم على الماء) وتجليد الكتب، حيث كانت سببًا لآثار فنية عالية المستوى. كما أن للأوقاف أهمية كبيرة أيضًا، في مجال اللغة والثقافة والتاريخ والقانون وحتى في الفولوكلور.

باختصار، لم تترك الأوقاف لدى الدولة العثمانية، ميدانًا من الميادين الاجتماعية، ولا أرضًا من الأراضي العثمانية، إلا ودخلتها وقدمت الخدمات لأهلها. وبفضل هذه الأوقاف، استمرت خدمات التعليم، والصحة، والخدمات الدينية، والثقافية، من غير خلل أو تقصير، حتى في فترات المِحَن والأزمات الداخلية والخارجية للدولة.

ومما يجدر ذكره، أن الأوقاف التي تقدم الخدمات الثقافية والاجتماعية للمجتمع اليوم، والتي تتبناها الدول وتقوم هي بإدارتها وتمويلها، كانت تؤسَّس وتُدار وتموَّل من قبل أشخاص عاديين في العهد العثماني! ومن الصعب جدًّا، أن نجد اليوم دولة من الدول، يقوم أفرادها باستقلال ذاتي بتمويل الخدمات العامة، كما كانت الحال في الدولة العثمانية.

فالدولة العثمانية تحتل مكانة خاصة في تاريخ الوقف عند المسلمين، حيث عرف الوقف فيها تطوراً كمياً ونوعياً كبيراً بالمقارنة مع الدول الإسلامية السابقة. فقد ارتبطت الدولة العثمانية منذ بدايتها بالوقف، وتوسعت في نشر الأوقاف من خلال السلاطين والوزراء وغيرهم، حيث توسعت حدودها في القارات الثلاث. وهكذا، وعلى مدى ٦٠٠ سنة، اشتهرت الدولة العثمانية بالمنشآت الكبيرة التي أقيمت في إطار الأوقاف سواء في المدن أو في الأطراف، خاصة على طريق الحج أو لخدمة المشاعر المقدسة، وتميزت بتطور نوع جديد من الوقف (وقف النقود)، ونوع جديد من المنشآت التي تقدم الوجبات المجانية للمحتاجين (العمارة أو التكية).

وقد عني العثمانيون بالوقف على الحرمين الشريفين قبل الفتح العثماني للبلاد العربية، ولكن بعد معركة مرج دابق في ٩٢٣هـ ١٥١٦م ووصول السلطان سليم الأول إلى دمشق، حيث لقب هناك "خادم الحرمين الشريفين" زادت الأوقاف العثمانية

على طريق الحج والحرمين الشريفين. وفي هذا الإطار لم يعد الأمر يقتصر على السلاطين فقط بل أصبح يشمل زوجات السلاطين والوزراء وكبار الشخصيات.

جامع مهرماه سلطان

لدينا في إسطنبول قرب الأسوار الباقية للقسطنطينية جامع ضخم يلفت النظر بملامحه العمرانية، ألا وهو "جامع مهرماه سلطان" ابنة السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) وزوجة الصدر الأعظم رستم باشا، الذي بنته ضمن الوقف الكبير لها في محلة اسكدار التي تطل على مضيق البوسفور.

وكان ممن اهتم بهذا الوقف وسعى إلى الوصول إلى أصله أو وقفيته الباحث البوسني المعروف محمد خانجيتش M. Handzic الذي اشتهر باسم محمد الخانجي بعد أن نشر في القاهرة ١٣٤٩هـ كتابه المرجعي "الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء بوسنة"، وفي الواقع أن اهتمام خانجيتش بهذه الوقفية إنما يعود لاهتمامه بزوج مهرماه الصدر العظم رستم باشا الذي كان ينحدر أصله من سراييفو أو ضواحيها. ولأجل ذلك فقد توصل خانجيتش إلى وقفية مهرماه سلطان ونشر تفاصيلها في مجلة "نوفي بهار".

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مهرماه ابنة السلطان سليمان من زوجته المعروفة خرّم شاه، التي كانت في الأصل جارية سلافية جاءت اسطنبول باسمها الأصلي روكسلانه وأصبحت الزوجة الأثيرة للسلطان وأمنت لابنها (سليم) وراثة العرش كما زوجت ابنتها من رستم باشا الصدر الأعظم مما جعل نفوذها واسعاً في الدولة العثمانية.

وكما اشتهر السلطان سليمان بأوقافه الكثيرة في بلاد الشام والحجاز، التي بقيت منها "التكية السليمانية" في دمشق (المتحف الحربي الآن)، فإن زوجته خرم شاه اشتهرت أيضاً بأوقافها في بلاد الشام والحجاز حيث بنت عمارة / تكية لتقديم الوجبات المجانية في القدس لا تزال تذكر بها (تكية خاصكي سلطان)، كما بنت عمارة ومدرسة في مكة ومثلها في المدينة. وإذا كانت الأولى حظيت باهتمام أكبر ضمن الاهتمام المتزايد بالقدس فإن أوقافها في الحجاز قد نالت الاهتمام مؤخراً بعد أن نشرت وقفيتها د. ماجدة مخلوف، وفي هذا السياق فقد قامت الابنة أيضاً (مهرماه) بإنشاء وقف كبير في اسطنبول، حيث كان لزوجها رستم باشا أيضاً وقف في الجوار، وهو ما توضحه

وقفيتها التي قام بنشر تفاصيلها محمد خانجيتش.

ويذكر خانجيتش في مقدمة دراسته عن الواقفة أنها "كانت امرأة حكيمة وتصرف الكثير من ثروتها على أعمال الخير"، وفيما يتعلق بثروتها يستشهد خانجيتش بتقرير لدبلوماسي أوروبي في ١٥٧٣م يرد فيه أن ثروتها كانت كبيرة إلى الحد الذي كانت تصرف فيه أكثر من السلطان نفسه (أخوها سليم الثاني) حيث إن الدخل اليومي لأملاكها كان يصل إلى ٢٥٠٠ كيس. وقد توفيت مهرماه سلطان سنة ٩٦٤هـ، وخلفت من الأولاد عائشة خانم التي تزوجت من الصدر الأعظم أحمد باشا.

وفيما يتعلق باهتمامها بأعمال الخير يلاحظ خانجيتش أن الوقفية التي وجدها ونشر تفاصيلها لا تغطي كل ما قامت به مهرماه سلطان في هذا المجال. ويذكر هنا على سبيل المثال قيامها بشق قناة لإيصال ماء الشرب إلى مكة وإلى جبل عرفات، التي أتى على ذكرها المؤرخ المعاصر لها النهروالي في كتابه "الإعلام بأعلام بيت الله الحرام". ونظراً لحجم الوقف الكبير فإن الوقفية المذكورة تشغل ٧٢ صفحة، توصف أصول الوقف ومنشآت الوقف المختلفة ومصارف الوقف وشروط الواقفة. أما فيما يتعلق بلغة الوقفية، التي كتبت بالعثمانية، فقد جاءت بأسلوب جميل "يصلح لأن يكون نموذجاً لغيره" كما يقول خانجيتش.

وبالاستناد إلى التفاصيل الواردة في هذه الوقفية يمكن القول إنه لدينا هنا مجمع عمراني ضخم في محلة اسكدار Uskudar التي تطل على مضيق البوسفور. وفي هذا المجمع لدينا جامع ضخم من بناء المعمار سنان، وفي جواره مدرسة تشتمل على قاعة للتدريس و١٦ غرفة لإقامة الطلبة، وكتاب لتعليم الأولاد، وبيت للضيافة يشتمل على ٨ غرف، وخان كبير مع اسطبل، ومطبخ لإعداد الوجبات المجانية للطلبة والفقراء والعاملين في الوقف.

ولأجل الإنفاق على هذا الوقف الضخم فقد أوقفت مهرماه سلطان ١٨ قرية في الروملي وقرية في الأناضول و٨ طواحين على نهر قراصو في قضاء بني شهر و١٠ دكاكين و٨ بيوت وفرن في محلة اسكدار. ومن عائد هذه الأصول خصصت الواقفة للأشراف والفقراء في مكة والمدينة خمسة آلاف ليرة ذهبية (سلطانية) "في

أول شهر من كل عام"، كما حددت بدقة رواتب العاملين في هذا الوقف الكبير الذين كانوا يقاربون الخمسين. وعلى رأس هؤلاء كان المدرس في المدرسة المذكورة الذي خصصت له ٥٠ أقجة في اليوم، بينما خصصت للواعظ في الجامع ١٠ أقجات وللخطيب ٩ أقجات وللإمام ٤ أقجات وللمؤقت ٤ أقجات والمؤذن ٤ أقجات وللقيم على الكتب الموجودة في المدرسة أقجتين، وصولاً إلى البواب الذي خصصت له أقجة كل يوم. ويلاحظ هنا أن الواقفة قد خصصت للإنفاق على كل طالب من طلاب المدرسة المذكورة أقجتين في اليوم بالإضافة إلى الوجبات اليومية التي كان يقدمها لهم مطبخ الوقف. وإلى جانب ذلك فقد خصصت الواقفة جزءاً من دخل الوقف للإنفاق على عدد من "القرّاء" و "المسبّحين" و "المجوّدين" لقراءة ما تيسر من القرآن الكريم. ففي جامعها المذكور فقط خصصت عشرة "مسبحين" لقراءة "كلمة التوحيد" ألف مرة و"الصلاة على النبي" ألف مرة. كما خصصت لـ "المبخّر" كل يوم ٤ أقجات ليقوم بشراء بخور وتبخير الجامع في أوقاف الصلوات. وفيما يتعلق بالمطبخ المذكور الذي كان يقدم الوجبات المجانية لطلبة المدرسة والعاملين في الوقف، فقد أشارت الواقفة أيضاً على أن تقدم هذه الوجبات لـ "كل فقير يأتي" ولـ "كل رجل صالح" ينزل في الخان المذكور أو في الخان المجاور الذي بناه زوجها رستم باشا. وبالإضافة إلى ذلك فقد خصّصت الواقفة جزءاً من الدخل الوارد من أصول الوقف (٦ آلاف أقجة)، يعطى في كل سنة لثلاثة أشخاص لكي يقوموا بأداء الحج وزيارة قبر النبي على روحها. ويلاحظ هنا أن الواقفة كانت واعية إلى متطلبات إدارة مثل هذا الوقف الكبير، ولذلك فقد رصدت في وقفيتها مبلغ ١٠ آلاف أقجة كاحتياط دائم للوقف كي ينفق منه على أي ضرر يلحق بمنشآت الوقف. ومع ذلك فقد طالبت الواقفة المتولي على الوقف أنه عندما يصل الدخل الإضافي لأصول الوقف إلى ١٠٠ ألف ليرة ذهبية (فلورية) يشتري به عقاراً وأن يقوم بتأجيره أيضاً لضمان استمرار الوقف، و "إذا زاد شيء عن ذلك يرسل إلى فقراء الحرمين".

وفي نهاية الوقفية نجد أن الواقفة خصّصت لنفسها بعد وفاتها، وبالتحديد "بعد أن يتوفاها الله وتلتحق بركب حضرة فاطمة وحضرة خديجة وحضرة عائشة ورابعة

التقية ووالدتها" ما يلزم ضريحها أيضاً. فقد خصصت ٢٤ قارئاً للقرآن الكريم (لكل واحد منهم ١٣ أقجة في اليوم) حتى لا تتوقف قراءة القرآن الكريم على مدار الساعة. وبالإضافة إلى ذلك فقد خصّصت ٣٠ قارئاً يقرؤون كل يوم ختمتين للقرآن واحدة في الصباح وواحدة في العصر، وخصصت لكل واحد منهم ١,٥ أقجة في اليوم.

تكية خاصي سلطان

وبعد الفتح العثماني لبلاد الشام في عهد السلطان سليم الأول ١٥١٢-١٥٢٠م الذي اهتم بدمشق فقط، يمثل عهد السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م فترة مهمة للقدس نتيجة لما بناه فيها (القلعة والسور الخ) وهو ما شجع الآخرين أيضاً على الاهتمام وبناء منشآت حضارية مختلفة. حتى أن القدس تحولت خلال تلك الفترة من قرية كبيرة إلى مركز حضري مهم. ومن هؤلاء كانت زوجته المفضّلة (خاصكي سلطان) خُرّم شاه التي بنت في ٩٥٩هـ/١٥٢٢م "العمارة العامرة" التي اشتهرت باسم "تكية خاصكي سلطان" ولا تزال قائمة وتقوم بدورها الاجتماعي ولو على نحو متواضع مقارنة بالماضي المجيد لها. ويقصد هنا بـ "العمارة" تلك المنشأة الحضارية الجديدة التي برزت وتطورت في بدايات الدولة العثمانية واشتهرت باسم "مطاعم الشوربة"، والتي كانت تقدم وجبة جيدة (رغيف خبز وصحن من الشوربة مع قطعة لحم) في مكان لائق لمن يحتاج إليها.

ومع أن السلطان سليم الأول كان أول من أدخل هذه المنشأة الجديدة إلى بلاد الشام مع "العمارة السليمية" التي بناها في دمشق خلال ١٥١٧-١٥١٨ إلا أن هذه المنشأة اشتهرت أكثر في عهد السلطان سليمان بعد أن بنى واحدة كبيرة في دمشق (التكية السليمانية أو المتحف الحربي الآن) وبعد أن بنت زوجته خرم شاه واحدة أخرى في القدس. وعلى رغم أن هذه المنشأة وردت في دراسات كثيرة في الستين سنة الأخيرة إلا أن الدراسة الأخيرة للمؤرخة آمي سينغر "ترتيب العمل الخيري العثماني: تكية سلطانية في القدس" التي صدرت عن جامعة نيويورك في ٢٠٠٢ أضاءت الكثير من الجوانب المعتمة أو غير المعروفة بما فيه الكفاية حول السياق التاريخي والدور الاجتماعي والواقع الحاضر لهذه المنشأة في القدس.

ونظراً إلى أن هذه المنشأة وغيرها بنيت كوقف، أي أنها كانت لها مصادر تمويل تكفي نفسها بنفسها وتسمح لها بأن تستمر عبر القرون، كان من الضروري للمؤرخة سينغر أن توضح للقراء غير العرب وغير المسلمين ماذا يعني الوقف عند المسلمين. والمهم في هذا الكتاب أن سينغر تغوص في جذور العمل الخيري عند

الشعوب الأخرى في الدول التي سبقت ظهور الإسلام (الدولة الرومانية ثم البيزنطية والدولة الساسانية) لتصل إلى ما هو متشابه وما هو متميز في الوقف لدى المسلمين وغير المسلمين (اليهود والمسيحيون والزرادشتيون). وضمن هذا الإرث التاريخي تتوقف المؤرخة سينغر عند دلالة تقديم الطعام في الدول المتعاقبة. فالأكل في الدولة الرومانية والبيزنطية كان يقدم للمحتاجين، ولكن التقاليد التركية المغولية ربطت ذلك بالحاكم باعتباره الراعي لشعبه وأصبحت هذه الخدمة من فلسفة نظام الحكم التي تعطي القوة للحاكم والشرعية لنظام الحكم.

ومن هنا تصل سينغر إلى أن الأتراك العثمانيين بعد اعتناقهم الإسلام طوروا هذه الخدمة في منشأة مستقلة متخصصة في تقديم الطعام للمحتاجين (العمارة) بالاستناد إلى الإرث المتنوع للحضارات والدول المختلفة. وإلى جانب ذلك فقد توقفت المؤرخة سينغر عند الرمز الجديد الذي حملته هذه المنشأة في القدس بالنسبة إلى السياق الاجتماعي: بروز دور المرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية للدولة العثمانية على غير ما هو معروف في الدول الإسلامية السابقة.

ولدينا في هذا المجال كتاب صدر بعنوان: "أوقاف نساء السلاطين العثمانيين، وقفية زوجة السلطان سليمان القانوني على الحرمين الشريفين"، من تحقيق وتقديم د.ماجدة مخلوف، تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الكتاب، كما هو واضح من العنوان، يعتمد على وقفية واحدة فقط لخرّم سلطان (التي تستحق أن يبرز اسمها في الغلاف لأن السلطان سليمان كانت له أكثر من زوجة) تعود إلى ربيع الأول ٩٦٠ هـ، مع أن صاحبة الوقف كانت لها أوقاف أخرى في بلاد الشام والأناضول وهو ما كان يستحق التنويه.

لفمن أهم منشآتها في بلاد الشام لدينا "تكية خاصكي سلطان" التي لا تزال قائمة في القدس على عكس منشآتها في مكة والمدينة التي لم يبقَ منها ما يذكر بها، وفيما يتعلق بما أوقفته خرم سلطان في مكة والمدينة يمكن القول إنه من الأوقاف الكبيرة التي تضمنت المنشأة الحضارية التي اشتهرت مع العثمانيين وانتشرت في البلاد التي فتحوها، ألا وهي العمارة أو التكية التي تقدم وجبات مجانية في مبنى مستقل يليق

بكرامة الإنسان. فقد أنشأت خرّم سلطان في مكة المكرمة عمارة وتكية كانت تقدم ألف وجبة في اليوم بالإضافة إلى رباط يتألف من ٤٨ حجرة لسكن طلاب العلم وسبيل للماء فوقه كُتَّاب للأطفال. وكذلك فقد أنشأت في المدينة المنورة عمارة أو تكية تقدم في اليوم ألف وجبة بالإضافة إلى رباط مؤلف من ٤٤ حجرة لسكن طلاب العلم. ونظراً لأن أصول الوقف كانت في مصر (أراضي زراعية) فقد عمدت الواقفة إلى بادرة غير مألوفة ألا وهي وقف سفينتين مخصصتين فقط لنقل الغلال من مصر إلى الحجاز، وبالتحديد من السويس إلى جدة وينبع. وقد اشترطت خرم سلطان في الوقفية أن يتم تجديد السفينتين باستمرار حتى تكون صالحة دوماً لنقل الغلال و "إن تلفتا بحادثة من حوادث الأوان يبنى بدلها بلا تهاون وتوانٍ".

من ناحية أخرى، يلاحظ في الوقفية اهتمام الواقفة بشروط عمل وأجور عشرات العاملين في هذه المنشآت التي بنتها في مكة والمدينة. وهكذا تشير إلى متولي العمارة أو التكية، حيث تشترط على من يتولى هذه الوظيفة أن يكون "رجلاً صالحاً ديناً، مواظباً على مراسم التولية بالاستقامة، وأن يحضر في المطبخ كل يوم صبيحة النهار ويعطي كل ذي حق حقه بلا تبذير وإقتار" و "يذوق في كل يوم من الخبز والطعام، ويهتم بتحسين طعمهما آية الاهتمام، ويبالغ ألا يكون منهما نيئاً أو محترقا"، وفيما يتعلق بالطباخ الذي يعمل في العمارة أو التكية و"يكون تلامذته أربعة أنفار يساعدونه كل نهار ويعاونونه في الطبخ وغسل الأواني"، فقد شرطت الواقفة أن "يكون الطباخ رجلاً صالحاً ديناً وفي صفة الطبخ ماهراً.. ويبالغ في تحسين طعم الطعام ويهتم بتطييبه وتنظيف أوانيه غاية الاهتمام"

وأخيراً فيما يتعلق بمقدمة الوقفية يلاحظ أن كاتب الوقفية قد أسبغ الكثير من الصفات المعظمة للواقفة حتى إنها توصف بـ "ملكة الملكات" و "التي هي في العفة خديجة زمانها وفي الفطنة فاطمة أوانها وفي الدولة بلقيس وقتها.. عديلة عائشة أم المؤمنين في الزهد والتقوى، نظيرة رابعة التي كانت بالتقوى تقوى". ولا شك أن هذه الأوصاف لم تجتمع لأحد في عصرها ولكنها لا ترفع بالضرورة خرّم سلطان إلى واحدة من الشخصيات المذكورة لأنها تعود إلى قناعة أو مجاملة كاتب الوقفية. وكذلك

الأمر فيما يتعلق بالأوصاف المذكورة لزوجها السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م. فكاتب الوقفية يصفه بأنه "السلطان الأعدل، ملك الملوك في العالم ومالك ممالك الروم والعرب والعجم، وخليفة الرحمن وإمام الزمان"، ولكن محققة الوقفية د.مخلوف تتوقف عند هذه الفقرة لتستنتج في مقدمة الكتاب "أمراً على جانب كبير من الأهمية"، ألا وهو "ذكر اسم السلطان سليمان القانوني مقروناً بألقاب الخلافة"، وفي الحقيقة أن ما ورد هنا ليس له قيمة تاريخية أو سياسية في رأينا، لأن كاتب الوقفية قد خلع على الواقفة من الصفات ما جعلها في أعلى علِّيين، وكذلك الأمر بالنسبة لزوجها، ولكن بالنسبة إلى السلطان فالمهم هو ما يذكره عن نفسه في الفرمانات والخطوط الشريفة التي كان يصدرها والمعاهدات التي كان يعقدها مع الدول الأخرى.

وقد أبهر هذا الرحالة الأوروبي جاك دي فيلامون، إذ أبدى دهشته من هذه المؤسسات الخيرية، وبخاصة التكية أثناء زيارته لدمشق في العام ٩٩٩ هـ/ ١٥٩٠م. ولم تقتصر المنشآت الوقفية الضخمة على السلاطين، فقد اقتدى الولاة الذين تولوا حكم دمشق خلال ذلك القرن وبعده، بالسلاطين في مجال الأوقاف، نذكر منهم لالا مصطفى باشا، الجنرال البوسنوي الذي عيّن والياً على دمشق في العام ٩٧١ هـ/ ١٥٦٣م، فأوقف جامعاً وحماما وخاناً سماه "الخان الجديد"، وعدة تكيات ذكر منها محمد كرد علي في موسوعته "خطط الشام" واحدة في بلدة القنيطرة. وفي العام ٩٧٦ هـ/١٥٦٨م، أوقف الوالي مراد باشا جامعاً ومقبرة في حي السويقة وخاناً أسماه "خان مراد باشا"، وفي العام٩٧٩هـ/ ١٥٧١م عيّن درويش باشا والياً على دمشق، فأشاد الدمشقيون بجهده في استتباب الأمن، وكذلك بالمنشآت التي أوقفها، وهي جسر وسوق وعدة أسبله، وخان وحمام بالقرب من الجامع الأموي، ومسجداً ومقبرة، وفي العام ٩٨١ هـ/ ١٥٧٣م، أوقف قيسارية وجعلها وقفاً لصالح مسجده، وأنشأ خاناً يعرف باسم "خان الحرير".

أما سنان باشا، فقد تولى مهام منصبه في العام ٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م، والياً على دمشق، وهو ألباني المولد، أوقف في دمشق مسجداً وخاناً وجامعاً ومدرسة وحمامين. ومن الملاحظ أن أوقاف الأمراء والسلاطين، تكون عبارة عن مجموعة من المنشآت

المتكاملة، وهي المنشآت اللازمة لنشوء حي "الجامع والمدرسة والحمام والسوق"، دينية واقتصادية واجتماعية، وهذا ما أدى إلى توسع عمراني في مدينة دمشق خلال ذلك القرن.

وإذا كانت أوقاف السلاطين والأمراء قد أخذت حيزاً في مصادر التاريخ، فإننا نجد في دفاتر الأوقاف التي يتم تحقيقها ونشرها، تنوعاً واسعاً ومساهمات من مختلف فئات المجتمع، ففي دفتر الأوقاف الذي نشره أيدين أوزقان حديثاً، يذكر لنا أن الشيخ زين الدين عبد اللطيف محمد بن شجاع الدين دعبل، من أهل قرية دير القمر، يوقف زاوية في هذه القرية التي هي من أعمال صيدا، ويشتري من محصول الوقف بستة آلاف درهم، مصحفاً وتفاسير وكتب حديث وسيرة وفقه، ويوقفها على المترددين إلى الزاوية، ويعين في هذه الزاوية إماماً ومؤذناً وقيماً وخادماً وبواباً، كما أنه يصرف من محصول الوقف ثمن حصر وبسط وقناديل وزيت وكذلك لإصلاح الزاوية وترميمها.

حتى النساء كان لهن مساهمات فعالة، فهذه الخاتون أصيل بنت الأمير حاتم، أوقفت مصبغة، ويبدو أن إيراد هذه المصبغة كان ضخماً، وهذا ما تدلنا عليه الوقفية، إذ أنها أوقفت على قرّاء لكتاب الله تعالى وللحديث الشريف ولصحيح مسلم، وخصصت سنوياً للفقراء حلوى توزع عليهم في شهر رجب وشعبان، وكذلك سبيلي ماء، أحدهما بدمشق والآخر بالحرم الشريف، وهناك الكثير من الوقفيات التي تكون على ذرية شخص معين، ثم تؤول إلى جهة معروفة، كمدرسة أو تكية أو زاوية، أما الأوقاف على المساجد فهي كثيرة وتغص بها دفاتر الأوقاف.

أوقاف السلطانات

وهكذا فقد كانت نيلوفر زوجة اورخان (١٣٢٦-١٣٦٢) المؤسس الحقيقي للدولة أول من بنت تكية وجامعاً في بورصة العاصمة الأولى للدولة العثمانية، ثم جاءت غول تشيتشك زوجة السلطان مراد (١٣٦٢-١٣٨٩م) وبنت جامعاً باسمهما في بورصة، وبعدها غول روح زوجة السلطان بيازيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢م) التي بنت عمارة وجامعاً في آق حصار الخ.

وفي ما يتعلق بالسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) يلاحظ أن أمه حفصة خاتون بنت أيضا تكية ومدرسة وجامعاً في مدينة مانيسا. والمهم هنا، كما توضح سينغر، إن حفصة خاتون كانت أول من حملت رسمياً لقب "والدة السلطان" وهو ما كان يشير إلى تقدم مكانة أم السلطان في الحياة العامة وتزايد مشاركتها في سلطة السلالة العثمانية، ولكن يلاحظ هنا، أن هذه الحالات الرائدة للدور الجديد لنساء البلاط العثماني اقتصرت على المدن الإقليمية بينما سيبرز هذا الدور أكثر في عهد السلطان سليمان عندما تقوم زوجته المفضلة خرم شاه بإنشاء أول مجمع ضخم يحمل اسم امرأة في العاصمة العثمانية (إسطنبول) يضم جامعاً ضخماً وحماماً مزدوجاً الخ ، بالإضافة إلى سلسلة من المنشآت الخيرية (العمارات) في العواصم الروحية المهمة للعالم الإسلامي (القدس ومكة والمدينة).

وفي الواقع أن هذا الظهور القوي لامرأة على مستوى الدولة العثمانية من خلال هذه المنشآت العمرانية الكبيرة إنما كان يرمز بحسب سينغر إلى أمر مهم: فإذا كانت صفية خاتون أول امرأة تعزز دورها بلقب "والدة السلطان" فان خرم شاه كانت أول امرأة تبرز بدورها من خلال لقبها كزوجة السلطان (خاصكي سلطان). وتجدر الإشارة هنا إلى أن خرم كانت كغيرها من زوجات السلاطين المذكورين من الجواري ذوي الأصول المختلفة اللواتي برزن وحملن معهن مؤثرات الأمكنة التي جاؤوا منها. فقد كانت خرّم سلافية الأصل باسم روكسلانه، وقد أكدت دورها السياسي بعدما دفعت زوجها السلطان سليمان إلى قتل ولده المفضل من زوجة أخرى لتفسح المجال لكي يتولى ابنها سليم الحكم بعد وفاة زوجها في ١٥٦٦ باسم سليم الثاني.

وكما هو الأمر مع الوقف، فان المؤرخة سينغر تعتقد أن هذا البروز القوي للمرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية إنما يعود إلى الإرث المغولي التركي الذي كان يسمح بمشاركة المرأة في الحرب والسياسة، وإلى الإرث البيزنطي الذي انتقل إلى الدولة العثمانية من خلال زواج السلاطين الأوائل (أورخان ومراد وبيازيد الخ) بالأميرات البيزنطيات. وهكذا يكفي هنا أن نذكر أنه خلال ١٢٩٧-١٤٦١م فقط تزوجت ٣٤ أميرة بيزنطية وصربية من سلاطين وأمراء أتراك ومغول. ففي الدولة البيزنطية كان من الشائع لأمهات وزوجات وشقيقات الأباطرة أن يشاركن أيضاً في المشاريع الاجتماعية.

ولكن من ناحية أخرى تتوسع المؤرخة سينغر في دوافع خرّم شاه في بناء مثل هذه المنشأة في القدس بالذات، وهكذا فهي تذكر أولاً أن القدس والخليل كانتا تحظيان بالاحترام باعتبارهما "الحرمين" بالنسبة إلى المسلمين إلى جانب "الحرمين الشريفين" في الحجاز (مكة والمدينة). ولذلك فقد بنت خرّم شاه في القدس ما كان ينقصها تماماً إذ أنه في الخليل كان لدينا منذ قرون "سماط الخليل" الذي يوفر الطعام لزوار الخليل. أما القدس التي برزت الآن في هيئة جديدة خلال عهد السلطان سليمان فقد كان ينقصها مثل ذلك لتوفير الطعام إلى العدد المتزايد من زوار هذه المدينة المقدسة، وذلك بعد أن بنت منشأتين متشابهتين في مكة والمدينة.

ونظراً إلى أن سينغر تعتبر أن مثل هذه المنشأة (العمارة) خدمت تعزيز الوجود العثماني (الاستيطان) في المناطق المفتوحة في الأناضول والبلقان فهي تصل هنا إلى أن هذه المنشأة الجديدة في القدس ساهمت بدورها في الاستيطان colonization واكتساب الشرعية legitimization والتطور الحضري urban development للمدينة، ولكنها تصل في تفسيرها في موضع آخر إلى حد القول بأن ذلك "يبدو أنه كان موجهاً ضد الحضور والتقاليد المسيحية في القدس". أما في ما يتعلق بواقع هذه المنشأة الجديدة التي أقامتها خرّم شاه في القدس فقد كانت تقدم ٥٠٠ وجبة مرتين في اليوم، في الظهر وعند الغروب، وهذا رقم ليس بالقليل إذا أخذنا في الاعتبار عدد سكان القدس في القرن الأول للحكم العثماني (٣-٤ آلاف) أي ما يفوق ٦٠ في المائة

من عدد السكان. وهذه لم تكن فقط في القدس وإنما نجد ما يماثلها في العاصمة الإمبراطورية الأولى للدولة العثمانية (أدرنه) حيث كان لدينا ١١ عمارة تقدم الطعام لـ ٢٦٠٠ شخص يومياً، وحتى في العاصمة الجيدة (إسطنبول) حيث كان لدينا ٢٠ عمارة تقدم الطعام يومياً إلى ٤ آلاف شخص.

وتستشهد سينغر بكتابات رحالة أوروبيين خلال القرن السابع عشر ثم القرن الثامن عشر تصف بتقدير خدمات هذه المنشأة، وتصل إلى أن قيمة هذه المنشأة في كونها استمرت تحت الحكم الانتدابي البريطاني ثم الأردني وأخيراً الإسرائيلي، وهي لا تزال تقدم الطعام للمحتاجين ولو بشكل أقل بسبب تراجع مواردها. وتنتهي المؤرخة سينغر إلى أن تكية خاصكي سلطان في القدس إنما هي من المنشآت النادرة التي بقيت حتى الآن من أكثر من مئة عمارة، إذ لا يزال لدينا فقط ٣ أو ٤ منشآت من هذا النوع (عمارات) في المجال العثماني السابق، مثل عمارة السلطان بايزيد الثاني في أماسيه وعمارة مهرشاه والدة السلطان في محلة أيوب في إسطنبول وعمارة الأحمدية في محلة أسكدار إسطنبول التي فتحت أبوابها من جديد في ١٩٩٩ بعد توقف استمر عقوداً.

كتاب سينغر جاء بعد كتاب أحمد العلمي "خاصكي سلطان" (عكا ٢٠٠١) ليبرز جوانب جديدة في ما يتعلق بتطور إسهام المرأة في الوقف خلال الدولة العثمانية وأهمية هذه المنشأة بالنسبة إلى القدس، وهو على أهميته، لم يجد بعد من يترجمه إلى العربية بعد مرور عشر سنوات على صدوره بالإنكليزية.

أوقاف السلطانات في مكة

مكة المكرمة هي العاصمة الدينية والثقافية والاجتماعية لجميع المسلمين في كل زمان ومكان وهي مهوى أفئدتهم ومستقر وحدتهم ومجمع أخوتهم ، لذا كانت خدمة هذه البقعة المقدسة شرفا يحرص الحكام المسلمين في كل عصر من عصور التاريخ علي الظفر بها، فالعثمانيون حرصوا منذ قيام دولتهم علي التعبير عن مدي حبهم واحترامهم للحرمين الشريفين ، وذلك ببذل الكثير من الأموال والمساعدات لأهل مكة خاصة عند تعرضهم للكوارث والنكبات سواء كانت سيولا أو قحطا وغيرها ، وكانت هذه الرعاية لأهل مكة قبل وصولهم للعالم الإسلامي ، فأرسلوا الصرة إلى الحجاز من زمن السلطان بايزيد الأول ١٣٨٩ م/ ١٤٠٢م، أي قبل أن يتشرف العثمانيون بخدمة منطقة الحجاز بأكثر من قرن من الزمان ، ثم أرسل السلطان مراد الثاني الصرة وكانت مقدارها عشرة آلاف فلوري، وتلاهم السلطان محمد الفاتح فأرسل سبعة آلاف ذهب ، وكذلك السلطان بايزيد الثاني الذي أرسل أربعة عشر ألف دوقة ذهبا، كما أنهم أوقفوا الكثير من حاصلات قرى نائية في الأناضول علي مكة المكرمة. فكانت مكة والمدينة تعجان بالحركة ويعمها الخير مع قدوم الصرة كل ذلك يدل دلالة واضحة علي مدى ارتباط العثمانيين وتقديرهم للحجاز عامة و لمكة المكرمة علي وجه الخصوص.

وكان للسلاطين العثمانيين أعمالهم الخيرية في الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ولهم تعميراتهم في الحرم المكي، ورعاية أهله وتقديم كافة الخدمات والمرافق العامة لهم، ويعتبر الوقف عند العثمانيين جزءا من ثقافتهم ، وقد طبقه العثمانيون بدقة وحسب الشرع الشريف ، الأمر الذي جعل السعادة والرفاهية تتحقق بشكل متكافئ بها، وبعبارة أخرى فقد أسهم الوقف بدور كبير في امتصاص التوتر الاجتماعي بما كان يقدمه من خدمات مجانية للفئات المحتاجة في المجتمع ، وإرساء نوع من السلام الاجتماعي الذي كان يخدم بطبيعة الحال النظام القائم. وبما أن الوقف معناه حبس العين علي حكم الله تعالى ، والتصدق بالثمرة علي جهة من جهات البر وهو نوع من أنواع الصدقات الجارية بعد وفاة المتصدق فيعم خيرها، ويكثر برها

وتتضافر بها الجماعات في مد ذوي الحاجات، وهو من التبرعات المندوبة لقوله تعالى: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» [آل عمران: آية ٩٢] لذا حرص العثمانيون علي الاهتمام به اهتماما بالغًا.

ووثائق الوقف بمثابة الضوء الذي ينير لنا دراسة ماضينا حيث لم يقتصر الوقف علي الرجال فقط وإنما كان للنساء دور في تأسيسه وتامين التكافل الاجتماعي الذي ينهض بالمساعدات الصحية والعلمية والثقافية ، لذا انشأ العثمانيون في سنة ١٥٨٧/٩٥٥ م وزارة خاصة بالحرمين الشريفين عرفت باسم نظارة الحرمين ، مهمتها إدارة الأوقاف الخاصة بالحرمين الشريفين ويشرف عليها آغا دار السعادة، وكانت مهمة هذه النظارة إدارة الأوقاف الخاصة بالحرمين الشريفين وفق شروطها ، وقد ازدادت أهمية هذه النظارة بعدما تزايدت أوقاف السلاطين وزوجاتهم ، فأنشئت أربع إدارات تابعة لهذه النظارة، ومن الملاحظ علي وثائق الوقف العثمانية أنّه يندر أن تكون هناك وثيقة وقفية إلاّ ويكون للحرمين الشريفين نصيب منها، وذلك يرجع إلى مكانة ومحبة الحرمين الشريفين لدى العثمانيين، وكان لأمهات السلاطين دور فعال في إثراء المجتمع المكي بالأوقاف التي قدمنها.

وقد أشار المؤرخ التركي المعاصر يلماز اوزتونا إلى أن جميع منجزات المؤسسات الاجتماعية قد شيدت بفضل مؤسسة الوقف ، وبمشاركة السلاطين والولاة وبقية المواطنين ، وتنوعت الأوقاف في مجالات تفوق التصور منها : تجهيز الفتيات الفقيرات، وتامين حاجة البارود ، ورصف الأزقة ، وسداد ديون السجناء والمعسرين ، وعلي راس المؤسسات الخيرية ، الجوامع ، والمساجد ، سبيل الماء والمدارس ومؤسسات إطعام الفقراء والمستشفيات والخانات والحمامات ، ودور العجزة والمصانع وغيرها.

وبما أن المرآة شقيقة الرجل في حمل مسئوليات مجتمعها وأعباء النهوض به و إصلاحه ، وفق الضوابط الشرعية وبما يصون كرامتها ويحفظ عفتها فانه يمكن الاستفادة من طاقاتها لذلك تعتبر مؤسسة الوقف من أهم النماذج التي تبرهن على فعالية مشاركة المرآة في تنمية مجتمعها وذلك خلاف للمقولات الشائعة حول ضآلة

إسهامات المرآة ، فأوقاف النساء في الدولة العثمانية تعطي مثالا حول استغلال المرآة للحاجة الاجتماعية للتأثير في مجتمعها ، فجاءت أوقافهن الضخمة التي ساعدت علي ازدهار الحياة العلمية والاجتماعية في مكة المكرمة، ويأتي على رأس هؤلاء نساء القصر وزوجات السلاطين وبناتهم؛ فكن يتسابقن في أعمال الخير من سن السابعة حتى السبعين من أعمارهن، حتى أصبحن في مقدمة مؤسسو الوقف على مدار التاريخ، وتوجد في أرشيف المديرية العامة للأوقاف في استانبول ستة وعشرون ألف وقفية تدل على الأوقاف وأصحابها منذ تأسيس الدولة العثمانية ، منهم ألفان وثلاثمائة وتسعة وقفية كانت من نصيب النساء أي أن من أسسته هن النساء ، ونجد أن في القرن ١٠هـ/١٦م وقفيات النساء تمثل حوالي ١٧% من الوقفيات ، وأما القرن ١١هـ/١٧م نجد نسبة وقفيات النساء ٣٠% من الوقفيات ، ولعل ما يظهر على تلك النسبة في القرن ١١هـ/١٧م هو أن تلك الفترة عرفت في التاريخ العثماني باسم ((سلطنة النساء)) أي قويت وعظمت فيها ادوار النساء وبالتالي كثر الوقف عندهن.

كان لوالدات السلاطين ونساءهم مكانة لدى أولادهن وأزواجهن، ويتمتعن بنفوذ سياسي في إدارة الدولة ، كما حققن ثراءً واسعا بفضل الأموال المنقولة وغير المنقولة التي خصصت وملكت لهن ، وكان للسلطانة الوالدة أيضا إيرادات تأتيها من أماكن شتي في الدولة العثمانية ، من ريع أراضي الخاصة باسم (باشْمقلْق) ومخصصات أخرى كثير صيفية وشتوية ، كما كانت الهدايا التي تأتيها من الدول الأجنبية ومن رجالات الدولة العثمانية تشكل مقدارا كبيرا من الثراء ، لكنهن لم يستخدمن هذا الثراء في أغراض دنيوية ، بل سخرنه في سبيل إرضاء الله عن طريق وقفه على أعمال البر ، خاصة خدمة الحرمين الشريفين ،. وحققت هذه الأوقاف الكثير من الأعمال التي لم تستطيع الدولة أن تحققها ، فحظي الحرمان الشريفان بنصيب وافر من هذه الأوقاف وتعد الأميرة خاتون ابنة السلطان مراد الثاني ٨٢٤هـ / ١٤٢١م أول من أوقفت على الحرمين الشريفين بين نساء العثمانيين ، فقد أوقفت عائد أوقاف لها تابع ليني شهر (البلد الجديد) في بروسه على فقراء المدينة المنورة ، وبعد ذلك أوقفت كثير من النساء وعلي رأسهن والدات ونساء السلاطين العديد من الأوقاف.

فإن زوجة السلطان أحمد الأول ماه بيكر كوسام ، وأم السلطانين مراد الرابع وإبراهيم الأول، أوقفت أوقافا كثيرة للحرمين الشريفين مثل توفير احتياجات المياه في طريق الحجاج ، وتوفير الإبل اللازمة ـ وتوزيع الملابس علي المحتاجين وتوفير الطعام للمسافرين وكذلك كانت السيدة مهر ماه ابنة السلطان سليمان القانوني تنافس والدها وزوجها رستم باشا في أعمال الوقف للحرمين، ولم تكتف بذلك بل خصصت مبالغ باهظة من مالها الخاص لإعادة إنشاء عين زبيدة.

أما وقفية الوالدة خديجة طرخان سلطان والدة محمد الرابع المؤرخة بتاريخ ٢٧ رجب ١٠٧٣هـ ١٦٦٣/٢/٢٥م تضمنت تخصيص أراضي أوقفتها للحرمين وذلك بمبلغ ٧٥٠٠ اقجة لتأجير ٦٥ جمل تحمل نصفها بالمياه لخدمة الحجيج لعدم توفر المياه ، وتحمل بقية الجمال الأخرى بأمتعة للحجاج كما قامت بتنظيف الآبار الموجودة في طريق الحج مما أدّى إلى إمكانية استخدامه بصوره ميسره وحفرت آباراً جديدة في أماكن نزول المسافرين وخصصت في وقفيتها مبلغ ٧٨٠٠ ريال لتلبية احتياجات الحجاج والحرمين من المياه واشترطت في هذا الخصوص تعين شخص أمين متدين كبيرًا للسقاة براتب قدره ٣٠٠ قرش.

كذلك خصصت السيدة خاصكي خُرم سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني التي أنشأت مطعمين خيريين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، تقدم الطعام يوميا لفقراء المسلمين ، وقد أوقفت علي هذين المطعمين الخيريين أوقافا كثيرة بعضها مما أهداه إليها السلطان سليمان القانوني من أراضي قري مصر ، والبعض الآخر عبارة عن عقارات تم شراؤها من أصحابها في مكة المكرمة ويقع هذا المطعم الخيري بجانب مسجد الراية بالقرب من المدعى ، وبجوار المطعم الخيري مطبخ ومخبز وبيت للرحى ، بئر ماء وثلاث مخازن بالقرب من سوق الليل بمكة ، وكذلك أنشأت رباطاً يحتوي علي ٤٨ حجرة وسبيل ماء. واشترطت أن يسكن الرباط العلماء العابدين والصلحاء الزاهدين ويقع هذا الرباط في مكان يقال له القشاشية.

وكانت السلطانة بزم عالم زوجة السلطان محمود الثاني و والدة السلطان عبد المجيد الأول قد شرعت في بناء مستشفي خيري بمكة المكرمة ، لكنها توفيت قبل

تمامه فأتمه السلطان عبد المجيد الثاني، بورتينيال والدة السلطان عبد العزيز واصغر زوجات السلطان محمود الثاني ، التي أدخلت إصلاحات وخيرات كثيرة لمستشفي الفقراء في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وأمرت بتوظيف أطباء وقابله وصيدلاني وجراح ، وتوفير كل ما يلزم المستشفي من خدمات.

أما أوقاف السيدة كولنوش والدة سلطان فهي كبيرة نساء السلطان محمد الرابع و والدة السلطان مصطفى الرابع واحمد الثالث ، كان لها أوقاف وأحباس عظيمة ذات ريع وفير في استانبول وفي مصر ، احتوت حجة الوقفية على دار للشفاء بمكة ، ومطعم خيري ، وسفينة يطلق عليها (بارحج) وصندلين لنقل المحاصيل من مصر إلى ميناء جدة وعنابر في السويس وجدة وبولاق للحفاظ علي أموال الوقفية ، ومخازن ومخبزًا مجهزا وطواحين لطحن القمح والحبوب ، وخمسة أوعية كبيرة لطهو الطعام في المطعم الخيري وفرن بجوار المطعم لعمل الخبز، ووعاء كبير لتخمير العجين ، ٣٠ قطعة من الملاعق مصنوعة من النحاس ، وأوقفت كذلك ٢١ قرية في مصر للصرف علي دار الشفاء والمطعم والفرن . كما حرصت الواقفة علي تخصيص مبالغ للأعمال المعنوية كقراءة القران الكريم وختمه ، وكذلك الدعاء للواقفة ، كما أوقفت مبالغ لإنشاء أحواض للمياه وجسور وأسبله في طريق الحج وغيرها من الأماكن.

ويتضح من دفاتر الصرة التي رتبت باسم الأميرة صفية ١٠١٤/١٦٠٥م زوجة السلطان مراد الثالث أموال وقفيتها التي أقامتها بقصد ختم القرآن الكريم في مكة والمدينة في مختلف الأوقات ، ويحمل أول دفتر للصرّة خاص بها تاريخ ٢٥ جمادى الآخرة ١٠٤٧هـ/٢٤ يناير ١٦٦٤ م، وتتضمن إحساناتها مبلغ ١٤ ذهبا لشيخ الحرم و ٣٠٨ ذهب لستين شخص من أهل القرآن لختم القران في صلاتي الصبح والظهر ، و ١٥٤ ذهبا لواحد وثلاثين شخص من أهل القرآن لختم القرآن في صلاة العصر و ٢٠٤ ذهب لأربعين شخصاً للدعاء بدوام الدولة العثمانية بعد الصلاة كل صباح، ويدخل وقفها ضمن الأوقاف التي خصص ريعها بالكامل للحرمين الشريفين.

وقد أوفقت السيدة شمس رُخسار (١٠٢٢/ ١٦١٣) إحدى زوجات السلطان مراد الثالث في أواخر ربيع الآخر ١٠٢٢/يونيه ١٦١٣م الربع القائد من تشغيل مبالغ

١,١٠٠ سكة وهو ما يمثل ثلث أموالها على الحرمين الشريفين، ومما هو جدير بالذكر أنّه كانت هناك أوقاف أسسها السلاطين العثمانيون وزوجاتهم بقصد التوكيل في أداء فريضة الحج ، فقد أدّى السلاطين العثمانيون وزوجاتهم ومعظم رجال الحكومة فريضة الحج الواجبة على كل مسلم مستطيع بواسطة غيرهم بطريق الإنابة ، وذلك لان الرحلة بين استانبول ومكة المكرمة كانت تستغرق في ذلك الوقت من ثلاثة إلى أربعة أشهر ذهابا وإيابا ، ولم يكن من الملائم ابتعاد السلاطين عن مركز الدولة هذه المدة الطويلة ، ولذا اصدر العلماء فتوى تجيز لهم الإنابة في أداء هذه الفريضة ، واعتمادا علي هذه الفتوى لم تكتف والدات السلاطين وزوجاتهم ، وبعض الوزراء ورجال الحكم بإنابة غيرهم في أداء فريضة الحج ، بل أسسوا أوقافا لأداء هذه الفريضة نيابة عنهم كل عام، وكان الشرط الأساسي في هذه الأوقاف هو أداء فريضة الحج من قبل أفراد قادرين علي أداء شعائر هذه الفريضة، كما اشترط أداء هذه الفريضة الواجبة علي الفرد مرة واحدة سنويا عن طريق الأوقاف.

ونخلص من هذا العرض لأوقاف بعض نساء السلاطين العثمانيون وتقديم كل ما يمكن لأهل الحجاز عامة ومكة علي وجه الخصوص إلى أن المرأة كانت تشارك الرجل في أعمال الخير وان وقفيات النساء لم تكن تختلف عن وقفيات الرجال من حيث الإجراءات وربما اهتم المؤرخون بإظهار دور الرجال في الوقف دون النساء في العصر العثماني نظرا لان الحريم العثماني كان لفترة طويلة عالم مجهول لا يعرف عنه احد شيء إلى أن ظهرت الوثائق ، وكتب بعض أغوات دار السعادة الذين كانت مهمتهم الكبرى داخل الحريم السلطاني عن هذه الأوقاف، وقد يرجع السبب في ذلك أيضا إلى أنّ الأموال لم تكن في يد الزوجة الأمر الذي جعل نسبة الأوقاف للنساء تسير بنسب أقلّ من الرجال إلاّ أنّه كان لهنّ دور فيها، لذا قد بات لزاما علي نساء المسلمات المشاركة بفعالية في تقديم وإصلاح مجتمعاتهن ليس فقط من خلال الأدوار الأسرية وإنما أيضا بإسهامات اجتماعية مفيدة

وقبل أن نختم الكلام عن موضوع الوقف نحب ان نستطرد في الحديث عن أهمية الوقف للدولة العثمانية، وكيف كان يعد الأساس لنهضة تلك الدولة، فمع الفتح العثماني

للبلقان منتصف القرن الرابع عشر، بخاصة بعد أن انتقلت عاصمة الدولة العثمانية الى البلقان (أدرنة) في ١٣٦٠، أخذت تتغيّر صورة المنطقة، مع تأسيس المدن الجديدة وتطور المدن الموجودة (أدرنة وسالونيك وصوفيا... إلخ) التي مثلت العمارة العثمانية الجديدة بمنشآتها المميزة (الجوامع والمدارس والحمامات... إلخ)، والتي تطعمت بعناصر محلية أيضاً. وفي هذا السياق، كان للوقف جذوره في البلقان البيزنطي/ السلافي، ولكن الوقف تطور ووصل الى ذروته مع الحكم العثماني الطويل الذي استمر حوالي ٥٠٠ سنة لعب خلالها دوراً كبيراً في التطور العمراني وفي السياق الاقتصادي الاجتماعي من خلال المنشآت الخيرية التي كانت تقدم الخدمات الدينية والثقافية والصحية (الجوامع والمدارس والمكتبات والمستشفيات... إلخ) والمنشآت الأخرى التي توفر الدعم المادي لها (خانات وحمامات وأسواق... إلخ).

وتكفي الإشارة هنا إلى أن بعض العواصم والمدن الحالية في البلقان ارتبط تأسيسها بوقف معين (سارايفو وتيرانا وكورتشا... إلخ)، ولذلك فإن صاحب الوقف الأول يحمل لقب "مؤسس المدينة"، بينما لدينا مدن يشير اسمها بوضوح إلى دور الوقف في تأسيسها مثل "غورني وقف" و"دونيي وقف" و"كولين وقف".

وفي ما يتعلق بسارايفو بالذات، التي ارتبط تأسيسها بالوقف، فقد أصبحت لدينا حول هذا الدور المميز للوقف في تطورها التاريخي دراسات عديدة، في البوسنوية وأخيرا في العربية، ولكننا نود هنا التوقف عند آخر ما صدر في سارايفو حول هذا الموضوع، لأنه يقدم جديداً في تناول الموضوع وليس في الموضوع ذاته. والمقصود هنا كتاب "واقفو سارايفو وأوقافهم ١٤٦٢-٢٠٠١" للكاتب مايو دزدار، الذي صدر عام ٢٠١٠ عن "المعهد البشناقي" في سارايفو، الذي هو آخر تجليات الوقف بالمعنى الحديث.

ويمكن القول أن الكتاب يقدم جديداً في أمرين على الأقل، فالمؤلف مايو دزدار اعتمد على الدراسات المتخصصة حول هذا الموضوع ليقدم مجلداً فاخراً يزاوج بين المعلومة الموثقة والصورة الجميلة التي التقطها بنفسه لأهم المنشآت التي بنيت بواسطة الأوقاف، والتي لا تزال تميّز سارايفو إلى الآن. وأما الأمر الآخر، فيتعلق

بالمعهد الذي أصدر الكتاب (المعهد البشناقي) نفسه، والذي يمثل في تأسيسه عام ٢٠٠١ التطور الجديد للوقف على النمط الغربي (فاونداشن). وهكذا يلاحظ في العنوان، إن الكتاب يستخدم التعبير العربي الذي دخل اللغة البوسنية وغيرها من لغات البلقان ("وقف" و "واقف") على حين أنه مع الوقف الاخير يستخدم التعبير الجديد في اللغة البوسنوية "فاونداتسيا" المأخوذ من التجربة الغربية التي تتطور باستمرار.

ونظراً إلى أن الكتاب موجه لغير المتخصصين، إذ يهدف بالدرجة الأولى إلى توثيق الأوقاف بالصورة وصولاً إلى التعريف بـ"المعهد البشناقي" ومؤسسه، فقد بدأ بمقدمة عامة أعاد فيها الأوقاف إلى جذورها التاريخية التي يختلف الباحثون حولها، فأعادها هو الى قانون حمورابي، ثم انتقل إلى الوقف بمعناه الإسلامي وأنواعه وصولاً إلى الدولة العثمانية.

وفي ما يتعلق بالبوسنة، التي لها خصوصية في هذا المجال، تناول المؤلف الأوقاف وإدارتها بحسب العهود المختلفة التي ميزت تاريخ البوسنة وما آلت إليه الأوقاف في كل عهد. ومن أطول هذه العهود كان العثماني، الذي استمر خلال (١٤٦٢-١٨٧٨)، والذي أنشأت فيه الأوقاف الكبرى، ثم العهد النمسوي (١٨٧٨-١٩١٨)، والعهد اليوغوسلافي الملكي (١٩١٨-١٩٤٠)، والعهد الكرواتي القصير (١٩٤٠-١٩٤٥)، والعهد اليوغوسلافي الجمهوري (١٩٤٥-١٩٩٢)، وصولاً إلى البوسنة المستقلة منذ ١٩٩٢. وبعبارة أخرى، فإن الكتاب يوضح أولاً أهم الأوقاف التي أنشئت خلال العهد العثماني، ثم مآل هذه الأوقاف بعد أن انتقلت البوسنة من دولة مرجعية إسلامية (الدولة العثمانية) الى دول بمرجعيات مختلفة يختلط فيها الديني والمدني والقومي الإقصائي، وفي هذا السياق، يذكر المؤلف كفاح المسلمين خلال العهد النمسوي (١٨٧٨-١٩١٨) للحفاظ على أوقافهم، وهو ما نجحوا فيه مع موافقة فيينا في ١٨٨٣ على إنشاء هيئة تمثل المسلمين وترعى شؤونهم الدينية والتعليمية والثقافية التي كانت تقوم كلها على الأوقاف الموجودة من العهد العثماني. واستمرت هذه الهيئة مع دخول البوسنة في الدولة اليوغوسلافية الجديدة التي أصبحت الآن تمثل كل المسلمين في يوغوسلافيا وليس البوسنة فقط، والتي وجدت فيها إدارة خاصة

للأوقاف. ومع أن النظام اليوغوسلافي الملكي (١٩١٨-١٩٤٠) لم يرحب كثيراً بالمسلمين وضغط عليهم لأجل تهجيرهم إلى تركيا، واستفزهم لذلك بهدم أقدم الجوامع ومصادرة أوقافها (كما هو الأمر مع جامع بورمالي في سكوبيه، الذي هدم في ١٩٢٦)، إلا أن الأوقاف في البوسنة تعرضت لخطر أكبر في العهد اليوغوسلافي الجمهوري (١٩٤٥-١٩٩٢)، وبخاصة في سنواته الأولى التي تميزت بالطابع الأيديولوجي المعادي للمسلمين الذين يرتبط وجودهم بالأوقاف الموروثة من العهد العثماني. وهكذا يذكر المؤلف أن النظام الجديد كان يقوم بمصادرة الأوقاف بشكل متواصل خلال (١٩٤٥- ١٩٥٩) الى حد أن "إدارة الأوقاف" في الهيئة الإسلامية حُلّت لأنه لم يعد هناك أوقاف لتديرها، وهي الفترة التي تم فيها تهجير مئات الألوف من المسلمين إلى تركيا.

ومع أن الوضع اختلف بعد ١٩٦٦، فأعيد ترتيب يوغوسلافيا وتم الاعتراف بمسلمي البوسنة (البشناق) كشعب مؤسس ليوغوسلافيا الجديدة التي برزت مع دستور ١٩٧٤، إلا أن موت تيتو في ١٩٨٠ وانهيار يوغوسلافيا حملا إلى البوسنة المستقلة في ١٩٩٢ كارثة جديدة، تمثلت في الحرب التي شُنّت على البوسنة ودمرت الكثير من الأوقاف باسم "التطهير العرقي"، وهو ما يوثّقه الكتاب في تعريفه بما تم تدميره أو ترميمه من المنشآت المعروفة في سارايفو التي ارتبطت بالأوقاف. وبعد هذا التاريخ، ينتقل المؤلف إلى التعريف بأهم الأوقاف والواقفين، بدءاً من الوقف الأول الذي أقامه الوالي عيسى بك في سارايفو خلال (١٤٥٥-١٤٥٦) على ضفة نهر مياتسكا (جامع وحمام وخان وجسر على النهر... إلخ) ، وهو ما أصبح نواة مدينة سارايفو، التي وصلت إلى عصرها الذهبي في النصف الأول للقرن السادس عشر مع الوالي والواقف المعروف خسرو بك.

ويلاحظ هنا أن العثمانيين كانوا دخلوا في خاصرة البوسنة من الجنوب منذ ١٤٥٠ وأقاموا فيها هذه النواة العمرانية قبل أن يكتسحوا البوسنة في ١٤٦٢. ومع أن هذا الوقف الأول أقيم في وقت مبكر واستحق الواقف لأجله لقب "مؤسس سارايفو"، إلا أن الوقفية الخاصة بهذا الوقف تأخر وضعها وتوثيقها حتى ١٤٦٢، وهو ما

يتصادف مع سقوط مملكة البوسنة بيد العثمانيين. ونظراً إلى الظروف التاريخية التي ورد ذكرها، فقد اقتصر القرن العشرين على وقفين جديدين فقط في سارايفو، كان الأول هو الجامع الذي أسّسه الحاج إدريس في محلة هراسنو في سارايفو في ١٩٣١، والثاني هو الذي أقامه عادل ذوالفقار باشيتش في ١٩٩٩ في محلة كوبيليا غلافا وسمّاه باسم والده جمال الدين ذوالفقار باشيتش. ويختم المؤلف الكتاب مع آخر وقف في سارايفو، ألا وهو "وقف المعهد البشناقي" الذي أسّسه باشيتش المذكور.

وتجدر الإشارة إلى أن ذو الفقار باشيتش (١٩٢١- ٢٠٠٨) كان من الشخصيات المعروفة في البوسنة، حيث مثّل الخط المطالب باستعادة الهوية البشناقية، ولجأ إلى الخارج (سويسرا)، حيث تحول رجل أعمال ناجح، وعاد الى البوسنة في ١٩٩٠ ليشارك علي عزت بيغوفيتش تشكيل أول حزب ديموقراطي (حزب العمل الديموقراطي) ويؤسّس بعض المؤسسات باسمه. وفي هذا السياق، أسّس "المعهد البشناقي" في ٢٠٠١ على شكل وقف بالمفهوم الحديث (فاونداشن)، حيث يضم مجلس إدارة خاص بالوقف يتولى تسيير هذا الوقف بحسب أهدافه التي وضعها الواقف، وبالتالي فهو لا يتبع إدارة الوقف في الهيئة الإسلامية التي أعيد الاعتبار لها في البوسنة بعد الاستقلال. وفي الواقع، يضم هذا الوقف مبنى حديثاً في جوار حمام خسرو بك القديم (بني في ١٥٣٧) في قلب سارايفو التاريخية الذي تم ترميمه وتحويله بما يناسب أهداف المعهد (صالة للحفلات الموسيقية) حيث يشتمل على قاعة للمحاضرات ومكتبة غنية للباحثين في تاريخ البوسنة والبشناق.

وأخيراً يمكن القول إن الكتاب يأتي الآن مع تزايد الاهتمام بالأوقاف، ويستحق الترجمة إلى العربية مع مقدمة أخرى للتعريف بهذا الجانب التاريخي والبصري الجميل للأوقاف في سارايفو خلال تاريخها المميز، إذ يحتوى على مجموعة قيمة من الصور القديمة والحديثة عن سارايفو تبيِّن أهمية الأوقاف فيها.

فهرس

مقدمة..... ٣
الحريم العثماني..... ٥
السلطانة حفصة..... ١٥
السلطانة خرم ٢٣
السلطانة نوربانو...سيدة النور..... ٤٤
السلطانة صفية..... ٥٢
نائبات السلطان..... ٦٣
أثر هيمنة الحرملك على الدولة..... ٧٢
انهيار سلطنة الحريم وصعود آل كوربلي..... ٨٩
الحرملك ومجتمع النساء في القرن التاسع عشر..... ١١٠

التعليم الرسمي للمرأة العثمانية ١١٨
نساء الفقر والثراء..... ١٢٣
أوقاف السلطانات الخيرية..... ١٢٥
مؤسسة الأوقاف والاقتصاد العثماني..... ١٢٧
جامع مهرماه سلطان..... ١٣٠
تكية خاصي سلطان..... ١٣٣
أوقاف السلطانات..... ١٣٨
أوقاف السلطانات في مكة..... ١٤١
الفهرس..... ١٥١